

هسته الرواية



يوسف الخديف

في حريف ٦٤ ، وصلتني ابي فرح
السؤال بحث البحث عن البرول ، ومع
اين فخره من غير ذلك العلم ، رحلت
اليمن ، هناك المهندس الناصر ، الشروز
بوجود وثلاثه اير القصصات ، المأتمه
2 بحر التكليف ، سؤجل القرو
ستوان ، لم طول ، تنهر الحكاية على
اربع الواقع ، شيئا الروايه ، اعدتها
نمو كالتالي : اثبتت كمنسكه واعظم
المهندس الهندسة ، حفر بها مكان التليس
رحلوا ، سافروا في الزمان ، كون كل
منهم نفسه يونوبا خاصة به ، اصوات
المهندس تصبح شروغا وشقوقا نصيب
وجودهم ، يرسل المهندس ، الجوابون
النساء في رحم القليل ، يلوب تحت
القدامهم خريق المسودة ، حب الدين
مرحان ، سلسلة على الله ، ابو
السعود ، العلم يلوب ، المعسدة ،
علوم ، وديان ، وجوه نطل علينا من
خلال اسطر الرواية ، نعرضهم فيها
كل منهم يصغر على واقع يعيشه ،
تعتد بداخله رقة دافئة في الدخول
مع الواقع في ظلاله انسانية ، تيسدا
وعيش ونوت مكتسبة لوندراحة الجاسدا

التان الذي يمرره الروائي ، هو
البلد الذي يعيش في قلبه ، اليستات
الشكوى ، تلحق اطفالها ، الفقراء
الشرفاء ، وما بالعائلة التي يجهلونها في
التيهات . الرواية ترفلج الحكاية
التقليدية ، ولغة التواضع ، والتصوير
الكوني ، خلق عالم خاص بها ،
لا زمان ولا مكان ولا شخصية ،
والقصة ايما من جزئيات الواقع وش
البعيدة البوصة ، والخيال اسطورية شديدة
في انه يبدل الواقع الطبيعي ولا تتعد
به ، ولكننا نعلم بأنه فخره واقع
التيهات المعبرة الآن .

يوسف القعيد

البيات الشتوي

الناشر

مكتبة مديولي • القاهرة

البيات الشعور

بقلم

يوسف القعيد

احکم بالعدل یا قاضی
قدامک مظلیم ..

● من موال شجری ●

نایب
رئیس



کتابخانه مجلس شورای اسلامی

مجلسة لجانها
واللجنة

تقرير عن الحالة في السوالم

ساعة الاصيل في مسجد سيدى الغرب .

يقف الشيخ محمود أمام باب المسجد ، على الدرجتين الصغيرتين ، وفي كل يوم يدرك انهما تأكلتا ، وأنه عند جمع المسانية القادمة ، سيبني بدلا منهما ، غير أنه في كل عام كان يؤجل الموضوع كله .

— السنة الجاية تفرج .

الشيخ محمود يخرج ساعتها القديمة ، يتحسبها بيده : يقربها من عينه اليمنى حتى يلامس زجاج الساعة بقايا رموش العين ، يضمها في جيبه الصدري الداخلى ، يدخل الميضة ، يتوشأ ، يتمشى في باحة المسجد ببطء ، ميناء تظالمان شيوخ البلد ، رجال كبار ، يجلسون في صحن الجامع طول النهار ، يحكون حكايا مملة بالوجدن أيام خير مضت ولن تعود ، وتخرج الكلمات من أفواههم التي بلا أسنان ، هشة خافتة كالإين . أهم باتون وقت الضحى ، يخلعون نعالهم القديمة ، التي كانت أحذية لأولادهم ، يضعونها تحتهم ، يستدون العصى التي يتوكأون عليها على الحائط . يتقارب الشيوخ ، يتسّمون وقد رفق المرض من كل شيء فيهم ، يجعمون شمل الذكريات القديمة ، وتموت الرؤى المرتعشة على الشفاه ، وتتعلق في العيون دموع جفت منذ سنوات . انهم يترحمون على الذين ماتوا .

— سبقونا الى دار الخلود .

يتذكرون الإحياء ، الذين اتقدمهم المرض في بيوتهم . يتأملون حباتهم ، انهم تقصوها يجرون . يلهثون ، يكرهون بعضهم البعض ، يتعاركون على دور المياه والري والحصول . يكتبون الشكاوى في السر . لأولياء الله وأولى الأمر في البندر . غير أنهم يدركون أن . في لحظة المعساري ، انهم جميعا مجبرون على السفر بمفردهم . في آخر الأمر ، الى جهة غير معلومة .

ان الشيخ محمود يستعد للصعود فوق المئذنة ، كي يؤذن لصلاة المغرب ، انه ينظر الى المئذنة من باحة المسجد ، بناء قديم ، حائل اللون ، يشق الفراغ الأزرق المفسول ، يظلم السماء الصافية ، يلتقى بها على البعد ، يتلاصق معها ، ويصبح في النهاية جزءا منها . من فوق المئذنة ، شاهد الشيخ محمود ، مناظر تظالعه كل يوم ، مساحات لا نهائية من الخضرة ، وفي احتقول رجال وأطفال ، يحلون البهائم ، يفتسلون ، يصلون ما فاتهم من قرائن اليوم ، استعدادا للعودة من الحقول . في السماء الصافية ، طيور تستعد للهجرة نحو أعشاشها بعد يوم طويل . يحاول الشيخ محمود ، أن يرى أكثر من ذلك ، أنه

يشاهد بلادا بعيدة ، بقعا يختلط فيها البياض بالسواد وسط الحقول . يبدو له ترعة ساحل مرقص ، ترتفع على البعد ، حتى تلتقي بالافق ، وتكون قد تحولت الى مجرى صغير ، خط أزرق منموج كقناة في أحد الحقول ، بقايا ظلال المئذنة تنكسر على الحارات والبيوت والحقول القريبة . فوق أسطح البيوت ، يتناثر الحطب الجاف ، وبعض البيوت خلا من الحطب ، فتبدو أسطحها رمادية اللون ، ومن منساور البيوت يخرج الدخان . الشيخ محمود يدرك أنه لو كان في الحواري الآن ، لسمع صوت طشش الثقيلة ، وشم رائحة السمن المحروق ، ولراى الرجال على المضارب ، وأمام دكاكين البقالة والأطفال يلعبون في الحواري . في الحقول ، رجال تأخروا في العودة بسبب أمعاهم . على الجسر يقف الشبان ، يذخون ويتحدون ، كلمات كسولة ، تتخللها قترات سميت طويلة ، وعلى الناحية الأخرى من الجسر ، مسافرون ثم تحضر لهم سيارات . انهم يقفون وقد تعلقت عيونهم بمكان بعيد في الأفق ، حيث تنوء الجسر تماما بين الأشجار العالية . انه أول مكان تظهر منه السيارات القادمة من كفر غوانه . تحت الشيخ محمود مباشرة ، باحة المسجد والبضة والدورة وظلمة رفع المياه . ان الرجال توشأون ، يصلون ما فاتهم . وفي صحن الجامع ، مصباح قديم نأفس ، يروح ويحيى ، فتتحرك الظلال والأشواء مع حركته البهشة ، فتكتشف عن محتويات الجامع .

وعلى المدى البعيد ، كانت زرقة السماء غامقة ، وكانت هناك بعض النجوم القليلة بدا لمعانها خائبا . ان ليل الخريف البارد ، لمسائه الطوال ، يرتفع الآن من الحارات والجسر والحقول

المسيطة حتى الانهائية . الشيخ معمود يخرج ساعته ، يفريها هذه المرة من عينيه اكثر من المرة السابقة ، يضعها في جيبه بسرعة ، يدور حول المذبة ، تهب نسمة هواء خريفية فتداعب جلبابه ، يعدل وضع العمامة على رأسه الاصلع ، يرفع يده اليسرى ، ينحسر عنها الحكم ، فتبدو رفيعة معروفة . يرفع يده اليمنى . يضمها على خده . يغطي بها نصف فمه ، يفتح عينيه اللتين يلا رموش على آخرهما ، يستنشق هواء مبللا برائحة الماء والخضرة ، يفتح فمه على آخره ، تبدو عروق رقبة غليظة منتفخة - الله اكبر ، الله اكبر .

على مدى سنوات طوال ، ولا احد يدري كم عددها ، ايام غير معلومة ، ساعات لا يحسبها احد ، حدثت اشياء كثيرة ، أحداث مذهشة ، حكايا لا تصدقها الاذان . ان هذه السنوات التي مرت ، لحظات بطيئة من الفراغ ، تسربت وممها حياة الناس ، المباد ، معاناة لحظات العمر ، الشيخوخة والمرض ، ثم الموت في النهاية . ويكتب الناس على وجه الايام والليالي قصص حياتهم ، حكايا ايامهم العجاف . يتعاقب الليل والنهار ، تدور دورة الخريف والشتاء ، ذلك ما كان ، وما هو كائن ، غير ان ما يحدث في هذه اللحظة ، في حياة افكور السوالم « الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين من مساء يوم الاثنين الخامس من شهر اكتوبر سنة اربع وستين وتسعمائة واثنى عشر من بعد ميلاد السيد المسيح » . امر غير عادي ، بل انه يحدث في حياة البلد للمرة الاولى .

الناس تنظر للأمر مذهشة ، ويحاول كل منهم حساب الامور في ذهنه ، كي يتوصل الى رأى فيما يحدث . وبمجرد ان يخدش شكل الحياة في السوالم ، حادث ما ، ويتغلغل الى حياة الناس ، حتى تتباين وجهات نظرهم اليه ، ياتي المساء ، ويجمعون على المصاطب ، او على الجسر الكبير ، او في باحة المسجد ، وتناقشون في الامر ، يقولون كلمات بسيطة ، تخرج من الافواه مطحونة ، متأكدة الحروف ، يدلي كل منهم برأيه ، ولا يتفقون على امر ما في النهاية . ان الكلمات ليست اهم الوسائل في الاتصال بين الناس ، الصمت ، النظرات المتكررة الزاخرة بالصبر والحرارة ، النعب والاجهاد المتواصل على ملائح الوجوه . ربما كانت تشكل اتصالا روحيا بين الناس ، اكثر من الكلمات . نظره الدنيا ، تنبع عنة المساء ، البيوت والثرعة والاشجار

والجسر الكبير . يعود الرجال الى بيوتهم ، في حجراتهم الصغيرة ، يعيدون ارجوتهم ، واولادهم الصغار ، التعلق على ما يحدث . والرجل لا يحكى فحسب ، انه في منزله ، وهنا توجد مملكته ، لذا فانه يحكى ما حدث ، ويعلق عليه ، ويتناوله بالمناقشة ، ثم يدلي برأيه النهائي في الموضوع ، على انه الرأى الصحيح ، الذي لا يقبل مناقشته مع احد .

اليوم هو يوم الاثنين ، وفي ساعة الاصيل ، والرجال وافقون على الجسر ، يتحدثون في امور عامة . توقفت سيارتان ، من سيارات الحكومة . على الطريق الزراعي . ثم اتجها الى الجسر ، ومنه الى السوالم ، دهنس الناس ، ان السيارات تنجها الى الفضاء الذي يفصل بين السوالم بحرى والسوالم قبلى ، وهو ليس قضاء وانما ، فحوله منزل من كل ناحية ، والسبب في تركه قراغا ، ان فيه دائما نشع ، يصبح بركة مياه ايام الفيضان . مما ادى باهالى البلد ، لجعله وفقا لمسجد سيدى الغرب .

ينزل من السيارات رجال ، افندي ، قادمون من البنادر ، ينزلون اشياء كثيرة ، منادى ، خيام ، حجاب . ويدور بين الناس القرباء ، حديث ، غشكات ، وفي محاجرهم تدور عيون مستطلعة ، جريئة . ان من ينظر الى البيوت المحيطة بالمنطقة التي يقف فيها الرجال القرباء ، يجد ابواب البيوت والناور الصغيرة واسطحها ، قد أصبحت مبطنة بالعيون الصغيرة المستطلعة . اطفال سفار ، نساء ، شيوخ مقعدون في المنازل . العيون تنظر ، وقد ران على الناس صمت مشحون ، متوح بالقلق والرغبة في معرفة امر هؤلاء القرباء .

بعد قليل ، كان الاطفال والصبية ، قد اقتربوا من السيارات والرجال القرباء . راوهم عن قرب ، استطاعوا ان يستمعوا الى كلماتهم ويرون ما معهم ، فادرك احد الصبية الصغار ، حقيقة ما يجري . القادمون يحفرون الارض ، ويدقون الاوتاد لتصب الخيام . للسكنى فيها ، وبمجرد ان توصل ذهنه الى ذلك ، انصرف مسرعا ، كي ينقل الخبر الى اهالى البلد ، وعندما يهل على السوالم شخص غريب ، فان جميع اهالى البلد ، رغم ما يكون بينهم عادة من الخلافات ، يعتبرونه قسيفهم ، وبرحيون به ، وغرورون لوجوده جميعا .

على الجسر ، ارسل الرجال في طلب حب الدين سرحان ، كم

يسألونه عن الغرياء . وقبل أن يحضر حب الدين ، راح كل رجل يحن من يكونون . قالوا : قد يكون الغرياء من مصلحة المساحة ، أو من المركز ، أو من بنك التسليف الزراعي ، أو من وزارة أحمه العمومية . قال لهم حب . بعد أن حضر ، أنه يعتقد أن الذي حضر الليلة هو الباشمهندس .

— الباشمهندس مين ؟
ذكروهم حب الدين ، أنه مثل ستة أشهر مضت ، حضر إلى البلد ، شاب صغير ، يضع على عينيه نظارة طبية . قال أحدهم :

— صحيح ، فيهم واحد بنضارة ، أنا شفته بعيني .
إن هذا الشاب . قد أخذ عينه من الأرض القضاء الصغيرة ، وعينة أخرى ، من نصف الفدان الذي يملكه ورداني . أخذ هذه العينات ، ثم سافر إلى مصر ، ومن يومها لم يعد ، ونسى الناس التالي : حكايته تماما .

فاكروين والله .
رفع كل منهم يده إلى جبهته ، ووضع السبابة بجوار أذنه اليمنى ، مؤكدا أنه يتذكر ذلك ، وأن السنة أشهر ، نصف السنة ، مرت كأنها فرقة كعب قصيرة .

أرجال يستعيدون الآن حضور المهندس ، كان الوقت صباحا ، وكانت شمس ذلك اليوم زاهية . قياس الأرض ، تحديد مكانين . أرض الوقف الخلاه ، أرض ورداني بحرى البلد ، أخذ عينه من السكان ، حضور العمدة إلى المهندس بنفسه ، سألوه عن السبب في أخذ العينات : المهندس يقول له ، وهو منهك في عمله ، هناك احتمال وجود بترول في المنطقة ، تحليل العينات إجراء مبدئي ، ونتاليه ليست نهائية : قد يعود أو لا يعود إلى البلد بعد ذلك ، العودة متوقفة على نتائج الدراسات التي ستجرى على هذه العينات يوميا : سأل المهندس ، أسئلة كثيرة . عن الاسئلة والبلاد المحيطة بها ، عدد سكان البلد ، مساحة الأرض ، التنظيمات السياسية ، متوسط دخل الفرد ، مستوى التعليم . ودار بعض الفلاحين في بيوتهم ، ومكث بداخل البيوت طويلا ، وشاهد طعام الناس . وجلس أمام الكناون والفرد . ودحن بحرف المعاش وشرب من الأزيار . وفي المساء ، رحل المهندس عن البلد .

يقول الرجال ، أن حكاية المهندس . أيامها . منذ نصف عام ، تحولت إلى نكتة ، وبعد رحيله ، في الليل ، في عشة سلسيله ، تناولوها بالحديث .
— قال بترول قال .
قال أحدهم :

— بترول يعني جاز ، والجاز بنشغفل فيه الوايور واللمبة نمره مشرة .
— باعم دا فيها اللي مكفيها .

وشحكوا ، أنهم يستلقون على ظهورهم من الضحك . وبين رشفات الشاي ، بدأوا يتكلمون ، تتمدد أصواتهم في رهبة الليل . ومع دخان الجوزة ، بدأ بعضهم يقنى ، تخرج أصواتهم الليل . بموال عتاب حزين . وقال لهم حب الدين : أن البترول هو الجاز الذي يشترونه من المعلم يعقوب : بالكناون ضمن التومين ، مع السكر والزيت . وأنه رغم غلو ثمنه ، إلا أنه يخرج من الأرض بكميات كبيرة . وعارضه أحدهم ، قال أن الجاز يصنع في السويس . وقال شاب ، كان يتعلم في المدارس من قبل ، أن أول دول العالم انتاجا للبترول هي دولة الكويت .

قالت سلسيله من خلف نصبة الشاي :
— آهي تخاريف ليل .

آخر الليل ، عاد الرجال إلى بيوتهم ، وكانت البيوت والحارات والأشجار ، تنام في الظلام كجثث ميمه . لم تتحدد ملامحه بعد : لخلق مقبل ، وكان السكون بعد راحته على البلد .
ذهب الرجال إلى حقولهم في صباح اليوم التالي ، وهناك ، بدروا في رحم الأرض ، ضايبا ومواسم وهمة واحلاما . ونسوا حكاية المهندس والبترول خلال سرورية الحياة وقهايتها المتجددة ، حيث تحنط الاحلام ويرسو الدبول ، ويعلو الصدا روح الحياة ، ويؤجل كل شيء .

حب الدين يستأذن من الرجال ، أنه يريد أن يذهب إلى المهندس ، للسلام عليه والترحيب به ، والسؤال عن الصحة والحال وما فعلته به الأيام .

— وتعرف لنا الخبر أبة ؟
تواعدوا على اللقاء في عشة سلسيله بعد صلاة العشاء .
حب الدين يسر ناحية البلد ، شابكا بده اليمنى في بده اليسرى

خلف ظهره . يسير ببطء ، باثرا الى الارض تحت قدميه ، متفكرا فيما صارت اليه الحال . الرجال يقفون على الجسر . المساء يحل الآن بالسواثم ، وظلال الشمس اللينة الطويلة يهتت معالمها وذابت ، تهب النسمات الطرية فتصافح الوجوه ، ويقل الرجال الواقفون على الجسر ، يذهب بعضهم لمسلاة المغرب . ويعود البعض الآخر الى منازلهم . لم يكن هناك حديث للناس ، سوى موضوع المهندس ، الخيام التي نصبت ، السيارات ، ذكرى حضور المهندس الى البلد منذ ستة أشهر ، العينات ، الارض ، البترول ، ونسى كل فرد همومه الخاصة ، واشترك مع الآخرين في هذا الموضوع الطارئ وقال أحد الرجال لزوجته ، وهما يتناولان طعام العشاء ، في وسط داره :

— لا ، ولكنه ياما حاشوف .

بعد العشاء ، عشة سلسبيلة ، وسلسبيلة مشغولة الآن بنجهاز العشة ، تحضر الوابور ، البراد الكبير ، الأكواب ، الشاي ، السكر ، العصا ، عشة سلسبيلة بجوار الجسر ، على الترفة ، من مواجهتها ، في الناحية الاخرى ، مصلى صغير ، دوران طيني منخفض ، في التواء سكة الثمان ، على شكل نصف دائرة ، فرش بقش ارز ، وعند باب الصغير درجات من الحجر ، تبدو مفسولة دائما بمياه الترفة ، توفوا الرجال عليها قبل الصلاة . في منتصف المصلى ، شجرة جميز عجوز ، يقول الرجال انها حضرت هوجة احمد عرابي المصري . بجوار عشة سلسبيلة يوجد سيل ، ثلاثة اربار دفن نصفها الاسفل في الارض ، فوقها تكسية عنب تظلها « وا بحث من سنا مسافر عطشان ساعة القبالة » .

عشة سلسبيلة تقوم مقام المقاهي التي يشاهدها الرجال في البنادر ، غير انه لا يوجد في العشة كراسي ولا متاع ، ولا يحضر كل الرجال الى العشة ، وحتى الذين يحضرون اليها ، لا يواظبون على الحضور . اثنان فقط ، لا يد من وجودهما كل ليلة ، سلسبيلة ، ابي الله وجب الدين سرحان ، وهما صاحبا العشة ، اما وجوه الرجال فتتغير كل ليلة .

يجلس الرجال في دائرة ، او في مجموعات صغيرة حسب الحال ، وتدور عليهم اكواب الشاي والجوزة حتى آخر السهرة . انهم يحضرون الى العشة كي يستريحوا من غناء العمل طول النهار . سلسبيلة تجلس خلف التغطية ، في آخر العشة من الداخل ، اما جب الدين ، فانه يجلس في منتصف الرجال ويقوم بتوزيع الطلبات عليهم .

— بقى وسلمت على الباشمهندس ؟

ينسى جب الدين احيانا عمله ، ويجلس وسط الرجال ، يحكي لهم الحكايا ، الرجال ينصتون ، ويظلل يحكي ، الى ان تذكره سلسبيلة بعمله ، فيقوم كي يوزع الطلبات ، وهو يحكي خلال ذلك أيضا . الرجال في السواثم ، يحضرون الى العشة ، مدفوعين

الى ذلك برغبة في ان تكتحل عيونهم بمرأى سلسيله . او سماع حكايا حب الدين . السهر عند سلسيله سفن من الورق ، يحرق فيها الرجال في ليل السوالم . حب الدين يجلس الآن وسط الرجال ، يحكى حكاية المهندس . ذهب اليه ، سلم عليه .
- الحمد لله على السلامة يا باشمهندس .

يقسم حب الدين ، ان المهندس ما زال يذكره ، لا يشككه فقط ، بل باسمه ، وانه قال له : اترك ياسي حب الدين . وسأله عن البلد والعمدة ، واسم صاحب الأرض ، التي أخذ منها العمدة منذ ستة اشهر ، يقول حب الدين ، ان المهندس قد حضر هذه المرة لاقامة طويلة . وانه قد أجل زيارته للعمدة حتى صباح الفد ، وانه قد نصب ثلاث خيام في أرض الوقف .
- وما عرفتش ايه الموضوع ؟

يقول حب الدين : الموضوع كله سيعرف في الفد . لا دام ، للاستمجال ، سيكون اخيرا . قال لهم : انه مطمئن للمهندس ، فهو رجل لطيف ، يحب الناس ويسعى لمصلحتهم ، المهندس أكد له ، ان الابام القادمة ستحمل للسوالم كلها الخير ، خير من نوع جديد . لم يعلق الرجال اهمية على كلام حب الدين الاخير .

- ومئين ييجي الخير ؟

- الخير ايامه راحت ياعم .

يحكى لهم حب الدين ، شاهد المهندس ، يعلق غياراته الاخرى داخل الخيمة ، وان المهندس سألته عن كيفية الحصول على الطعام وسمعه ، وان كان في السوالم بيت من الممكن ان يستأجره ، وانه سألته عن اسم مأمور المركز ، ومعاون تقطة ، وليس تكلأ العنب . لم يفهم الرجال كلام حب الدين ، وبدأوا يفقدون اهتمامهم بالموضوع كله . كانوا يتصورون ان المهندس سيفادر البلد في الصباح الباكر على الاكثر ، غير ان الموضوع لم يكن واضحاً في ذهانتهم ، كانت الامور شباوية وقلقة في فهم كل منهم . الضبابية تكمن في امر واحد ، ماذا يريد المهندس من بلدهم . كانت حكاية البترول والخبز الذي ينتظر الجميع . احلاماً لم يكن هناك من يحلم بها . اقصى ما كان يحلم به احدهم . في هذه الليلة ، هو ان يكون حسابه في الجمعية التعاونية في آخر العام بالمعدل ، وان يتبقى له من اعم الحصول ما يكسو به الاولاد ، او ان يمتد دور المياه يوماً واحداً

او ان ينجح ابنه الذي يتعلم في مدرسة المركز ، او ان تلد جاموسته عجطين في بطن واحد .

حب الدين يقول لهم ، انه احب المهندس ، ومن يدري . معه يكون اهله ، من الفلاحين مثلهم . الرجال يدخنون ، يمسك حب الدين غاية الجوزة ، يجلس وسطهم ، تدور القاباة بين الافواه ، وكل منهم يمسك بطرفها قبل ان يدسها بين شفثيه ، تنوهج الجعورات في حجر الجوزة ، ويخرج الدخان الأزرق من الانوف والافواه كثيفاً ، يتلون في جو العشة ، فيملؤه بالظلال ، التي تحجب عن الرجال الضوء الخافت . ترتفع ايادي الرجال ، تمسح الظلال عن عيونهم ، يحدثون في بعضهم ، بتأكد كل منهم ، ان الآخرين كما هم امامه ، يصعد الدخان الى رموسهم ، يشعرون بالدوخة . وتنفك عقيدة اللسان . الكلمات تقال الآن ، استكتها بحري كسولة ، كما في حياة السوالم من الحزن اليومي المتجدد ، حيث يبدأ وينتهي كل شيء بعد صلاة العشاء . ويصبح الذهاب الى الفرائش امراً له خطورته ، والجلوس في عشة سلسيله كتكت الكثير . ظلام الليل يتوج اليوم كله بالخير . يوم مر كغيره من ايام العمر ، وقد يمر اليوم بلا عمل ، وبذلك يكون قد سقط من حساب الحياة .

ان فترات الصمت التي تتخلل حديث الرجال قد طالت ، واصبحت الشفاه المزمومة لا يخرج منها سوى حروف قليلة ، الحديث يتناول كل ما في حياة السوالم الصغيرة . الحديث يدور بين الرجال ، وسلسيله تنظر الى الرجال بعيون ميتة ، من خلف النسيجة ، وتنادوا ما تشارك في الحديث معهم . حب الدين يتوسط الرجال ، وقد كف عن متابعة حكايتهم مع المهندس ، غير انه ذكر يود ان يقول لهم ان المهندس قد وعدته بالعمل معه ، سواء في السوالم او في بلاد اخرى ، وانه خير له ان يترك البلد ، فدعاه لا يسر احداً من الناس . غير انه صمت ، جلس ويداه في حجره . وسند الجوزة الى صفيحة المياه امام سلسيله . الحديث يقفز كتيلار ترعة ساحل مرفص ، الذي يتساح تحت العشة مباشرة . والكلمات مسترخية كما تعض لياليهم تحت سماء منقوشة بالنجوم الالامية . مثقلة بغياب ليالي الخريف الباردة ، والحمل في حديث الرجال متشاقلة كتشاقل مرور الحياة في السوالم .

وامشة ، لحظات نادرة ، يشون فيها كل الاشياء ، يتحسون
الاجساد البضة الناعمة ، يعيشون لحظات في حلاوة الشهد ،
يقولون كلمات ملساء ، يشربون رحيق نسايتهم ، يتحسون
بالسنتهم المشققة خدود رفيقات الصبر في رقة وحسان . انهم
يلعبون في الارحام اطفالا ، شوتهن مرارة الايام وقسوتها ، وشكل
الصبر ملائح وجوههم .

ذلك ما يحدث في الليل ، ولكنهم في الصباح ...

قبل ان تصاف الليل ، قال ورداني ، وكانت تلك اول مرة يتكلم
فيها ، منذ ان جلس في العشة : ان قلسه غير مستريح لحكاية
المهندس ، وانه يمس للرجال . في الا . في الموضوع شيئا
ما ، في غير مصلحة اهل البلد كلهم ، ان قلبه دليله ، وقلبه
لا يخطئه ولا يكذب عليه .
- والله انا عني الشمال بترف من يومين .

قال ورداني ، ان رف عينه الشمال دليل شؤم ، وانه لن
يستريح الا بعد سفر المهندس وتركه البلد . وطلب ورداني من
الله ان تمر هذه الايام على خير . فمن يدري ماذا سيحدث للبلد .

- ومالكو محيرين نفسكو اليه ؟
بكوه برحل ، وترجع ريمه ..
اكمل احدهم حديث سلسيله ..
- لعادتها القديمة ..

ضحكوا ، وتعالى الضحكات في جو العشة ، طلبوا من سلسيله
دور شاي يختمون به السهرة . وخلال شرب الشاي . قالوا
لاتفسهم ، انه من المستحسن لهم ان يذهبوا الى المعلم يعقوب .
يطلبون منه المشورة ، فهو اقدر منهم على فهم هذه الامور ، قال
الآخرين . لابد من نسخ الكتاب ، لقراءة الفقيه ، فلا يمكن السكوت
على ما يحدث في بلدكم ، وتبقى بعض الرجال ، لو تمر على بلدكم
في الصباح الباكر الفجرية ، تكشف لهم الاثر ، وتعرف ماسيتون .
بعد شرب الدور الاخير . قام الرجال .

- تصبحوا على خير يا رجاله ..

ففرق الرجال في حوارى السوالم . الليل ينتصف الآن ، وفي
ظلام الليل ، تبته المعالم المألوفة ، وتبدو للناس ظلالا شامخة .
وتبدو السماء مرصعة بالنجوم . وقد تحجب النجوم غيمة منخفضة
كانها الوسادة فوق الارض ، وتظهر النجوم بين الحين والآخر ،
كانها تمزق غمزة متقطعة خلال الغيمة الرمادية . ويجب على
الرجال هواء مشبع برطوبة ليلية . يصل الرجال الى بيوتهم .
يتناولون في الحوارى امام ابواب البيوت ، يدخلون بيوتهم . وفي
الزرائب ، يطمئنون على بهائمهم ، يضعون لها العلف في المزود .
وفي حجرات نومهم يخلعون ملابسهم ، ويرتدى الرجل منهم جلبابا
قديم على اللحم ينام به . وفي حجرات نومهم : يقضون اوقافا

اختبارية ، قال عصمت بالحرف الواحد للعمدة ، ان هذه البئر صغيرة محدودة ، لا تكلف الشركة كثيرا ، ومن خلال البئر يمكن التعرف على امكانية وجود البترول وكميته ، اى عمر البئر ودرجة جودته .

العمدة لا يدرك حقيقة ما يقوله عصمت ، لقد تصور ان السبب في ذلك الى كلام عادى ، غير ان الكتب والمدارس . بعد ذلك انتقل عصمت الى كلام عادى ، غير ان العمدة لم يكن يعنيه هل فهم ، ام لم يفهم . لم يشعر العمدة الا بشعور واحد ، ان هذا الشاب حريص يجب معاومته . لقد ادرك العمدة . في التواني الاولى ، ان هناك شيئا ما يموت فيه ، دليل قبل الاوان ، وهذا الاحساس ناتج من انه امام شيء جديد تماما ، مذهش ، غير عادى ، ممثل في هذا الشاب الصغير ، الجالس امامه . يحذنه عن البئر والبترول والاحتياطيات ، يقول كل هذا بكلمات رائقة ، وان لم يكن قد فهمها .

قال عصمت ، انه قد حضر للعمدة ، للتعرف عليه ، لا يهمه موضوع البترول ، بقدر ما يهمه معرفة الرجال . انه يطلب من العمدة ان يعاونه . انه يريد قطعة ارض ، النصف فدان الموجود بحرى البلد ، حيث ان احتمال وجود البترول فيه اكثر . سيؤجروه من صاحبه بشكل مؤقت . وان ثبت وجود البترول فيه ، ستؤجروه الشركة باى ثمن يطلبه . قال ايضا ، انه يريد ان يعاونه الرجال في العمليات الميدانية في المشروع بالاجر ، حتى يصل الى نتيجة ، وانه يطلب منزلا للاقامة فيه . فذلك النافذة من الحياة في الخيام ، وانه يطلب غفيرا لحراسة المعدات والخيام والسيارتين . قال عصمت ، انه يعد يده للعمدة ، كى يعاونه في المشروع ، دون اللجوء الى الرسميات . وانه مطمئن لنتائج المشروع ، قال عصمت ، وهو ينظر الى الحقول ، من خلال النافذة المتحيرة ، ان نجاح المشروع ، يعنى ان يتغير شكل الحياة في السوالم ، لسنوات طوال قادمة .

لم يتكلم العمدة ، امتدت بينهما فترة صمت ، وكان يتناهى اليهما نهيم حمار ، ونفاه حيوانات ، ونداءات خافتة تأتي من الحقول البعيدة ، وصوت رياح خريفية تهب من الحقول الواسعة .

- قلت ايه يا عمدة ؟

- هيه ، اصل الموضوع .

في الصباح ، قرر المهندس عصمت ، ان يزور العمدة في منزله ، ارسل له من اخيره بذلك . في العاشرة ، اتجه عصمت الى دور العمدة . الطريق ، الشارع الرئيسى ، احجارات الضيقة ، كل شيء يؤكد معنى الجفاف ، ذبول وجوه الرجال الجالسين على المصاطب بدون عمل ، اخفاء الحطب من فوق السطوح ، افروع الاشجار العارية ، الجرداء ، كثنا تصاورير الرعب ، تحت الاشجار ، الاوراق الجافة المتساقطة على الارض ، تذكر الناس ، في كل لحظة ، ان السوالم ، تمر بايام الخريف . عصمت يسير في حوارى السوالم بمفرده ، واخضا يده اليمنى في جيبه الايمن ، ويده اليسرى في جيبه الايسر . انه يفكر في مشروعه المقبل ، ويدرك انه وحيد ، وانه سيواجه مصيره هنا بمفرده ، انه يكاد يحدث نفسه ، غير انه يؤجل الموضوع لحين عودته الى الخيام ، وهناك سيدون ، يكتب ، ترعش الكلمات وتلتوى الاحرف ، ومطلوب منه ان يدون الكثير .

عند الدوار ، كان العمدة وشيخ الغفر ، وحب الدين سرحان ، وبعض الرجال من اهالى البلد ، وبعض الغفر الذين ذبلت حيوتهم من سهر الليالى .

- ثورت الكفور يا باشمهندس .

- الله يخليك يا عمدة .

يتبادلان معا كلمات مماده ، تقال في مثل هذه الواقف ، السؤال عن الصحة ، والحال ، والمزاج ، كلمات يقولها الناس ، عندما يلتقون لأول مرة ، انهم لم يعرفوا بعضهم البعض ، وهذه الكلمات لا تقرب ما بينهم ، ولا حتى تبعد وحشة الصمت ، ولكنها تقال تزحم مساحات الهواء بين الرجال ، تخرج من بين شفاه مزعومة ، وتلقى على وجوه يصيبها الخجل والارتباك .

عصمت يقول للعمدة ، ان التحاليل الميدانية ، لم تؤكد وجود البترول ، ولم تنف وجوده ، وان المسألة مسألة احتمال فقط . قال عصمت ، ان المتبع في مثل هذه الحالات ان يتم حفر بئر

يقول العمدة ، ان الموضوع خطير ، وانه لابد له من الرجوع الى رؤسائه .
- لازم المركز يعرف .

افهمه العمدة بكلمات بسيطة ، ان المركز ومجلس القرية في شئت الانعام ، والنقطة الثابتة في تلاك العتب ، لابد وان تعرف الموضوع ، وانه سيرسل في طلب التعليمات من هذه الجهات . صمت العمدة ، قام من مكانه ، وقف ، تمشى ، حاول ان يتسم ، وان يقترب من المهندس ، جلس مرة أخرى ، وضع يديه في حجره ، استراح في جلسته ، وقال المهندس ، انه سيتعاون معه ، وانه يصعب عليه من الآن أى تأخير قد يعترض الامور ، قال العمدة بسرعة ، كمن تذكر شيئاً ، ان لاهالي رأيها في الموضوع ، ولا بد من الرجوع اليهم ، قبل اتخاذ أى اجراء ، اما من ناحية وجود منزل خال ، فهذا خارج عن ارادته ، فلا يوجد في البلد كلها ، منزل واحد خال ، وان انخيام قد تكون اصلح من البيوت اما من ناحية التعاون ، ومد اليد ، وحسن النية .
- احنا أهل يا باشمهندس .

قال كلاما بعد ذلك ، لم يميزه عصمت ، وكانت طيور الصباح تملأ الفضاء الأزرق ، تشرق السماء طائفة في فوح . ان البلد ، يقول العمدة ، في الحقيقة ، عبارة عن بلدين . السوالم بحرى والسوالم قبلى . وانه من المفروض أن يكون للسوالم بحرى عمدة آخر ، غير أنه يوكل نائباً له هناك . وانه مسئول عن كل شيء هنا وهناك .

قال العمدة ، ان هذه الايام تختلف عن ايام زمان . في هذه الايام ، يوجد الاتحاد الاشتراكي العربى ، أشار الى انه الامين العام ، وأن اناسي هي التي انتخبته وأصرت على ذلك ، يوجد ايضا ، مجلس القرية ، والنقطة الثابتة ، والعمدة . اما ايام زمان ، تهنأ العمدة ، رفع يده اليمنى ملوحاً بها . لم يكمل .

- عموماً ، احنا هنا ، تحت أمرك .
بقي المهندس ، تستريح نظرائه على البيوت الترابية التي بدت له ، من خلال النافذة ، بعد يده للعمدة ، يصفحه ، يؤكد له انه سيعتمد عليه بشكل رئيسي . يقول له العمدة ، انه سيكون ذراعاً اليمنى ، وانه لا يطلب منه ، سوى أن يسلمها له سبحانه وتعالى ، وأن يضع في يده بطيخه صيفي .

- حد يوصل الباشمهندس يا اولاد ..

في الطريق ، كان عصمت ، وكان التعب والاجهاد ، والاحساس المحذر بالخوف على أول طريق الوصول . همس عصمت لنفسه ، ان المسألة ، ليست الخوف أو الشجاعة ، كان في نفسه احساس ما ، ربما لا يقدر على التعبير عنه في كلمات ، لم يكن يشعر بالاطمئنان ، أدرك انه لم يصل الى ما ينتويه العمدة . ان كلمات العمدة ، وتمايز الوجه ، ولحات العيون ، والبسمات المرسومة بعناية على الشفاه ، والضحكة الخافتة ، ان كل هذا ، لا يعكس ما في نفس العمدة . عصمت يتذكر الآن ، بعين خياله ، ملامح العمدة الحادة ، عينيه الصغيرتين ، شعره الأبيض ، صدره المريض ، ملابسه ، جلسته ، نظره من خلال النافذة على البيوت والحقول والناس ، حديثه .

في الدوار ، جلس العمدة بمفرده ، طلب دور شاي ، وطلب الا يدخل عليه أحد . وقف ، سار في دواره ، وقف بجوار النافذة ، أمسك بحدبدها ، وراح يستنششق بملء رتبه هواء الخريف الجاف ، الذي يحمل له رائحة الارض الشرائي . العمدة يحاول ان يفكر في موضوع المهندس ، الذي فرض نفسه على حياة البلد ، وهو من البداية يدرك ان الامور بدأت تلتفت من يده . هذا الطريق الجديد ، المهندس الشاب ، المتسم دائماً في صفاء ومودة ، الارض الحكومة ، البلد ، الاهالي . العمدة ليست منصبا ، بل هي كل حياته ، كانت حياة آياته هنا ، ولا بد ان يكون في نفس المكان ميراث ابنائه . والطريق من حجرة نومه ، حتى كتبه في الدوار ، سكة في القلب ، يعظمها مرتين أو ثلاثاً كل يوم ، لم يفهم العمدة الامور جيداً ، غير انه استشعر الخطر من مجرد وجود المهندس في السوالم ، احس انه متدوب آتى قبل الاوان ، لا يام لم تعيشها السوالم بعد . ومن يدري ؟

اشارة : من عمدة السوالم ، الى نقطة بوليس تلاك العتب الثابتة ، ومجلس قرية شئت الانعام ، ومركز أبنائ البارود . حضر الينا اليوم ، مهندس من مصر ، وأقام خبثامه بالناحية ، وقال انه ، حاضراً طرفناً للبحث عن البترول ، وقال ان معه التصاريح اللازمة لذلك . رجاء افادتنا ، على وجه السرعة ، عما

يتبع نحوه ، واقبلوا النحية . مبلغ الاشارة ، امضاء . التاريخ ، رقم اصدار .

العمدة ، رغم انه بفك الخط ، ويقرأ الجريدة ، ان اتى بها احد من الضهيرة ، فان كل المسائل في السواله مرتبة امامه . في الزمان والمكان ، وجميع مشاكل البلد ، تجد عنده الحل دونما اى مفاجات ، كل الامور ، تجري بعمليات حسابية دقيقة . واهل السوالم كلهم ، يتصورون انه يطل على البلد من مكان مرتفع . كان عند العمدة ومي بسيط بضبط به مجرى الامور ، غير انه لم يكن يعرف ما في الطبيعة البشرية من التردد ولاقدام ، الخوف والشجاعة ، القدرة على كسر كافة القواعد المتعارف عليها ، العنف ، الخروج عن المألوف . وعندما كانت تسد كافة الطرق في وجوه الناس ، فان نشاطهم البشرى ، كان يتحول الى مسارات اخرى . العمدة يريد ان يصرف كل الامور في مملكته بنفسه ، غير ان الحياة في مغربها ، في حضورها الدائم ، في تواجدها بعبثها وقضا وقضيضها ، كانت تكسر اى نظام ، تجعله تخطيطا مجردا من كل محتوى . وعند ذلك كان العمدة ، يقر ، بينه وبين نفسه دونما كلمات ، بهزيمته ، امام ذلك الشيء الذى لا يعرف له اسما ولا جتى شكلا محددا .

حاشية : الاهالى طرفنا مستاهون جدا من حضور المهندس ، ويقولون لبعضهم البعض . ان حكاية المهندس لن تنتهى على خير . الوقت هو وقت الضحى ، والحاج على الدفراوى ، عمدة السوالم ، يجلس في دواره ، وهو يدرك ، انه امام حادث جديد ، ويدرك ايضا ، ان ما سيقوم به ، لن يجدى شيئا ، وان السوالم الناس والحوارى والبيوت والاشجار والبهائم . بل والارض من تحتها والسماء من فوقها ، ستجائنه بشيء لم يقم له اى حساب من قبل .

ملحوظة : المعلومات الواردة في الحاشية ، لم يثقلها لنا احد صراحة ، ولكننا عرفناها بطريقتنا الخاصة .

عصمت في طريق عودته من دوار العمدة ، يسير خلفه خفير نقاس ، حاول عصمت ان يسير ببطء كي يحاذيه الخفير ، غير ان الخفير ابطا من سيره هو الآخر ، وعندما تأكد عصمت من عدم

جدوى المحاولة ، توقف تماما ، واستند الى الخفير ، عند استدارته ، رفع الخفير يده بالتحية في خوف ، ابتم عصمت ، لا يريد سوى ان يكلم أخفیر : تمنح ، ابتم ، حاول ان يبدد وحشة الصمت ، غير ان ملايح الخفير كانت تنطق بالسلالة . سألته ان كانت الجرائد تصل الى السوالم ، قال له : انها لا تصل الا صدفة ، حاول ان يعرف منه عدد السكان ، واسم رئيس مجلس قرية ششت الانعام ، الرجل لم يكن يعرف الكثير ، عند الخيام ، تركه الخفير ، بعد ان حياه ، وسأله ان كان يطلب اى خدمات ، وعاد الى دوار العمدة .

عصمت يقف امام الخيام ، ويمسح الغشاء بنظرائه ، ارض نصاء يطفو على سطحها النشع . فيها اشجار نخل وجعيرة كبيرة يبدو انها هافر ، المنطقة التى اقيمت فيها الخيام ، مساحة من ارض ، مغطاة بطبقة جيرية بيضاء ، وعلى حدودها ، تنام بيوت ترابية مبشرة غير منتظمة ، انه يقف متحيا ناحية الشرق ، على بيته ، السوالم قبلى ، وعلى يساره ، السوالم بحرى ، وامامه وخلفه بيوت صغيرة ، تداخلت في بعضها البعض ، وعلى مرمى البصر امامه ، زاد النشع ، فتحول الى برقة صغيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الفاكنة ، سماء خريفية شاحبة ، كنست الرياح السحب منها ، فبدت مفسولة صافية ، وعكست مياه التربة ازروع الاشجار العارية . احيانا ، كانت تنزل بطة صغيرة في بركة ، فيسير نزولها تموجات في المياه ، فتتكسر صور الانبياء . تطول الاشجار ، تنموح السماء في ليونة ، تقصر البيوت ، تنكسر اشكالها الخارجية على صفحة المياه .

عصمت يتقدم الى الخيام ، زملاؤه جالسون ، يتمتعون بشمس خريف ، الموشاة بذكريرت النصف الماضى . ظله واسع على الارض خلفه ، وهو يتقدم ببطء الى الخيام . وعلى البعد ، تحدد العمود اسفيرة فيهم . عصمت يطلع نظرائه ، يمسح زجاجها ، يمسكها بيده ، يمسح عينييه بمنديل ابيض ، يفركهما ، يحدد في قرص الشمس بدون نظارة .

في الخيمة ، جلس صامتا ، شرب الشاي ، استراح قليلا ، جلس على مكتبه المتنقل الصغير ، اخرج ورقة بيضاء ، اسك بقلمه بين اصابعه ، ادرك ان الحال ليست على ما يرام ، وانه خائف ،

وان الشجاعة مسألة نظرية ، جلس كى يكتب تقريره اليومى مما
تم انجازه من خطوات المشروع .

السؤال ، بحيرة ، فى . تقرير للعرض على السيد . مقدم من
المهندس . المشرف على مشروع . . وفى صباح الغد ، سيضعه
فى مظروف مفلق . سرى وعاجل جدا . يرسل الى المقر الرئيسى
للشركة فى مصر

معلومات ميدانية : فى الزمان القديم ، كانت البلد ، عبارة عن
عدد غير معلوم من الكفور ، قيل عشرين كفرا ، وقيل اقل ، وقيل
اكثر ، الله اعلم ورسوله . كان اسمها ، كفور السوالم ، ويمرور
الزمان ، ومروره يفعل دائما بالحياة والناس كل شيء ، تحولت
الكفور الى تجمعين ، سمي احدهما ، وهو الذى الى ناحية
الجنوب ، السوالم قبلى ، وسمى الآخر ، وهو الذى الى ناحية
الشمال ، السوالم بحرى ، واصبح من المتعارف عليه ، ان لكل
منهما حدودا فاصلة ، ولكل من البلدين ارضه وصيدته ، وجميعته
التعاونية . غير ان المدرسة الابتدائية كانت واحدة . لا يوجد فى
السوالم سوى عمدة واحد ، الا ان لكل بلد منهما شيخ خفر
وخفراء مستقلين من البسلد الاخر ، ولكل بلد منهما حجرة
تليفون ، شرقى السوالم مباشرة ، ترعة ساحل مرقص ، وهى
ترعة كبيرة ، شرقى الترعة ، طريق زراعى واسع ، شرقى الطريق
الزراعى ، بلدة اشليمه ، يربط السوالم بالطريق الزراعى واشليمه
جسر حريض . غربى السوالم ، طريق صغير ، يتسع لمروء سيرة
بالسكاد ، يوصلها بشتت الانعام ، والطريق الزراعى ، يوصل
السوالم ، جنوبا بدميسنا وكفر موانه وتكلا العتب . وشمالا
بالضهرية والتوفيقية ، حيث الطريق السريع .

يقول اهالى البلد ، ان هناك «شيخ قديم» ، سيدنا القريب ، قد
كتب كتابا كبيرا ، سماه « مدونة تاريخ السوالم » عاش حياته
كلها للمباداة والصلاة ، ولحالة معرفة كل شيء عن البلد ، ملا
عينيه بالبيوت والاشجار والناس ، وشنف اذنيه بكل ما يقال ،
نرا الكتب ، حادث الناس ، سمع وقرأ الكثير . يقول
المستون من اهالى البلد ، ان سيدنا القريب ، كان يبدو للناس
فى آخر ايامه ، مهلول القلب والجسد واللب ، ساهما مغفرا ،
مدونا كل ما يراه . يختم الاهالى حكاياتهم ، بالاسف لضياح
الكتاب ، وطلب الرحمة لسيدنا القريب حيث يرقد الان ،
ويحاول كل منهم ان يتكهن بما فى ذلك الكتاب العظيم .

سيدنا الغرب . بذكر السنون هذا . كان ينفى في خلوه . يرتفع صوته لخلو ، بجرح صدر الليل . تبعثره نسيمات الهواء . تنقله الاسماع . انصت يا قلبى ، وانع الارض التى نشأت فيها ، لقد أصبحت البلاد حزينة ، فلا من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يلطف اللمع عليها ، فابة حال تلك التى عليها البلاد . انصت يا قلبى ، وانع الارض التى نشأت فيها . يقول الناس : يرحمه الله .

الصورة العامة : ترعة كبيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الزرقاء الصافية ، بيوت ترابية متناثرة ، بدون نظام ، وبين البيوت ، حارات صغيرة ، تصعد مرتفعة بالتدريج الى قلب البلد ، وسط البيوت ، تنتشر اشجار جميز وثوت وتخل مرتفع ، من يقترب من التربة وتكون المياه مستوية السطح ، يستطيع أن يشاهد بعض البيوت ، التى تخرج على المسالوف ، بيوت مقلية بألوان زهية ، ظلت في مناسبات يذكرها الناس ، حج ، زواج ، شراء أرض ، وعلى هذه الألوان ، رسومات صغيرة ، سفن ، جمال ، ست الحسن والجمال ، الشاطر حسن ، أبو زيد الهلالي ، الزناني خليفة ، يرسمها لهم رجل مبيضاني ، يأتون به من انبأ البازود ، من أجل ذلك خفيصا . بعض البيوت ، مبنية من دورين ، ويقول الناس عنها ، انها مبنية بالسلمج . في هـ هذه ابيوت ، أبراج حمام صغيرة . وخلف الصورة ، أعمدة واسلاك طيفونات . وفي ركن من الصورة ، مبنى يبدو فوق جميع البيوت ، كأنه يطل عليها ، انه صهيرع المياه ، الذى يمد حثيات البلد ، الموجودة في الحارات والشوارع ، بالمياه النظية ، للشرب فقط . في منتصف الصورة ، قضاء صغير ، يفصل البلدين ، انها أرض الوقف ، التى لا يملكها أحد ، بجوار أرض الوقف ، تبدو في الصورة مثذنة عالية ، مبنى اصفر قائم ، مظى اللون . تلك هي الصورة العامة . وعندما تنزل في مياه التربة ، ساقين رائعتين لامرأة تملأ جرتها ، أو رجل يومع عابرا التربة ، فان موجات المياه ، وانكساراتها ، تعجن البيوت والصهيرع والمثذنة والاشجار . البلد ، تكون شكلا جديدا ، بعدا آخر أمام العيون ، المرنيات تعود الى شكلها الاول ، بعد ان تهدأ مياه التربة . تنساح المياه متجهة ناحية الجنوب في بضع مهاجرة في الزمان أبدا . وتبدو الصورة ، البيوت والحواري والناس ، مفسولة بالحنين . نظيفة ، ملفوفة

بالشهد ، احلى من قطر الندى .

خلفية الصورة : اراض زراعية . مساحات لا نهائية من الخضرة ، وسطها طرق ومساير ومدخلات ترابية اللون ، اشجار عالية ، مدارات «سواني» في الشمال طريق صغير ، يرتفع حتى يصل شتات الانعام . وسط الحقول الواسعة ، رجال تاملون ومواش تاكل في مزاود صغيرة . اخصاص من الحطب الجاف ، نصبت وسط الحقول ، للمبيت فيها وقت جنى المحصول ، بيوت قليلة بناها فلاحون تزروا البلد ، لسبب أو لآخر ، وفضلوا العجاة في الحقول الواسعة . جنوبي الصورة كوم مرتفع ، تظهر منه عيذان الحلفاء النامية ، لونها اخضر ، خضرة وصافية ، ينتشر التراب عليها . وسط الحلفاء شواهد قبور ، وفي الركن الايمن دوار مرتفع ، مدفن عائلة الدفراوي ، باقى القبور تنتشر على الكوم كله ، في غير نظام ، ثمة طريق مهمل ، غير معروق ، يصل المدائن بالبلد .

عن الألوان : اللون الرمادي ، لون تراب الارض ، ومعظم البيوت يمتزج بلون اخضر رصاصي غامق . يلتقيان معا عند خط الافق الغربي ، بلون أزرق ، صافي الزرقة ، لون السماء . في الوسط ألوان اخرى ، اصفر باهت ، احمر وابيض ، غير انها لا تشكل خروجاً على المألوف من الألوان العامة للصورة .

بدون تحت الصورة ما يلي : الناس هنا مليون يملكون شيئا ما ، قدرة خاصة ، انهم عندما يضعون أقدامهم المشقة على الارض الشراقي ، ويشقون طريقها بسن المحراث ، فان الارض تجوح لهم بسرعا ، ومن رحم الارض ، ينشرون السر ، كل رجل يملك في داخله بلورة ما ، احساس معين ، يدهش الارض ، بجعلها حرج دافعة ما في رحمتها الى الناس . تكتب لكم من أحد منازل السوالم ، المنزل يقف على رأس الشارع الرئيسي كالحارس الليلي البقظ ، الشارع يمتد قاسما السوالم الى نصفين كالتنير الكبير ، وعلى شاطئيه ، تنبت الحارات الضيقة المرتفعة على الجانبين ، مثل العروق على ورقة شجرة الثوت ، وفي ارتفاع الحارات ، تنكور البيوت الطيبة ، ومن جوفها ، تطل العنة والبرودة والانكماش والاطواء . وفوق الأسطح ، الحطب وصوامع التخزين والنساء والأطفال والشيوخ . وفي ساحة المعاري ، تدور العيون في المحاجر ، تسمح الحارات والحقول والسماء الخريفية الصافية

من أجل هؤلاء وعندهم - ثبتت في أوراق زماننا هذه الكلمات في السوالد سميت ليلى مليء بالمرارة والانتكاسه رجال مكسودو القلوب ، يلعبون السجعة وقت الغروب ، ويشربون الشاي المر ويدخنون المعسل في عتمة سلسيله على الله . هنا رجال يتكلمون في السياسة . ولا ياكلون اللحم الا في المواسم والاعیاد . ويتنامون على الارض . ربون المواشي والدجاج والطيور كي يبيعونها يوم السوق من كل اسبوع . ويبيعون البيض واللبن والسمن . الرجال هنا . يحملون في جيوب الصديري ، محافظ خالية من النقود . فيها اشالات مكتوبة ، موقعة منهم ، يطلب سلفة من الجمعية التعاونية ، لم يحصلوا عليها بعد ، ومعلق فيها اختتامهم الصفراء الصدفنة .

في السوالم - ابناء ليل - شبان بلا عمل ، يسرقون ويقتلون ، ويعلمون بفتح بيوت لهم ، وبالنوبة ، لا يظهرون بالنهار ، ويملاون الليالي بالخوف والفهر والرعب ، يجرّون في الحقول ، تدوس اقدامهم في قلوب الرجال ، واعالي السوالم يشفقون عليهم ، رغم كل ما يحدث منهم في الليالي الطوال ، ويحاولون ان يجدوا لهم العذر .

في السوالم : سوق واحدة ، تقام يوم الخميس في الشارع الرئيسي و فوق الجسر ، يتخفف الناس فيها مما عندهم بالبيع . في يوم السوق ، يذهب الكثيرون ، يلفون السوق ، يملأون قلوبهم بالرغبة في كل ما يباع ، اليد ففسيرة واليمين بصيرة ، يعودون كما هبوا ، جيوبهم خالية ، وصندوقهم قد فاض بها الصبر ، يعزون انفسهم بان يقولوا انهم اما . حضروا للبحث عن مطلب لم يجدوه في كل انحاء السوق ، واما انهم حضروا للفرجة فقط

والصمت كثر من الكلمات في افواه الرجال ، قاموس حياتهم صحیح . فقير . تادر المفردات . الحوار يبدأ بالصمت ، صمت جيتاش زاخر بلاسي . الصبر صبر ابوي ، انه ليس صبرا ، بل نوع من الخضوع للعالم الخارجي والناس والاشياء . في صناديق اشياء القديمة . اشالات بمئات افترسها الرجال بالربا من الغنياء البلد . في انتشار جنى المحصول . في المسندين عقود زواج قديمة . شهادات ميلاد الابناء الصغار ، صور باهتة المعالم لافراد من الاسر . تركوا البلد . وسافروا الى البنادير القريبة . هنا ارض خصبة . سماء مائقة ، وهمسات راجفة في القاعات

رائحة ، ويقظت حارقة في الليالي الشتوية الناعسة . في قيعان حدبات ، وهنا في السوالم . امال لمساء . ناعمة . تسحبها الشفاه ، وترسمها العيون . بان التهارات الرائعة ، لابد وان تأتي الى السوالم ، مع مجيء الربيع القادم .

الرجال ينامون ، يتمددون على ظهورهم ، يطالعهم في نومتهم السقف والخشب والبوس والسناج الاسود الذي يغطي السكل . الرجال يفكرون وهم نيام ، في الذهاب في صباح القد ، الى من كتب لهم شكاوى موجهة الى جهات متعددة ، وفي قيعان محافلتهم اجلدية الحائلة اللون ، أوراق دفعة اشتروها في ساعات رخاء بذرة . وحفظوها من اجل هذه الشكاوى ، انهم يفكرون فيمن يكتب لهم الشكاوى ، وستكتب ضد من : العمدة ، شيخ بلد . شيخ الخفر ، معاون الجمعية التعاونية ، امين شونة بنك اشليف الزراعي في كفر عوانة ، مقالو الرحيلة ، ناظر المدرسة ، معاون البوستان ، يحرّكون السنتم في انواعهم ، يدركون انهم قد سيروا باخرس . فيقروا الذهاب صباحا الى فتحى سالم . وهناك ، يصفون له ، بكلمات منكسرة . ما آلت اليه الحال ، يجلسون على الارض . بجوار مكتبه ، يطلبسون منه ان يحشى الشكاوى بكلمات من عنده ، يفلون الحديد ، ينصت فتحى سالم الى كلامهم كله ، وهو صامت ، ثم يشعر اكمامه . ويحرك شففيه يخطر ناحية السقف ويكتب .

في المسجد . يصلى الشيخ محمود بالنساس . ويطلبه يوم الجمعة . ويجلس في مقام سيدى الغرب ، يفتح الكتاب ، يقرأ غيب : يكتب الوصفات البلدية للعرش ، وصفات سيطرة ورخيصة ، ومتعددا ينزل بالناس الكرب والضيق ، فانهم يذهبون اليه .

- والنبي ياسيدنا . ينزلون التدور ، ينفلون ما يطلبه منهم املا في الشفاء . عباد الله ، يا راحة الدنيا ، يا اهل هذا الزمان ، لقد رايت ، ليلة لاس في المنام ، رؤيا عجيبة يا قراب الارض ، وملح السماء ، تماشا تروق بالكلمات الام هذه الايام ، استمعوا الى يا ابائى ، في ساعة الصارى ، يذهب اليه الرجال ، يحكون له احلامهم ، رآوه في المنام بالليالى ، كي يفسرها لهم .

- شوف ياسيدى ، اللحم في المنام خير .

لبنه ورجال لا يملكون سوى اجسادهم وقلوبهم الفارغة . وهنا ايضا ، قصص حب ، حكايا يقولها . الرجال في الحقول ، أحلام متحوة من جذب ايامهم ، وسفرات نادرة الى البلاد القريبة وسهرات قليلة ، لحظات نادرة . متسلية من عمر الزمان .

نعتذر نحن الموقعين على هذا التقرير ، عما مستقله الآن . لا يوجد في السوالم ، قبلى او بحرى او اشليمه لا وديسنا ، دكتور واحد ، او مستشفى ، او حتى مدرسة ، لا توجد مدرسة اعدادية ، ولا سلك كهرباء ، لا يوجد تليفون ، سوى تليفون العمدة ، وهو تليفون اميرى ، لا يوجد وابور حرق ولا سيارة ، لا تصل الى هنا جريدة صباحية ، تحمل اخبار العالم وما يحدث به .

مرة اخرى . نعتذر .

ارقام واحصائيات هامة : في السوالم ، قبلى وبحرى . خمسة عشر الف نسمة ، ويتبع زمامها حوالى خمسة الاف فدان . في سوالم . مسجد واحد . هو مسجد سيدى الغرب . وولى اخر من اولياء الله الصالحين . لم يبن له مسجد بعد . في السوالم . «سواقى» كثيرة . بناها اناس بالمشاركة . هنا ، طنابير ، حلايا نحل ، ابراج حمام ، اشجار جازورين وصفصاف ونخيل . السوالم اربعة طرق توصلها بالعالم الخارجى . بها شارع رئيسى واحمد ، دكاكين للتزينة البدى . بقالون . اهمها دكان المعلم عقوب . تجار حيوب ، جزمانية ، حلاقون . سمكية ، جزادون . اما باقى ما يحتاجه البلد ، فيجده الناس في يوم السوق من كل اسبوع .

بقايا كتابات اثرية ، وجدت على الواح قديمة . بجوار سدائية «مجردة» :

« ان البحر قد غشى بصره . والمستمع قد سمع ، وذلك الذى يجب ان يكون مرشدا ، اصبح مضللا » .

« كنت اسلك في قاعة العدل ، بقم قصيح غير هباب » .

« وقد طمخ كبل مذابى ، وفانى بحر الامى . وهو ذا يتدفق من قمى ، اتينا وشكوى » .

اما العلاج فحسابه مستمر . اى ان صاحب الارس يتأمله دائما بتأدية ما عليه من ديون « الى الابد » وموته اعلى من موت

في اسوالم . سكر . امرأة مجروحة القلب والجسد . تملا على بالدموع . بخطر سبعة حروب في الخوارى . فوق الجسد المدن ملايس مبلولة . الحنين . تجففها نظرات الرجال . الف الف نظرة تنزلق فوق . اسباب الظاهر . وتستقر في الردفين . انها راضية بما قسم لها . اللهمة والحزن والحنين والجنون والعزاء . انه هـ . في حوارى السوالم ويومها وجوهها . بهر . بحر الخلاص . بحر يغسل الام التيسل والزمان وذكرى عطفة باب الوداع وعصمت والشاب المنحدر .

تمر بالسوالم احيانا عجربة . امرأة سمراء ، طويلة اند . متينة البنيان . مصبوعة الشعر واليدين والقدمين بالحناء . مزدانة الوجه بالوشم الاخضر . السب مجروسة . تقرا الودع للرجال . تجلس . تلثون حولها في نصف دائرة . وفي المنتصف . تترش «رمل» . وفوقها الرطل . يدلع لها الرجال قروشاً مصبوحة للعالم .

« وشرش الذكر » .

ذكر الرجل اسم ابيه . يدوس على الحروف بيده . بكل رجل يحس رفق اسم امه . بغير عجز . سـ . ربح . يد من ربح .

القبب اخلاصا كثيرة .

« فدامك تشابه وبتناغلك . وعازوك .

هـه فبن بس »

تحدث الفجربة . عن ايام عصيبة قديمة . وعن مخلص . نرس جديد . سيظهر في البر . يجمع الضمن . ويشر العدل . تحدثت الست مجروسة عن الوقاية من عين الحسود والشر . وسكة السلامة وسكة الندامة والسفر الى بلاد بعيدة . والعودة من هناك ما يشتهي الانسان . وزبارة قرية بوم بها البلد اناس طيبون . يغيرون حياة السوالم .

في السوالم . رجال طيبون . يملكون ويضمون . ويركون عن انفسهم والاولاد والاراس والقتل . طعنوا له ورسوله واناسهم . وضمون سوء . في في مستنصر نمرده . يستغيثون فيه الخراب الى بلاد الحجاز . وهناك يملكون بحديد الشباك . ويحتفون من اعماق القلوب . اجروا يارسول الله .

في السوالم . اغنياء قليلون . وفقراء كثيرون . ظالمون ومظلومون . رجال يملكون مساحات من الارض . وزعوس من الماشية . وبيوت

أبو * دائما يشكو * . وهو كذلك ، أكثر تعباً مما يمكن التحدث به ، وحالته كحالة الذي يعيش بين الأسود ، وهو في غالب الاوقات مريض . وعندما يعود الى بيته في الغروب ، فإن المنى يكون قد مزقه أرباً * أى إن طول الطريق بجهد أجهادا كبيرا ، فوق ما يلاقى من التعب خلال اليوم » .

السفر في الليل

مياه ، عرفت انها انضهرية ، اكبر قرى الناحية ، المائي تقرب
 ببطء ، وبعد مرورنا بالضهرية ، البسبوت المتناثرة ، وانحزب
 اصغيرة ، تبدو متباعدة ، ضئيلة ، وسط الحقول الواسعة ،
 السوالم واشليمه ، تقتربان ، للطريق يقبل علينا ، حيث تنهادي
 السيارة عليه . عند الجسر ، نصبة جزار ، ومصلى صغير ، وشجرة
 سفنفاق تحتها دكة وبجوارها مبنى ، حيث ينتظر المسافرين
 سيارات .

السوالم بحيرة ..

الاثنين ٥ اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

الغروب ، نسعات الخريف ، تهب علينا مشبعة برائحة المساء
 والجفاف ولجذب ، السيارة تجرى - وعيناي تسرحان على الطريق .
 الطريق ينلوي امامنا ، ثم يستقيم ، يقبل على السيارة في سرعة
 عاجمة ، تعبره ، يرمى الى الخلف ، دائخا ، مسترخيا .
 نيدا ، المشروع ، هو اول عمل اقوم به بعد التخرج ، افكر في
 تل شيء دفعة واحدة ، لا استطيع ان اثبت في ذهني شيء
 محددا ، الامور متداخلة ومختلطة وقد فقدت اشكالها الحقيقية .
 لحظات قليلة من عمر الانسان ، يشعر فيها ان حياته لا تخضع
 لأي منطق ، بل قد يشعر بان ما يعيشه شيء قريب وئاد ،
 يبدو العمر كله حلما قدما ، نقشوة الفشار ، المسكين القصيرة
 صاحب اللحم الابيض ، السبع والامجد ، السبع الى بعض
 صعاء ومودة ، الاخلام والرؤى المستقطرة من أعفاساق الحرمان
 اليومي ، استقبال الحياة في قرية صغيرة ، نائية ، بعيدة ، متسعة
 شمال اسوان ، البلاد الحارة نهارة ، الرطوبة الثلجية طوال الليل .
 الليالي الدافئة في عمق الشتاء ، الحياة مع العقارب والنعابين في
 حجرة واحدة ، الدماء العارة النافذة في التروق ، الجلد الاسمر
 المحروق من الشمس ، الجلد فوق العظم ، والعظام اشواك ،
 الاشواك طريق تقطعه كل يوم ، ذهابا وعودة الى بلادنا الحارة ،
 سفر شعلا ، الهجرة مع مياه النيل ، انسرح مع ارمس
 خازلة نحو الشمال ، تلاوة صلاة الاستسقاء خلال السقرة الاولى
 وفي بلاد الشمال ، البرد والهواء الشتوي وموجات البحر العالية .
 نسوارع الاسكندرية المنله المسونة بالبحرين ، البحر احمر
 ان الافواه مع الكلمات ، كانت الوجه طولها ستة اشبار طوال
 ليلة امس ، الحياة مع امرأة غريبة ، السكنى بمفردي في الحبرات
 السقرة المزحرة ، الشكل منفردا معن الوقت ، البعثة الحرفه في
 سالي الاسكندرية الباردة ، وضعت قلبي ، الرؤى المرتجفة ،

كانت اسبارة تسير بنا على الطريق الزراعي . مصر - اسكندرية
 الاشجار واعدة التليفونات والبيوت والمزروعات تجرى في سرعه
 الى الخلف ، اسلاك التليفونات تبدو مشدودة ، تسترخي وسط
 الاعمدة ، تقف عليها الطيور التي لم يهاجر بعد ، ناحية الجنوب ،
 يدور خط الافق اجميد ، بخضرة الباهتة ، في نصف دائره ،
 مركزها السيارة ، تجري النباتات المرنشة الى الخلف ، بجوار
 الطريق ، رباح صغير ، به ميساء واكدة ، تجمعت بها قاذورات
 الحياة البوميه ، حطب ، جثث ، حيوانات طافية مينة ، نباتات
 مهوشه ، نساء يفضلن ملابس اولادهن ، بهائم مريوة بجوار الرياح
 عند التوقيفة ، توقفت السيارة ، انعطفت في طريق جانبي
 منرب ، متجهها ناحية الجنوب ، يرتفع الطريق مبتعدا حتى الافق
 البعيد ، يتحول في نهاية الامر ، الى نقطة ترابية ، تنوء وسط
 الاشجار ، على الطريق الزراعي ، التراب والطيات والفلاحين في
 حقولهم ، قلل السائق من سرعته ، غربي الطريق ، ترعة ساحل
 مرقص ، وعلى الشاطئ الآخر من الترعة ، كان يتعكس على مياه
 الترعة ، نساء يملان الجرار ، ويفسلن الاطباق والاولاي . النساء
 في لحظة مرور السيارة عليهن ، يخفين مفاثهن البيضاء بملابسهن
 يدورن الوجوه الى الناحية الاخرى ، يتهايمن بكلمات ليثة . رفعت
 عيني ، في الحقول البعيدة ، الرصاصية اللون ، الخالية من
 الخضرة الزاهية . كان هناك فلاح ، مقوس الظهر ، يبدو لمن
 صفرا ، يمس يديه في الطين ، بحثا عن شيء ما في الأرض تحت
 قدميه .

خلال سيرنا ، مرونا بكنيسة الضهرية ، ثم ظهر لنا مشفنة
 مسجد ، ومبنى حكومي ، وبرج حمام ، واسلاك تليفون ، وصهريج

باعتقاده ، انه لم يتمكن أحد من العائلة ، من ان يخوض معركة ما ،
واسم يعيشون في دائرة الانحسار ، وان دعوسهم تقترب من الأرض ،
وما بعد يوم ، وان اقدمهم قد التصفت بالأرض ، أكثر من أي
مضى . قال أخى : ما من معركة ربها أحد ، بل من أي أحد
نذكر له بل عاصمت ان يخوض معركة ما . التنزه في التذكارات
الجسدية ، محاولة الغزل من جذب الايام أشياء بسيطة وساذجة .
الخروج ، الفرح بالنجاح ، الحصول على بكالوريوس الهندسة .
ميركو . يصل ويسلم ليد السيد الوالد . البحث عن وظيفة ،
القيام برحلة يومية ، بلا نقطة ابتداء وبلا هدف في الوصول الى
نقطة انتهاء ، السؤال والجواب ، قراءة جريدة الصباح في ثلاث
ساعات ، اتعلم بالقلم الاحمر في أكثر من مكان في الجريدة ، كتابة
خطابات رقيقة مهذبة ، ايامه في الاعلان المنشور في جريدة .
تعدد . الصادرة بتاريخ . في الصفحة رقم . العمود رقم .

بأن طلب وظيفة . بسرنى ان اقدم لكم هذه البيانات ،
 ارجع الى القاهرة ، جمع الحقائق والذكرات ، الاخفاقات
 ، ثم ارجع الى ان تحقق اذا ، الانتظار ، محاولة تزيق
 حفلات الانتظار للاعلام والكلمات والتسكع ، قراءة صفحة
 اوفيات ، متابعة ما يجري في البلد باهتمام بارد ، العثور على
 عمل مناسب في احدى الشركات ، ارتداء ملابس نظيفة ومكواه ،
 السير في الشارع في الساعة والرعب صباحا ، المقالات ، الجلوس
 في مكتب ابدل في الدور العاشر في احدى عمارات القاهرة
 ، ولا ننسى ان نرى مشاهدة رؤياكم الكريمة . ذات
 اعطاني رئيس قسم الماعة . خلوات احدى مشروعات
 الشركة في محافظة البحيرة ، كان المشروع لم ينته بشكل نهائي .

مؤشرا عليه ، لدراسة والتابعة واتخاذ المناسب من الإجراءات ، وعرض « . من خلال دراساتي للخرائط البيولوجية ، أتقرب لجنة المشروع السابق ، توصلت إلى نتيجة مبدئية ، أنه من المحتمل وجود تفرق على بعد معين من مكان المشروع السابق .

المشروع السابق كان في منطقة حوش عيسى ، محاذية للبحيرة .

لأت اللجنة المشرفة على المشروع ، قد تركت خرائط لمصبدة بيولوجية احتمالية ، ومجموعة أخرى من الاستنتاجات . رحبت

أفدس المشروع بعناية ، كان الفراغ والمثل قد ألا ذهني ، رحبت

أنا أنوصف الخارجى للمنطقة . لم يكن هناك نصير زنى ، أو

[illegible][illegible]

مظهر غازی . وهما أولى علامات وجود البترول ، وقلت لنفسي ، ان الظروف التركيبية لطبيعة الأرض ، دليل أكثر على وجود شئ اقتصادي ، يعتمد في الغرير . عن مسير تاريخي لتكوين شعب المنطقة ، فتذكرت ان انساب أماكن لتكوين البترول ، هي الخلجان البحرية الصحلة حسب كثرة ريس المواد العضوية تحت ظروف غير هوائية . فلا تسد في مثل هذه الحبال . المحصة العمدة في الأوكسين . وتوقع بذلك ، ان تكون صخور الصيدة البترولية النموذجية ، ويتكون البترول على شكل محاصيل ، انتهت من دراساتي الى نتيجة هامة ، لو ثبت وجود منطقة مائية واسعة في هذه الناحية في قديم العصور ، فاحتمال وجود البترول قائم خلال كافة دراساتي ، التي تمت بعد ذلك ، تأكدت من امر واحد يشكل مبدئي ، احتمال وجود بترول في بلدة اسمها السوالم ، في مكانين بالسوالم . أخذت خرائطي ، عرضت كافة الخطوات والتنازع على الشركة .

سراحي . ربح بعد هذه الاكتشافات المبدئية . وبحسب المشروع ، قررت ان أبدا بعد زيارتي الأولى السوالم . وأنا في الطريق الى القاهرة ، تصورت شيئاً ما ، احساساً بسيطاً وساذجاً ولكنه جعلني اهتم بالمشروع . تصورت ان الناس في السوالم وديسنا وأشليم والفسيرة وشبشت الانعام ، موتى ، غير أنهم يشركون ، يروحون ويحيون ، يضحكون ويبكون ، أنهم راشخون مستسلمون للسوء العالمة ، والأرض السوء والترعة بالطريق الزراعي ، وما يقوله الراديو وما يقعه الخفر وشبشت الخفر ، وصوت السيارة ناحية الجنوب وقت اذان الفجر ، لما يشبه شبق الفناء متجهة ناحية الجنوب وقت اذان الفجر ، لما يشبه الناس القادمون من البنادر البعيدة من اشاعات عما آلت اليه الحال . قلت لنفسي : هؤلاء الناس في انتظار حدوث معجزة ما . تهبط من السماء ، أو تخرج من جوف الأرض ، أو تأتي من ابناذر البعيدة النائية ، الناس يعيش ، تمر بها الايام والمساء والشهور والسنوات الطوال ، في انتظار حدوث هذه المعجزة .

تمثلت في خاطري ما يقولونه عن سيدى الغرب ، وكتابه الذى نضع ، كما يضيح عمر الرجال هنا ، في انتظارهم لظهور شئ مخلص جدد ، يظهر في البلاد .

في الصباح ، في السادسة والنصف صباحاً ، صحت من نومى .

خرجت من اعماق سريري ، ذهبت الى دورة المياه ، وفتت في احمام ، المياه تنزل على جسدى في كسل . خرجت . ارتديت ملابسى ، وفتت أمام المرآة . لم اناول افطاري . كان في اعماقى روح من لقناء الذى لم أجربه من قبل ، أعددت حقيبتى ، وضعت فيها غيارات داخلية ، كتباً ، مراجع علمية ، دواوين شعر بين اسطرها فضفت بكتابة الاحلام الأولى ، ورقاً أبيض ، خرائط بترولية ، أدوات هندسية ، ورسومات ، مذكرات قديمة ، تأكدت اننى أغلقت النوافذ والإبواب ، وصنوبر المياه ، ونزلت .

في الشارع العريض . بين فسج السيارات ، رحت انفسى بقطع من افئدة حب قديمة ، وقلت لنفسي : اننى في مكان ما . ربما لا وجود له على خريطة مصر . سأبدأ تجربتى الأولى : مع اناس لا اعرفهم . في مكتب المدير سلمت عليه ، شربت الشاي الدافئ ، تمتعت نفسى بمرئيات بالغة الفخامة ، وعزيت نفسى عما ينظرني في السوالم . قال لى : انه بقدر فى ، اننى انجعت الى ريف ، وانه يضمن لى التوفيق في مستقبل . أكد انه سيساعدنى . او كرح صغير . من الرحل . وهو يعنى خبره على سطح البيوت المتناثرة ، وأجزاء اشوارع الى سبوع منها . اى راء الى شبابه ، مع استحالة حدوث هذا ، وبدا من جديد : لما فعل غير ما فعلت ، همس ان الشيخوخة هي أسوأ ما في حيسسة الانسان ، بل أسوأ من الموت نفسه ، وانه لا يخفى على حده . قال الرجل بثنائى بالغ : ان ما سأقوم به . تجربة عظيمة في حد ذاتها ، واننى بعد عودتي بأفضل أو بالنجاح . سواء قدر لى ان اصنع شيئاً بهذه البلدة ، أو ان اكسر أمام الواقع . فان التجربة رائعة وجديدة ، بل وهامة .

— شوف يا عصمت : الى يعيش باما يشوف ..

— واللى يلف يشوف أكثر ..

قالوا لى قديماً : من يسافر بعش الف حياة مرة واحدة : وكانت اينها هجرتى الأولى . ونحن في الطريق : تحت اقدام القاهرة ، وكان الوقت ظهراً : استندت : نظرت الى المنابر العالية ، المصانع ، المآذن ، قباب الكنائس : القاهرة تدور حول نفسها في حركة بطيئة : استقرت الاشياء في نفسي . بدا لى اننى أودع بعيداً كاملاً من حياتى : لا ادري لم تذكرك اهلى ، فريفت الصغيرة في أقصى الجنوب ، تذكرت ابنى : رحت استحضر صورته

بعين خيالي ، أمي - أخوتي - أخي الأكبر الذي لم يكمل تعليمه
وتتسلف كثيرا ، قطع الأرض التي بيعت في السنة الهائلة ،
امتزج من قوت وسعة العائلة - لحولت الأرض - التراب الأسمر
الداكن ، إلى حوالات بريدية - أسوان - سادري ، مسجل تحت
رقم .. حوالة بريدية رقم .. إذا لم يصل في ظرف ثلاثة أيام
ود إلى الثاني .. على العنوان الأسى .. أدركت أنني لم أر
والدي ، منذ ثلاث سنوات - عشت مره أخرى ، لذة السفر
بالقطار لئلا ، النوم على المقاعد الخشبية ، فرحة لقاء الأهل
والأحباب ، الحزن الملق في أمان العيون عند الفراق - السارة
تروي لنا القصة التي عدا عصره وحده - الحزن
من السوالم - ومن هذا - حرس حراس السور - نزل ..
مس .. بعد ذلك - سكب حطب في الأهل ..

لبنتي الأولى ، غيرت ملابس - تخلفت من جلدي الخارجي ،
أصبحت بحري في ملابس النوم ، تعددت على الفراش الخشن
ارتطمت نظرائي يسقف الخيمة ، رحت أحس انقباض الموجودة
به ، حاولت أن أرى نجوم الليل من خلالها ، لفت نظري الصمت
أن الصمت لا يتحدد هنا بانعدام الأصوات ، والسكون الشامل ،
أنه إحساس قريب من الصلابة ، التحوي الخافتة ، حديث
النفس - هبت نسمة هواء - دخلت الخيمة - كان الهواء متعبا
مرطوبة الليل - وكان الميل في الخارج ، جسم بلا صوت - فتذكرت
أن الليل ، في الزمان القديم - كان وقت انشاز القرارات التي
لا تتغلب بعد ذلك أبدا - قررت أن أبدا بندوق مذكراتي - كما كنت
أفعل من قبل - وأن أبدا خطوات مشروعي من مساح الغد .

يقف الرجال على الجسر ، من تحتهم يصعد بخار أبخر اللود
من التربة - يدليه الليل ، من السوام واشليمه تنبت توارثاته -
أذن المغرب ، وترك الجسر من يواطى على الصلاة في ميعادها -
القرى يفرقه - بقي بعض الرجال يتحدثون ، أنجر من الامكن
الحبيبة إلى الرجال ، الشبان منهم على وجه الخصوص - وعلى
الجسر ، قد يتقابل شبان السوام - مع شبان من أشليمه وقت
المصاوي - أما الرجال الكبار - فانهم يفضلون الجلوس أمام
دكان المعلم يعقوب - يشربون الشاي - ويتكلمون عن الحيا -
والموت ، المرض والشفاء الذي يتحول في حديثهم إلى أمل مستحيل
التحقيق - شخص واحد - كان يجلس هذا المساء على الجسر -
غير أنه لم يتكلم - أنه ورداني - كان يجلس على سور الجسر
وخلفه - كانت مياه التربة تلعب في الظلام - أن ورداني بعد أن
اكتشف اكتشافاته الخاص به - أن يتراجع عنه - خانه أذل
السوام - تخلوا عنه ، تركوه ينكر بمفرده - وبسمل أرضه -
ويعيش من أهد كما النساء - فتحي سالي يقف وسط الرجال -
يسأل عن المهندس ويقول للرجال بمبارات معطلة - أنه سيكون
ما حدث في النيل ، في تقريره الأسبوعي الذي يرفعه كل أسبوع
لجنة المركز ، السكوت على ما يحدث جريمة ، السوام بلده
جميعا ، وكل منهم مسئول بشكل أو بآخر عما يحدث - قال أنه
يشير هذا الموضوع في اجتماع الاتحاد القادم مع الأمين العام -
غير أنه ماود السؤال عن المهندس ، تسأل بمرارة : كيف يقول
العمدة - أن المهندس هو الحكومة ذاتها - فتح سالم بقدر في
مادة حديثه الغامض : وهو يلوح بالجريدة في تسليم مر ، بأن
في هذا الموضوع سرا ما ، غير أنه لا بد وأن يعرف هذا السر .
- باسم ولا سر ولا حاجة .

يتسائل فتح سالم أمام الرجال - وكل ما يعرفه - وتطحن
الجريدة ووقه لا قصة لها - لذوب المسامة التي تعمل فتحي
سالم عن الناس - بقرة بينه وبين نفسه ، أنه في الصباح الباكر .

سيذهب الى المهندس ، يعرف عليه ، يبحث معه الموضوع ، ومن يدرينى ، فقد يكون فى الموضوع مصلحة ما للبلد . منذ اكثر من سنة ، قلت لرجال ، على هذا الجسر ، وفى مثل هذا الوقت ، ساضع حياتى فى خدمتكم يا اهل البلد ، وكنت صادقا فيما قلته ولكن أين أنا ، المستغل العريض . الرد على الشامتين ، عضوية مجلس الامة . الحرب ، المنزل ، الارض ، الزوجة ، الوظيفة التى أصبحت الآن حلما صديا . فتحنى سالم ، يهوى بعيدا عن الرجال ، يسافر على أجنحة الخيال والامال الكاذبة .

السلام عليكم .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الظلام قد حل ، أنه المساء ، الرجال يحاولون ان يعرفوا ايامهم ، كان الصوت غريبا عليهم ، ادركوا هذا منذ البداية . الجسر ، ليس بناء من الاسمنت والحديد والطوب ، أنه جزء مهم ، من حيات القلوب وماء العيون ، ومن يدوس على هذه السكة الحبيبة الى الرجال ، فهو معروف لهم ، أنهم يشمون رائحة القربة فى الصوت القادم .

انفصل .

يقف الرجال ، يتفوضون ملابسهم ، يركبون مداخلهم ، يعتدل الذين كانوا يستندون الى السور ، يقتربون ، زجاج نظارة يلعب فى الظلام ، أفندى طويل ، معه رجل بلبس نفس ملابسهم ، المهندس ، ومعه حب الدين سرحان . بعد لهم يده ، تستريح الافك فى بعضها ، يداون كلمات موشاة بحب الاستطلاع .

فتحنى سالم .

المهندس عصمت فهمى التجماعوى .

بعد فتحنى سالم يده بتردد ظاهر ، يشعر ان يده مجذوبة الاصابع . تلتقى ايديان ، وبين السكفين والاصابع ، كانت تكمن آثار القمر .

تشرقنا يا افندم .

يجلس عصمت على السور ، يجمع شبل الرجال حوله ، بائى اليهم رجال آخرون ، كانوا متناثرين فى أماكن أخرى على الجسر ، يكونون حلقة صغيرة حول المهندس . يمسك بسهم بجزءه بعميقة . اخيرا بائى الامتحان قبل مواعده . فى صمت القلاء الاول بين الرجال والمهندس ، انتزع وردائى نفسه ، وقف ، نفخ

جلبابه بمناية من تراب الجسر ، شمل الجالسين بنظرة مينة ، لأن يود ان يقرأ نظرات الذين خانوه . غير ان اعينهم كانت معلقة بالمهندس .

— ازيكو بارجالة .

— اهلا يا باشمهندس .

— واخ وحشتوني ، بموده الايام .

قال حب الدين :

— دا كان عيش وملح يا باشمهندس .

يبعد وردائى عنهم ، يقول لهم ، وهو يسير مبتعدا عنهم :

— شب .. السلامو عليكم انا بقى .

يرد عليه اكثر من رجل ، فيضيق صدره ، يكثر عدد الرجال حول المهندس ، يجلسون ، يجلس حب الدين بجوار المهندس ، بحميه بنظرانه ، أنه يلبد له تحت باطله ، كما يقول اهالى البلد . لكنه الصمت ثقل على الجميع ، والليل الرقيق حولهم . مكبات النظام الثقيلة ، وللظلام ، الف الف عين ترى ، الف الف أذن سمع . والبنزل : مرأى الآمان ، قطرة الماء فى صحراء اميد . والآبى سجنر لف رقيقة ، تشتعل وتطفئ : برميها الرجال على الجسر . وفى القاع تحتمل ، كان يشاوى كل شيء ، الصمت والظلام ، الحب والكراهية : الفرح والاسى ، المهندس وفتحنى سالم .

— اسمعوا يا جماعة ..

تخرج الكلمات من فم المهندس ، موشاة بالفامض والجهول ، سرع الكلمات ، تنزلق على اللسان ساخنة ، فيكثر البخار الخارج من فمه ، يستعمل يده ، يتوقف احبانا ، تكون هناك صعوبة فى التعبير عما يريد قوله ، يخبط على سور الجسر بكوة يده ، يجهد نفسه فى البحث عن التعابير ، لايد وأن تكون كلماته واضحة لهم . انه يريد ان يوصل اليهم الاحساس الراش بداخله ، ان يهزم ، ان يدرك الرجال على الجسر باختصار ، معنى ما يحدث الآن فى بلدكم ، يعرفونه بشكل واضح دونما اشاعات .

— شوفوا يا رجالة .

يقرب منه الرجال ، يضع بعضهم يده بجرار اذنه اليمنى ، تصل اليهم الكلمات ، تسقط العبارات فوق حبات القلوب .

— باختصار — كما يحصل تحول كبير في حياتكم .

الرجال يذكرون الآن أن حياتهم عفا ، يدوقون من جديد معنى الفقر . يذكرون الرجال أن هناك أحلاما كثيرة ، في حياتهم . تخلوا عنها . بعد أن أدركوا استحالة تحقيقها . وقال كل منهم لنفسه : إنه لم يمش حياتهم كما كان يريد : وأنه مظلوم : وأنه لو مات الثيلة أو الغد : لمات مظلوما ، والظلم من المذاق . أن التواضع والجراح القديمة . التي ما زالت طرية . ليست بالآل . يحدث المهندسين : واستيقظت الآلام في نفوسهم . وفي قيعان عقولهم : استقرت معاني كلمات المهندس : مجردة : عربية عنهم . معرولة عن باقي مكونات حياتهم . أنها تصل اليهم ككلمات الراديو ، والفاط الإندية : وتطفو على السطح ، تعوم ، تصطبغ بالأحزان الدافئة ، وتترقرق في نفوسهم رؤى مستغلقة من الليل ، والشرعة والحقول الفيضانية .

— كل أئلي باطله منكم . .

يقول المهندس :
— انكم تحطوا ايديكم في ابدية ، واحنا حائرين كل حاجة في

البلد .
طرقت شبابيب النساء على بلاط الجسر ، غبار فضي يلف ائلي والحقول ، خريف المياه يترقرق تحت الجسر هادئا ، يستقر القلام الليالي في قيعان الحارات والبيوت والحقول والترعة وقلوب الرجال . وفي الصدور ، الهمسات المرتجفة ، الكلمات المعلقة على الشفاة ، السبات المترددة الخجول . الرجال ، يمرغون عقولهم البسيطة على أرض الجسر ، يرتعشون ، يهيمون مع كلمات المهندس ، في العالم الكثير الذي لم يعرفوه بعد ، وسيقوم الرجال برحلتهم الأخيرة ، دون أن يعلموا الكثير ، ويدور شيء ما في عقولهم : يتكور ، تتحدد ملامحه ، ويرتفع من داخل النفوس صدا ، غبار شفيف ، دخان أزرق ، رائحة احتراق . وتجوس في قلوب الرجال ، يد المهندس ولسانه ، تدهما ، تفتتها ، وتسح في الأعماق من الرجال ، تقاط دم حمراء قانية .

— أنا اتق فيكم الى أبعد الحدود ، أرجوكم أن تبادلوني نفس

الشعور .
الرجال يعيشون ، عواطف الناس وهي تحول الى الشكل الآخر ، حيث يذوب الاسبى مع مرور الأيام ، وبهت حلاوة الإفراح

وشكلها ، ويتغير الغضب في الصدور . الرجال يشعرون أن هذا المهندس الشاب ، شيء جديد بالنسبة لبلدهم . الرجال يستمعون الى كلام المهندس . والغلام قد حل : وهم يواجهون أنفسهم للمرة الأولى عارية من أفة الحياة اليومية . الأرض ، العدة ، بنك التسليف الزراعي ، الخفير ، المدرسة ، الشيخ محمود والجامع ، الخمول البعيدة : الراشي ، إهجرة الراديو ، العالم الكبير . أنهم يحدون ما يهيمون ما يعزله المهندس . والمهندس

يعزلهم كعب سنفط على جذر الأذن الخارجي . حوله شهية . تجمعهم أمسيات . الرب ول كل شهر . المسكن اسيف . السبعين الصحي ، الشوارع الواسعة ، الساكن الشعبية ، دور السينما ، الخ . كانت المهندس أجنة يمشرون بها في الليل الساعات فوق الأرض . يذكرون الرجال ، دونما سبب واضح ، اقرباءهم : أبناء البلد . السوالم الذين شاقبت بهم الحياة فهاجروا ، حملوا متاعهم وسافروا . ويوم السفر ، ارتفعت الايادي تقول وداعا ، وعادوا بعد سنين ، يحثرون أجسادهم التي امتلأت فجأة ، في حال تنقية ، ويلفون حول سواعدهم الخشنة ساعات تضيء في الليل ، قد حلق بعضهم شارب ، ووضع البعض الآخر نظارة فوق عينيه . مثل نظارة المهندس . وقال البعض ، بعد أن حلف بترية من مات ومقام سيدنا الغرب ، أن لمن النظارة خمسة عشر جنبها بالتمام والكمال .

حلم الرجال بحياة البناد ، وانتشر في صدورهم تصور لها . الشوارع المضاءة ، المقاهي المزدهجة بالرجال ، السيارات ، النساء الرائعة ، المحال المزدهجة ، العمارات العالية ، الأشجار انطليبة بألوان زاهية ، التقود الكثيرة في الأبادي . يقول لهم المهندس كلاما من العدل والانصاف ، والحاكم والمحكوم : يقول لهم ، أن ما يطلبونه ممكن التحقيق ، وأنه مطمئن الى مشروعه ، وأن الإيام القرية القادمة ، التي تنبع خلف الابق ، تحمل لهم الخير ، وأن عليهم جميعا أن يستعدوا من الآن للحياة المقيمة ، وأن يودعوا الحياة التي يعيشونها الآن .

بعد فترة صمت ، راح المهندس ، يصف شكل حياتهم ، بعد سنتين من هذه اللحظة ، ويعدد أسماء الوظائف ، ويقترح أسماء جديدا لبلدهم ، ويحاول أن يحدد مكان المصنع والسكان ومكان دار السينما والمسرح وتقسمة العمال والمبداان العام والحديقة

الواسعة . المهندس يتكلم . وهو مشغول بحرارة داخلية . انه يرتفع ، ويرتفع . يحاول ان يظل من جلسته ، رغم الظلام . على الأيام القادمة .

— التي حا يحصل هنا يا رجالة ، حايكون معجزة . فاهمين . انا باكرر كلامي للمرة العاشرة ، معجزة ، وأصر . على ان المي حا يحصل معجزة نادرة .

ينظر الرجال ناحية فتحى سالم . وبعضهم قد استراح في جلسته . ووسع يده على خده . ان نسمة هواء ليلية تهب على الرجال . فتفصل الهواء من كل الاكاذيب . وتسريح الكلمات في النفوس ، تستقر في الاعماق ، أخذة اشكالا مبهمه داخل الرجال .

— شوب يا باشمهندس ، كلامك ذا احنا عارفينه كله . .

تخرج الكلمات من فم فتحى سالم . كلمات تعتمد هو ان تكون غريبه وندرة الاستعمال . قال كلاما كثيرا : لم يدرك السبب في قوله . كب يشعر ان فكيه بحركان ، يتقابلان . يسعد في بقاء وبحركة آليه . ملخص الكلمات طحنا قبل ان يخرج من فمه . يقول فتحى سالم : انه لا يتحدث عن نفسه . ولكنه يحدث بلسان الرجال البسطاء اهمل بلده ، وان تلك هي مسئوليته الخاصة ، وانه لن يتنازل عن هذه المسئولية . ويقول عن نفسه كلاما في شكل الليل .

— دى بلدنا احنا ، ولازم نقول راينا في كل حاجة هنا .

فتحى سالم يكمل حديثه ، والمهندس يوافقه على ما يقوله ، ان ما يفعله انما هو لمصلحة البلد ، وهو مستعد في نهاية الامر للحساب . وانه يطلب من الناس النصيحة والمشاركة ، فهو في عمر ايتانهم .

يقف المهندس ، ليقف الرجال من حوله ، يصفحهم ، يطلب منهم الدعاء له بالتوفيق ، بعد كل صلاة .

— عن اذتكو يا جماعة . .

بدوب المهندس ومعه حب الدين في الظلام . الرجال يفيقون من سكر الكلمات ، لقد اصبحوا جزءا من الليل ، يبدون ثملين مثله ، وملامح وجوههم تسيل ليونة .

بعد ذهاب المهندس ، تكلم فتحى سالم كثيرا ، استمع اليه الرجال ، غير ان قلوبهم كانت مع المهندس . واسترخت الكلمات ،

واستطالت مساحات الصمت في كلام الرجال ، وكان لهواء الليلى يحمل للرجال موالا حزينا . في الموال ، حدث عن البسالة واعتاب على الايام والليالى . يقوم الرجال ، فيكتشفون ان ملابسهم مبتلة على الليل .

— تصبحوا على خير . .

تواعد الرجال على لقاء جديد على الجسر او في عشة سلسيله . واتمن من اهل الخير . .

يسير الرجال في الحوارى ، يدركون ، خلال السير ، ان العتون معناه الوحيد ، ان يدبروا ظهورهم لهذه المعجزة . لم يكن هناك ما يستحق الإبقاء عليه في بلدهم . لقد تحولت شفتهم على وردائى وأرضه ، ان نوع من الحسد له ، لقد تمنى كل منهم ، ان يكون هذا النصف فدان من نصيبه هو . فتحى سالم يسير بمفرده متجها الى داره ، شابكا يديه خلف ظهره ، واضعا الجريدة بين أصابع يديه ، مفكرا في كل ما يحدث . انه يقرر ، ان هناك امرا ما لايد من ادراكه ، لايد من فهمه والامساك به ، يرفض ان تحرف بهزيته ، انه يعيش من جديد ، ايامه في مدرسة انصارى سمك الاعدادية بالظهرية ، ويقول لنفسه ، انه يكره هذا المهندس . وتتناثر الاحلام ، تنعمرى ، وتبدو له الحياة بشكل كالم اتوجه . اخترق الحوارى ، صعد معها ، ثم بدأ في النزول مرة أخرى . اسلمته العارة الى الشارع الرئيسى للبلد . وفي الشارع الرئيسى بدا سيره متجها الى الناحية القبلية . في حجرته الصغيرة ، خلع جلبابه ، علقه على مسمار في حائط حجرية نومه ، ارتدى جلبابا ندينا ، نام على جنبه الايمن ، فرد قدميه على آخرهما . تذاكر كل ما تحمله له جريدة الصباح ، وكل ما يحدث في البلد . وادرك انه شليل . امض عنيه ، شك يديه ، وضعمها فوق صدره . صفت ، لامور في ذهنه ، تناهى اليه ، صوت حركة متناهيه يانى من الشجرة المعجوز ، الواقعة امام باب منزلهم ، حركة تدل على الارتياح ، وتتناسب مع صغر الشجرة المعجوز . فتحى سالم يشعر ان هناك نسمة هواء خفيفة ، تهب من ناحية الجنوب . ووسط هذا الصفاء الليلى ، كان فتحى سالم يدرك ، ان ايامه مليئة بالجراح .

وجوههم أنوارها واسعة ، تاكل الزلط ، لا يمكن أن ينسى هذه
الأنوار ، مهما قل الخير . العمدة يطلب من ورداني ، ومن أهالي
البلد ، ومن أمام المسجد ، أن يدعوا الله في كل وقت من الأوقات
أن تنتهي هذه المصيبة على خير .

— خلاص يا ورداني ، بكرة الصبح تسلم .

— حاضر يا حضرة العمدة ، امرك ..

— لنا رب اسمه الكريم ..

يذكر ورداني ، أنه عندما قال له حب الدين ، منك يومين ، أن
أرضه قد تخرج منه للشركة ، أنه سمل ، شق صدره سعال
جاف ، وسرع ، أحضر ورقة بيضاء وبصق عليها ، كان البصاق
أبيض اللون فاطمأنت نفسه . أنه الآن ، وهو يقف أمام العمدة ،
يشعر برغبة في السعال ، صدره يهبط ، والقفص الخارجى له
يكاد ينكسر ، وضلوعه يشقها ألم حاد ، الرغبة في السعال تعاوده ،
تتمها في نفسه ، رفع يده ، وضعها على فمه ، وراح يستمع إلى
حديث العمدة من التسليم والأذعان والاعتماد على الله .

ورداني يخرج من دوار العمدة ، يقف أمام الدوار . الوقت هو
المساء ، وأمام عينيه ، يشلم الخفر البنادق الميزر الصدئة . هدوء
ساعة الفسق المنزل بالنعاس يلف البلد بداخله . سار في حواري
البلد ، كان يفكر ، أن كان في باطن أرضه شر يتربل فعلا ، فهو
أرض خائنة . أنها أرضه ، يزرعها منذ سنوات لا يعرف عددها ،
ويدرك أنه لا يوجد شيء ما في باطنها . في باطن الأرض طين أسمر
وغصوبة ، وجذور نباتات عالية ، وسر الأسرار الذي لن تبوح به
لأحد في يوم من الأيام .

ورداني يسير ، يحمل عناد الريف وقلقه وصبره في أعبائه ،
وهو يضع كرامته فوق جبهته مثل طائيته التي يليها . ورداني
يشعر ، لأول مرة في حياته ، أنه بمفرده . وأن السوالم كلها قد
تخلت عنه ، ورغم التصميم والعناد ، فهو يشعر بشعور غامض
بضطرب في نفسه ، أنه ذلك الشعور الذي يضطرب في نفوس
الأمميين بالقضاء ، والقدر المكتوب ، القدر الذي لا حيلة لأحد
في رده ، والذي لا نستطيع منه فككا .

عليه بمفرده ، أن يفكر ، أن يحال الأمور الهشة في ذهنه ، ما
يحدث له ، لم يسبق أن حدث من قبل ، عقله يدور ، في أشياء
قد تكون بعيدة عن الموضوع الرئيسى ، يشمل في سيره ، يلف

جميع المخاوف لتحقيق في نهاية الأمر .
ورداني يشعر أن الحكمة قد سسارت عن غير ما يجب ،
المهندس هو الحكومة . هكذا فهم ورداني ، ولا بد من تسليم
الأرض ، انصف فدان يكامله في الصباح ، فخير له أن يستلمه
بنفسه ، بدلا من أن يؤخذ قسبا عنه .

— أنا كان قلبي حاسس من الأول .
يتذكر ورداني . أنه قد حصور المهندس للسوالم ، أول مرة ،
رأى عيناه ، وأنه من يومها ، وهو غير مد ربح خوسوخ كنه .
ورداني ، رغم ما حدث ، لم يقر بهزيمة ، لا يتصور أنه سيترك
أرضه للفرقاء تواجه الرجال ، يفعلون بها ما يشاءون .

في دوار العمدة ، جلس على المقصبة ينتظر حضوره . وعندما
دخلت عليه العمدة ، وقف . سلم عليه ، سأله عن الحال ، طلب له
وب اسمر والصحة والعافية ، قال له : أنت والد الجميع ، والدنا
كلنا . وأبى لنا أحد غيرك . ومن لنا تذهب إليه ، إذا حدث لاي
شيء . حدث . وقف العمدة ، طلب منه بحروف متأكدة ، أن يخلي
أرضه ويسمها للمهندس . قال له العمدة ، أنت ليس في معدورة
أن يقل له أي شيء ، وأن الأمور اكسر مما يتصور أعلى البلد .

— حتى أنت ياأ الحاج ..
قال ورداني : مستحيل . الأرض ليست مؤجرة . وهو يضع يده
بين يديه . يزع المسكين ممرح . العمدة أربح ، بكل حديثه ، أفهم
الحكومة تريد هذا ، لا يوجد في السوالم أو ، المركز ، من
يستطيع الوقوف في وجه المهندس . خير ورداني ، أن يسلمها
برصه . والمصيبة قد حلت بالبلد كلها ، وليست بورداني بمفرده .

— بس يا حضرة العمدة ..
— ولا بسى ولا حاجة ..
لم يكمل ، قال له العمدة : إرادة ربنا ، قضاء أخف من قضاء ،
وأنه بغد ضروفه . وسيحاول أن يستاجر له أرضا بدلا منها .
قال له : الله الذي خلقه ، وخلق أولاده ، وفتح لهم في منتصف

بوجه خلف ظهره ، يمسك بهما ذيل جلبابه ، يحس رأسه ، يتعرس في الأرض من تحته . لا يبقى السلام على الرجال ، يتغاضى في سره روث البهائم ، وتقر المياه وكميات التراب التي تملأ الحارات . يسكن منزله ، يقف على الباب . تظلمه حذوة حمار قديمة ، يمسك جافة ، قطعة من شجرة صبار باسفة ، لا يذكر متى علقها . يدخل منزله .

— فيه آية يا ورداني ؟

لا بد ، يدخل على أولاده ، يجلس بينهم ، تضع زوجته الطويلة أمامه . يجلس حوله أولاده الأربعة ، تحضر زوجته الطعام ، طعام كل ليلة . وفي بعض الميالي ، وما أقامها ، يكون هنا في البيت ضيق ، شيء ما أرسله هو من الحقل . ملوخية أو بامية ، وفي أيام نادرة ، قد يكون هنا دجاج ، أو لحم اشتراه من الجزار ، وقد يحدث أحياناً أن يعود من الحقل ، فيجد زوجته قد ذهبت دجاجة أو أرانب ، وفي هذه المناسبات ، فإن ورداني يذرك سبب أولوية ، ن شوتة مرض . فثك بالدجاج فقامت زوجته بسرعة وأرسلت في طلب الشيخ محمود ، أو المعلم سيد انجاز ، كي يذبح لها ما أمكن اتقاده من الموت .

ورداني يجلس على الطويلة ، يمسح خبز إمامه الجافة . وفي كل مساء ، توضع الأرفغة أمامه على الطويلة ، أرفغة سبواء سفيرة ، محروقة من المنتصف ، وخلال الأكل ، تختفي الأرفغة بسرعة ، للدرجة أن ورداني اعتقد ، أن هناك أيادي غير أيادي أولاده ، تاكل معه ، وعندما سأل الشيخ محمود عن السر ، حوّل وبسمل ، وقرا آيات من كتاب الله الكريم .

— أيوه ياسيدي ، هيه المسألة دي فيها قولان ؟

قال له : أنه جائز أن تكون هناك أدواح هائلة على وجهها ، مسافرة في الزمان أبداً ، بإذن منه سبحانه وتعالى ، أنهم أبناء الرياح ، زأدها هو طعام الناس أينما وجدوه ، أنها ترانا ، ولكننا لحكمة من الله لا نراها ، بل لقد أوصاه الشيخ محمود ، هامسا ، أنه أو وقعت منه ، خلال الأكل ، على الأرض ، لقمه وغموس ، فلا بد أن يتركه كما هو لأخواننا في الله ، سكان الأرض .

ورداني لا يتكلم أولاده ، ويقسم لزوجته ، بالطلاق ثلاثة ، شافعي ومالكي وأبي حنيفة ، أنه يجري عليها وعلى نفسه وعلى أولاده الأربعة ، والناس آخرين لا يعرفهم أحد ما ، وربنا يقدره على هذا

الحمل الثقيل . من بعدها ، حرص ورداني كل ليلة ، خاصة في الليالي الكريمة ، أن يترك على الطويلة مكاناً خالياً لهم ، أبناء وأولاد الأرض . كي يجنسون فيه . يتكلم معه . ويباركون الحقل والشرب والمراني ومستقبل الأولاد الصغار . ورداني يحس روجه ، ويلاذه بنفحة حانية . مسرحة . ويواسي ببطء . ودوماً ربه مصححه .

— وعكس يكونوا رعبوا من حجة ..

فأما ورداني لنفسه ، قال على الفور .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الشيخ محمود قد أفهمه ، أن يرد السلام كاملاً ، كلما يذكرهم ، أنهم أخواننا في محبة الله ، ومعنى أن يردوا على الخاطو ، أنهم يعمرون طيناً في نفس اللحظة ، وأنهم القوا تحية الإسلام ، ولا بد من الرد عليهم . عند هذا الحد ، أستراح ورداني ، فبر أن يسأل الشيخ محمود ما يراه ، بعد صلاة الغشاء في مسجد سيدي الغرب .

فلا ، ورداني .

— مطلوب مني أسلم الأرض ، ما أقدرش على الحكومة من ناحية ، وما أقدرش أعيش من غير الأرض من ناحية ثانية ، البلد خائني ، الحكاية بقت مرة خالص يامولانا . في الدار خمسة مايزين ياكلوا ويلبسوا . ويكره الصبح لأزم ..

طرح المسألة على الشيخ محمود ، طلب منه أن يدلّه بما يراه مصالحا . صمت الشيخ محمود ، وراح ورداني ينظر إلى شفتيه المزمومتين ، ووجهه الذي لا يتطرق بأى شيء ، بعيون مشربة بالاسي والخوف المبهم من الجهول .

— ويخلق ما لا تعلمون .

ردد الشيخ محمود ، آيات من القرآن ، نطقاً ببطء ، وبده تدور مع حبات المسحبة ، غير أنه لم يقل أى شيء عن المهندس الأرض . فحده ، قام الشيخ محمود ، ترك ورداني في صحن الجامع ، دخل مقام سيدي الغرب ، وغاب فيه . وقف ورداني مختاراً في صحن الجامع ، ثم ركب مدامه وخرج . في الطريق ، فتح له الظلام صدره الرحيب ، فغاب فيه .

ورداني ممدد على ظهره ، ينظر إلى سقف الحجرة الواسع ، يفكر في حقله ، الحديد المغروس في الأرض ، يحده من الجهات

الاربع . انا عشر قيراطا من الارض ، في الحوض البحري ، امتداد
الصغيرة التي ترويه ، تنقسم الحقل نصفين ، بحريها سنة قراريط
وقليلها سنة قراريط . الساقية التي بناها هناك ، مشتركا مع
اصحاب الارض الآخرين ، والرى منها بالدور ، حسب نظام متفق
عليه فيما بينهم ، شجرة التوت ، ظلالتها امتلكه الاطراف سامة
انجيلوله ، قلال الفخر الرائدة تحت اقدام الشجر طول الميبل ،
والنحة الارض بعد اختمارها بالمياه ، انشقق الواسعة فيها عندما
تكون شرافي . فكر ورداني ، في صورة حقله ساعة الفسق ، عندما
بدوب ملاحه وسط غبشة المساء الروادية ، فتبت معاله ،
وتتلاشي حدوده ، وتحول خضرته الزاهية ، الى خضرة رصاصية
داكنة اللون .

في مستشفى المركز ، كتب له الطبيب روصة العلاج ، قال له
ان هذا ادواء لمنه خمسة جنبهات ، وعليه ان يكره ، لمدة
سنة على الاقل ، مع الراحة التامة في السرير . ونظام معين في
الاكل ، صدر دجاجة في القداء ، شوربة خضار في العشاء ، لبن
حليب وبيض في الفطار ، وسيانيه الشفاء باذن الله ، اما الحجز
في المستشفى فلن ياتي بنتيجة . اخذ ورداني انروشة من الطبيب
سكره . قال : انه سحصر العلاج . سينفذ تعليماته ، وخرج
من المستشفى . درب كلمت الطب في ذهنه . فضحك . يذكر
انه كان يسمع في ايام الشباب الاولى ، معنى قديم ، يتحدث عن رجل
مرضى . يشكو طول الليل . انه غليل . دواء موجود في كل مكان
بحسب رموز عبي الحبيب . في بلاد قريبيه ، غير ان الطبيب له
بأمر بحرفه له ، فتحصر على ايام زمان السخية في كل شيء .
ورداني في نومه يحاول ان يتصور ما سيحدث لارضه في
اصباح . المهندس نزح الارض منه . الحفر . قلب ارضه علوا
تجود بالبر ، تسليم الارض ، الارض والعرض ، زوجته واولاده .
استدار . على جنبه الامين ، شبك يديه ووضعهما تحت راسه ،
وتنهذ ، لقد شعر بضيق في صدره .

.. صدري حابثقل باب . وحائبي له . سودا .
ورداني يخاف أن تأتية الازمة ، فيوقف زوجته واولاده ، ويطلب
منها حبة دواء ، فتقوم وفي عيها بقايا نوم ، وتحضر جلايتها السوداء .
من فوق السمار ، ومن جيبها الداخلي تفك مندبلها . تخرج من
داخله قروشاً قليلة ، باعت بها بيضا في سوق الخميس ، ثم

حرج . وهي تفرك عينيها ، وفوق راسها لبة جاز ، وفي يدها
قروش تحرس عليها اكثر من حرصها على الحياة ، كي توفظ المعلم
مقرب من نومه ، تشتري منه حبة دواء لا اسم لها ، حبة واحدة
لا تعرف لها شكلا ، اللهم انها تريح ورداني وتفتح صدره .

ورداني يفرد قدميه على آخرهما ، تصطدمان بعدة الشاي في
آخر الحجرة ، لني اصابع قدميه ، قال لنفسه :

.. بكرة يحلها من لا يفعل ولا ينم ..
وكانت عيناه تلعمان في ظلام الحجرة ..

يجد الرجال في الحقول والنباتات والبلد ، وفي أنفسهم ، مراحه الاشياء الاولى ، ورغم ان الحياة بالنسبة لهم يوما واحدا ، يجترونها ويعيشونها بلا نهاية ، فان عيونهم المثيرة ، تمنح الاتساع الحقولي وزرقة السماء ، وخضرة النباتات بنظرانها ، وترصد التغيرات التي تطرأ على جلد الطبيعة ، ويبدو للعيون أحيانا ، ان التغيرات التي تحدث ، إنما هي وعد غير مكتوب بسماعة جديدة ، فداء عن انصير الطويل ، وتبقى العيون والأذان والقلوب ، تستجيب .

تحدث . شهر أكتوبر من كل عام .
 ١ - انحناس مستوى المياه في ترعة ساحل مرفض : لم جديها ويبدو القاع عاريا ، مليا برمم الحيوانات الميتة ، والنباتات الصغيرة وقد تراكت عليها القاذورات والسك الميت . وعندما يستعد أهل السواحل منظر التربة بعد الحفاف ، يموت في نفوسهم كل عام شكل التربة المثلثة بالمياه ، وجمالها في الليل .
 ٢ - قصر النهار ، يتحول الى ومضة قصيرة ، فكرة كمب ، نمر الشمس النساء الواسعة في لمح البصر ، وتطول مساحة أثين . فيضحي وعدا يسهرات طويلة ، تحكى فيها الحكايات . وتهمس النساء في الصباح ، وهن يملأن الجرار من الحمام ، بما حدث في الليلة السابقة ، وتفضي أمراء منهن بجمال ليل الشتاء وطوله .

٣ - تساقط الاوراق من فوق الاشجار ، تاركة الفروع عارية مدترية الانس بدور الحياة ، اخصب والخضرة والتماء ثم تقدرول وعلى الأرض ، تحت الاشجار ، تتناثر الاوراق الجافة ، تنفطى مساحات الظل .

٤ - هجرة الطيور . ان الطيور في مثل هذه الايام ، من كل عام ، تهاجر الى مواطنها الشتوية . الانسان يبقى مرتبطا بالأرض والبيوت ، مسجلا تحول الحياة والأرض ، مع قدوم الشتاء ، وباحشا عن بوادر الربيع قبل الاوان .
 انه الخريف ، خريف هذا العام يحمل معه شيئا لم يروه من قبل .

الخيام المنصوبة في ارض الوقف . ما أن يمر احد من اهالي البلد على ارض الوقف ، حتى يتوقف امام الخيام ، يحاول ان يقترب منها ، لا يصادو السير في طريقه ، الا بعد ان يرى أي شيء من داخل الخيام . اهالي البلد ، يتساعدون في الخيام دلائل وجود حياة ، غسيل منشور على حبال ، مياه مدلوقة على الأرض ، فوقها فقاعات صابون ، اعقاب سجاير وقايا عيدان كبرت محترق ، اوراق معزقة ، وفي لحظة الضيق كانوا يشمون رائحة السمن المحروق ، وكانوا يسمعون صوت طيشات الثقيلة ، ومن خلال مناسلك الخيام ، كان يخرج دخان أزرق ، دائرة اهتمام الناس مركزة في الخيام بمن فيها من الناس . وما يحدث بداخلها ، يقسم الكل على ان أحدا من اهالي السواحل ، لم يدخل الخيام ، ويقول الناس ، ان حب الدين يوصل المهندسين حتى باب الخيمة ، هو الآخر لم يدخلها . المهندس هو موضوع اهتمام الناس ، مرتبطا به البترول والحياة اجديده والاماني والوعود . وقد يهمل الناس موضوع المهندس ، عند مرور بعضهم على الخيام ، يتذكر الموضوع كله ، وما سمعته عنه . وتنفق على سلع نفسه ، احلامه الخاصة وامانيه . ذهب الرجال ذات مساء الى الشيخ محمود ، كان في صحن الجامع ، جالسا كما تعودوا ان يروه منذ ان ولدوا ، ويعتقد الكل انهم سيموتون ويتركونه كما هو . في نفس المكان ، ونفس الجلسة ، والمسبحة في يده . ان احدا دائما هامة تحدث للسواحل تزلزل اركانها ، تؤثر على من فيها ، تبرز اعني الرجال ، انها تصل الشيخ محمود . ذهبوا اليه ، حملوا حيرتهم وتساؤلاتهم ، جلسوا حوله ، نصف دائرة ، حكوا له ما حدث ، تكلم ابو السعود ، أوجز احيانا ، توقف امام بعض الامور طويلا ، وكان الرجال يوافقونه على كل ما يحكيه .

— أدى الحكاية ياسيدنا ، من طلقك ، لسلامو عليكم .
 اكمل بعضهم .
 اعتدروا بأنه لا أحد فيهم يستطيع الكلام مثل ابو السعود ، ولكنهم اكملوا ما قاله . تكلمل الموضوع امام الشيخ محمود ، صمت ، دارت حبات المسبحة في صعود وهبوط بين اصابع الشيخ ، راح الكل ينظر الى شفتيه .
 — واطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، واولى الامر منكم .
 انهمه احدثهم ان ما يطلبونه هو مشورته .

— صدق الله العظيم .

انهم لا يطلبون منه ، أن يقرأ الغيب ، أو يحاول معرفة ما سيحدث
البلد ، قال أبو السعود أن حياة البلد كلها ، تنوقف على هذا
الموضوع ، أن هذا الرجل ، وأشار إلى ورداني ، صاحب الأرض
والبشر ، أنه صاحب أكبر سهم في الشركة . أما أنا ، وأشار إلى
نفسه ، أنا أبو السعود ، متادى البلد ، وقارئ السكف ، وحامل
أخبار الرجال والنساء ، ساكن رئيس العناير الداخلية في
الشركة . الموم هو المدير العام ، مدير شؤون العاملين بالشركة .
حب الدين ، نائب رئيس مجلس الإدارة ، الإدارة العمومية ،
التي لا يعرف أحد أين سيكون مكانها ، مصر أو أبنائ البارود ،
أو السوالم . فتحت سالم عضو مجلس الإدارة المنتدب ،
سأقدم تقريرا كل يوم ، عن سير الأمور في العناير الداخلية ، قال
أبو السعود ، أنه ضمن مشروعاتهم ، أن يبنوا مسجدا كبيرا ،
من دورين ، دور لترجيسل وهو الأرض ، والدور الثاني
لنساء ، العمل في هذا المسجد سيكون بمرتب كبير ، وسيظل
العمل بالمسأة ، وسيضاء المسجد بالنور بدلا من العتوس العذيم ،
سكنون صلاة الفجر بلا مناعب الظلام ، صمت الرجال ، في العمود
وهج رائع ، أحساس طازج ، أعادوا السؤال على الشيخ محمود ،
وبعد فترة صمت ، قال لهم الشيخ محمود :

— لا يعلم الغيب إلا الله .

شعر الرجال أنهم عاجزون عن الفهم ، وبأنه تفصلهم عما يقولونه
مسافات طويلة : سنوات لا نهاية لها . يستعور بيها الأميال
الطوال ، بحثا عن أرض جديدة . قام الرجال ، في مقام سيدي
الغريب ، مروا بأيديهم على سترة المقام الحمراء . قبلوا أياديهم .
مسحوا بأنفهم على وجوههم ، كان على السترة الخضراء كلام
مكتوب باللون الأبيض ، الرجال لا يعرفون القراءة أو الكتابة ،
غير أنهم يعرفون أن المدون على هذه السترة ، هو : إلا أن أولياء
الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأمام المقام ، في حفرة
سيدنا الغريب ، تذكر كل منهم أمنيته . عاشها من جديد ، أمش
من خلالها على أيامه القادمة . وفي مسح الجميع . كاتب مصرح في
وجوههم ، كتابات قديمه . على الحدران . حروف متراكمة ، تحدثت
عن الديناني يحضر أبدا والذي يأتي ولا يأتي ، وعن البر والتقوى ، والخوف
والشجاعة . وما قاله الحضر لموسى . من أنه لن يخلق معه دسرا .

وفي كثير من موضع . كان هناك كلام عن العسر .

في الشارع الرئيسي . شعروا بالاستخفاف ، بأنهم يطبقون في
"نقطة البعد" . ومن خلال الصمت ، بدأوا يضحكون ، ضحكات
موشاة بالسرور المفاجيء . أنهم يتادون أنفسهم بوظائفهم الجديدة ،
وأهالي البلد ينتظرون اليهم ، ويقول البعض . أنهم أصابع من
راب المهندس ضحك عليهم .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

قلنا : آخر زمن . السوالم ستري ما هو أكثر ، طالما أن
المهندس يعيش فيها . الرجال يسرون في الشوارع ، يقولون
الكث : يرفع بعضهم بأصابعه في الهواء تعبيرا عن السرور . تخرج
من أفواههم ضحكات صافية ، مكتملة الخلقة . لقد اكتشفوا أن
الأمور أصبحت لا تطاق ، ودوام الحال من الحال ، استمرارهم
عنى أن يموت أكمل ، المهندس أتى في الوقت المناسب ،
واكتشفوا أنهم كانوا سذجا ، لقد رفضوا بما قسم لهم في الأيام
الماضية ، وتعامل كل منهم : كيف كانت سير الأمور من قبل ،
واستعدوا لتقبل التغيير الجديد في حياتهم .

على الجسر ، في المساء جلسوا ، لعبوا السبجة ، تسكعوا ،
أسكرتهم الكلمات . فتمايلت الرؤوس . ونحرت اللسن في
الأفواه بصمومة ، وأرتفعت الأيادي يتشاكل . قال حب الدين :
أنه سيلهب إلى دمنهور في الأسبوع القادم ، ومن السوق العامة ،
سيشتري قماش بدلة ، أنه يفضل اللون الرمادي أو الأزرق ، على
أن يكون القماش سادة ، فهو لن يرتدى الجلباب بعد اليوم ،
الجلباب لا يصلح إلا للثوم أو الجلوس في المنزل في الأمسيات .
حب الدين يقول لهم : أنه لا يتصور كيف كان يرضى من قبل بلبس
الجلباب . قال ورداني : أن ابيع الأرض للشركة مهما حدث ،
سأظل مالكها الوحيد ، وسأأخذ نسبة من ثمن البترول ،
وبالنقد ، سيفعل كل ما يشاء ، يبنى بيتا ، يفتح مشروعا كبيرا ،
يشترى سيارة ، فلا أأخذ ضمن ما تالي به الأيام .

— الموضوع ذا من اختصاص القضاء ، تؤجر أو تبسع ، فيه
جهات مختصة .

التحدث هو حب الدين ، ورداني ثار ، حاج وماج ، وسخر من
مسألة التخصصات (وأن لم يكن قد فهمها) . المسألة واضحة ،
الأرض أرضه وهو حر فيها ، توقف ورداني ، به الجميع إلى

حقيقة ، يجب الانساها احد ، لقد سلم الأرض بمزاجه للمهندس ، وكان يملك ألا يسلمها ، وبذلك يتوقف المشروع ، ولكنه تنازل عن أرضه في سبيل مصلحة البلد . انه يدعى سراً في هذه اللحظة ، لم يكن يحب أن يقوله ، الرجال ليسوا غريباء ، قال له العمدة يومها ، انه حر ، الأرض أرضه ، وله أن يفعل ما يراه . قاطعه اليوم . طلب من حب الدين أن يبحث له عن شباب متعلم . كي يعمل معه في مكتبه الجديد ، ظروف العمل تفرقت ، سيفتح مكتباً في منزله بصفة مؤقتة ، فالشركة ستبنى له مكتباً فخماً ، يقول اليوم : انه شاهد مكان مكتبه بالأمس على الخارطة مع المهندس .

أحمد يحسبون . قالوا لانفسهم . ان شغل الحياة يجتمع من جديد في السوالم . سيعود الرجال الذين رحلوا لضيق ذات اليد ، أو لعدم وجود عمل ، قال أبو السعود : انه لن يمر على البلد ، في حوارها الصغيرة الفتوية ، ويتأذى بصوته الحيائي : « يا صابر الله ، الحاضر يمان الغائب » لن يجتمع حوله الصبية والأطفال ، ويتكاثر الصفار حوله . كلما مر بشارع جديدة ، سيكتب ما يريد بإبلاغه للناس ، على ورق أبيض ، يتعلق به صبية ، أو يعلق على لوحة في مكان عام ، كي يقرأه الناس .

— ما هي كل الناس ، حتى النسوان ، لازم يعرفوا القرابة والكثبة . أمال حانفضل كذا على طول . متى ممكن ، المهندس قال كذا .

— أمال يا عم ، والله وشغنا أيام حلوة .

ورداني يتصور أن أرضه قد باحت بسرها لرجل سواه ، انه المهندس مصعب . يتسبب ورداني ، لا يصدق . سيذهب إلى أرضه ، سينام هناك ، وفي الليل ، مستودع الأسرار والرؤى والاحلام ، سيعرف السر .

— واتشئ دى الأشياء بقت معدن ..

همس لنفسه : انه يتذكر الأيام الماضية ، كان يجلس في عشة سلسبيلة ، الرجال من حوله يطلبون أدوار الشئى الثقيلة ، يدخلون القسل . غير أن ورداني كان يدور في عقله شئ آخر . حساباته ، ما عليه ، ما معه ، النقود التى ينتظر الحصول عليها ، بعد شهر أو شهرين . في اللحظة التى يأخذ فيها كوب الشئى ، أو يدس غابة الجوزة بين شفتيه ، يدرك معنى ذلك بالنسبة

لمحروفه ، قوت عيساله ، ويدرك ان ذلك كثير ، ولكن ما باليد حبيبه ..

الرجال يجلسون على الجسر ، وأتليل قد حل ، انهم يرون مناظر ان يروها ويسمعون أمورا ان يسمعوها ، ويملكون مكانا واسما في سماء الله العالية ، يفعلون فيه ما يشاؤون ، دونما خوف . كان الليل مقبلا بالاشواق ، الليل يلطو بداخله الحواري والبوت والناس ، زارعا في النفوس الاحلام والاماني .

قال لهم فتحي سالم : ان هذه الحكاية ، قد حدثت من قبل . في السوالم ، في قديم الزمان ، منذ مائة سنة ، قراها في الكتب ، يدعى الرجال دهشتمهم ، انصتوا اليه . الحكاية لم تكن حكاية ينثر ينزل ، كانت حكاية أخرى عن السوالم . قاطعه أحدهم ، البشر والمهندس والبشرول ليست حكاية ، انها حقيقة ، المهندس ليس حذوه بحكيها العجائز في ليالي الشتاء لسفطه الوجه المطوطة اللحظات ، هو حياتهم ، وجودهم . قال فتحي سالم ، انه يطلب الفرصة فقط كي يتكلم ، ولا يجب أن يقاطعه أحد . سكنت الجميع في السوالم . شدة حزين . فتنها صبيبا وقت الحصاد . في انصاع الحقول ، تحدى احدها ، فتاة صغيرة وجميلة ، تسمى نفسها سلسبيلة ، وترد عليها الباقيات ، يطلبون فيها من الشاطر حسن . ان يركب حصانه ، ويجهز الزاد ، فهو على سفر قد بطول ، وزاد المسافر ، خياله وعقله وقلبه المغم جسارة ، ست الحسن والجمال ، محبوسة في قصر ، فوق صخرة ، الصخرة العالية ، بين مساحتين من الصحراء ، يحار لا نهائية من الرمال ، خرج الشاطر حسن ، سافر ، غير انه لم يعد ، انتظروه الرجال والصغار والنسوة ، تعلقت خيوط نظراتهم بخط الأفق ، ولم يبطأ لهم وجهه انجميل أبدا ، دفنوا حكاياته في حبات القلوب ، من فتحي سالم ، ست الحسن والجمال هي السوالم نفسها ، الشاطر حسن ، كان أحلى أبنائها ، وأنه كان مطلوب منه أن ينتقل بلده ، من خطر ما ، لا تذكره الأغنية القديمة ، وان الشاطر حسن لم يعد من الصحراء الواسعة ، وقد يكون هناك حتى الآن ، السوالم ما زالت حزينة عليه ، وهي تعيش على أمل أن يعود إليها ، قال فتحي سالم ، انه لا يعرف لم ذكر هذه الحكاية ، وقال انه يفضل أن تنتظر ست الحسن والجمال عودة الشاطر حسن ، اشيا ورجلها ، الفرح خيانة له حيث هو الآن ، الغيبة يا أهل

السؤال مرة المذاق على اطراف اللسان . قال فتحي : ان كلمات
الافنية مكتوبة على الجدار الداخلى لبئر المياه المهجور . خلف جامع
سيدى القريب . وهى مكتوبة بدم الشاطر حسن ، ويخط كوفي
جميل ، وانه قراها فى صباه ، قال : اننا يجب ان ننتظر ، وان
ندون كل ما يحدث لنا ، على نفس الجدار الداخلى ، فنحن
لا نعلم ما قد يحدث بعد ذلك . كس على الرجال صمت غريب ،
هل يعود الشاطر حسن ذات مساء . رجل كبير . عملاق :
سيدى اخدم . هن ورد ذكر هذه الحكمة فى الكتاب الذى انعم
سيدنا القريب ، لم يجب عليه احد ، قال فتحي سالم : ان
الشاطر حسن الذى سطره اسوانه كها . كتاب كبر . معتر
العضلات : طول خطوته الف الف فدان ، تدوس قدمه على الارض
فهرها . رفع فامته منقطة السماء . رد حب الدين . قال : ان
الشاطر حسن ، هو النبى الذى تحدث عنه مولانا ، فى آخر صفحات
كتابه ، وانه لا يد وان يحضر ، وانه لن يحزنه ان يعود فيجد بلده
على احسن حال ، الصمت يحوم فى انظلام ، وحب الدين يواصل
كلامه ، الكلمات لا تقال بنفس الاندفاع الاول . الرجال قعدوا
حماسهم ، وانشغلوا الاذهان بما قاله فتحي سالم ، قال حب
الدين لنفسه : ان عشته مستحول الى كازنو ، مراهنات الرجال
فى اللعب ، ستكون على اشياء كبرى ، وقد يلعب الرجال الورق على
الجسر ، وامامهم اكوام من النقود ذات الرائحة المحببة ، لن يظلم
ارجل منهم كرت شئ واحد عنى الحساب شكك . قال حب
الدين للرجال : انه يجب على كل اعزب ان يتزوج بعد عمل
البشر ، وعلى كل رجل متزوج ، ان يتزوج مرة اخرى امرأة
جديدة ، قال عن نفسه : انه سيتزوج بعد اسبوعين على الاكثر ،
انه س يناسب الا احد العمدة ، وقد تزوج مر . مائة او مائة
على سنة الله ورسوله والمؤمنين .

— بسى لما الباشمهندس يتزوج الاول . .

— بمصيح . .

قالوا : ان ليلة فرحه ، ستكون ليلة ولا كل الليالى . الرجال
انهم . لن يعرفوا . كيف ينفقون اسعد . قال حب الدين . انه
سيزفه فى بيته الجديد ، سيخطب له احدى بنات الناحية كلها ،
وانه سيشعل السجارة الاولى فى السهرة ، من ورقة بعشرة
جنيها كاملة . هبت عليهم نسمة هواء باردة ، وارتفع بنار

خريفى ابيض من التربة تحتهم ، ذكرهم بان الليل قد حل منذ
وقت مضى ، قام الرجال ، وقبل ان يتركوا الجسر ، اشار لهم
حب الدين ، ان يتركوا منه ، كونوا دائرة صغيرة ، وهم وقوف
لم يكن يبدو سوى بياض العيون يدور فى سرعة ، احسوا بدفه
انفاسهم ، ينزل على الوجوه : همس حب الدين لهم ، بصوت
منخفض :
— كلام فى سرهم . .

قال لهم : انه بعد افتتاح المشروع ، سيعاد انتخاب اعضاء
الاجداد الاشتراكي . وفى هذه الحالة ، سيتغير اكثر اعضائه .
انهم لن يخافوا احدا بعد ذلك . كل الامور ستتغير ، ان عمل
العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر سيبطل . سيكون هنا ، مركز
بمس فيه ساد كبير ورؤساء الفطارات المدسه . سيكون هنا
مؤسسة للكهرباء ومرفق لتعبئة ومكتب للتوريد وفروع لكل
البنوك ومحطة خطوط اتوبيسات تصل السوالم بكل البلاد ،
ومكتب لتغراف وتليفونات ، وستعتمد خطوط الفطارات حتى
البلد . ونواد ومقاه نظيفة . قال لهم حب الدين : على كل
منهم . ان يشتري عفرته زفراء جديدة ، بدله للشغل فى المصنع .
وان يستخرج بطاقة شخصية او عائلية ، مع استخراج شهادة
ببلاد وتجهيز شهادة بادية الخدمة العسكرية او الاعفاء التام
منها ، وبطاقة عضوية الاتحاد الاشتراكي وان تكون الاشتراكات
مسددة حتى آخر شهر . والفيش والتشبيه . احس الرجال ان
وجودهم الذى لم يكن محددا من قبل . سيتم حصره فى اوراق
بضاه . مكتوب فيها معلومات غريبة ، من جهات بعيدة . تحدد
كل بيانات حياتهم . انهم يدركون ان كل شئ هنا . كان محسوبا
دون ان يدري احد . قال لهم حب الدين : ان البلد بلدهم

وانهم اولى الناس بالعمل فى هذا المشروع . قال لهم : ان عصمت
الذى . مسندة تشبه . وفى كل الجاه . فى سبيل
الحصول على الاوراق المطلوبة . هذا الكلام ، قال حب الدين .
لا يحس ان يعرفه احد غيرهم . حتى ولا زوجاتهم فى المنازل .
احس الرجال بدور فى رؤسهم ، طعم الحياة يتغير فى مذاق
كل منهم . والتغيير الذى يوشك ان يحدث لهم . نادر الحدوث .
باعدوا على اللقاء : بعد صلاة العشاء فى عشة سكر ، نه تفرقوا .
حب الدين يسير فى حواري البلد ، طريقته الى خيام القرباء ،

يفكر في سيره البطيء في سلسبيله ، يدرك انها آخر ما تبقى له .
شعر يشوق جارف لها ، احس بالحنين الى بسمتها الصافية :
فكر في ان يغير طريقه ويعود اليها ، قال لنفسه : ان الله قد
جزامهم خيرا على صبرهم الطويل ، وقال ان وجه سلسبيله ، كان
خيرا على السوالم كلها . الهواء يداعب وجه حب الدين وهو يسير
في حوارى السوالم ، انه يشعر برغبة في الفناء ، ويبحث في
وجدانه موال قديم ، يترنم به ، لكن لنفسه .

— محبكم داب ، وانتم لم دريتوا بيه ..

والنار بشرى فؤاده ، وانتم لم دريتوا بيه ..

ان قدمه تدوس على الارض ، وترتفع عنها ، بحركة آلية ، وهو
يسير ببطء في حوارى السوالم . ان عينيه ، تكتسبان رؤية
جديدة ، لمشاهد القدم ، انه يعلأ عينيه من كل شيء ، ومما
أدهشه ، انه عندما قابل المهندس ، سلم عليه بحرارة ، ورحب به
وقال له المهندس : وهو يضع يده على كتفه في ود وحنان :

— اهلا بنائب المدير العام ..

مفتتح : امرأة لينة العود ، مغرودة القوام ، مثل عود الدرو
الذي زرع ونبت في ايام الرخاء ، في حلاوة الشهد ، تنام رموشه
الطويلة على العيون الواسعة ، تردد العيون اناسا في الليل
وتحس الشفة السفلى ، اختها العليا في وسن هامس ، مكونات
معا دائرة صغيرة ، في حجم وحمة حبات التيق . اليد والدرا .
في بياض القشعة ، تتحرك ايدان خلف النصب ، بخفة ومهارة .
يبعد الرموش السوداء ، عن العيون المنقبلة . فتتظفر ناحيت
الرجال ، فتبذل فيهم جميعا ، وعودا مبهمة ، رؤى فسياسات
غامضة ، حثيثا وسهادا ورغبة .

سلسبيله امرأة بلا رجل ، وكل امرأة بلا رجل في السوالم
فهي امرأة متاحة . يقول الشبان . ان من له زند رجل . وذو .
ذكر مقفل بالشعر ، وفي جيب الصدري لداخلي . الذي ينسأ
على صدره العريش مال ، فهو قادر على ان يتحسس بيده حلاو
الشهد ، ويغرس اصابعه في ليونة الجسد الابيض ودقته . وعندنا
قد يرى عن قرب اتساع العيون . وقد يكحل عينيه بسواد
الرموش التي تغطي فدان ارض . وقد يرى بياض الجسد بضي
ويشع في حجرة شيقة ، مطعونة بمساحات الظلام الليلي .

يجلس الرجال في عشة سلسبيله : يتربع في وسطهم حب الدين
امامه الطويلة المستديرة الواضحة ، التي يلعب عليها الرجال انوردة
احيانا . سكر من معالم المكان . تنصدر العشة . تصطدم عين
الداخل ، بعلاوتها خلال دخوله . فتحي سالم يجلس وسطهم
وحضوره امر نادر الحدوث ، ولعل السبب الوحيد في حضوره
حديث الامس وما قاله المهندس ، فتحي سالم قلق في جلسته
ويبدو انه غير متقنع بحضوره الى العشة ، ورغم هذا ، فهو مكر
على الجلوس ، ومن يدري فقد تمتد الجلسة الى ما هو اكثر من
هذا ، انه ينزلق ، والهالوية ممتدة امامه الى ما لانهاية . والتوقف
اصعب من الاستمرار في الانحدار . فتحي سالم صامت . لا يتكلم
يتحسس جبهته واذنيه وفتحتي منخرابه ، يحدق في الرجال

ويتعمد الا ينظر ناحية سكر . ويقول لعمري . ان لكل امر من امور الحياة جانبه الجميل . ويكتشف الان . ان سلسيله رائعه ، ويحسد حب الدين . ويستريح في جلسته . ويمتج الرجال اذنيه . الرجال يتكلمون في كل الامور دفعة واحدة . ومع الحديث ، يستيقظ في نفوس الرجال ، الالام والخطا والجراح . الحديث ينفض من اقلوب الصدا والشار . اتهم يفزلون من تحت امامهم وجذب الحياة من حولهم ، حكايًا تبلغ حد الروعة ، ووسط الحديث كانت اعينهم مربوطة بمكان ما . في الافق المغمى وسط الظلام . ان احدا منهم لا يستطيع احتواء شعوره الداخلي . او يتدقق مدافعه ، ويسفل هذا اشعور سره الخاص به . دون كشاف بالنسبة لاي منهم .

الرجال ، الجالسون في عثة سلسيله . تبدو قدرتهم الوحيد: في ان يحلموا ، ان يرسموا بعيون الخيال . اشياء . حصاها في نفوسهم المهندس . تدور الجوزة بينهم . يخرج الدخان الازرق من افواههم واتوقفهم ، يختلط ببخار اكواب الشاي الدافئة . يكونان معا ، سحابات من الغبار الثقيف في جو العثة . وفي الخارج يذوب وسط الليل الناعس .

— وحدوه ..
— لا لاله الا الله ..

الرجال ينظرون الى بعضهم ، كأنهم يرون انفسهم للمرة الاولى . تنفرس كلماتهم في جو العثة ، فترسم امام عيونهم اشكالا ، صورا ، بلادا ، تحيل احلامهم الى واقع محدد . لقد تباعدت المسافة بينهم وبين السوالم ، وشعر الرجال ان حبال الالفه والمودة بينهم وبين البلد قد تقطعت . لن تعود الحياة الى ما كانت عليه من قبل . كانت الامور قد ساتت ، واضحى كل رجل . في الصباح ، يشعر بان كل شيء قد غدا ثقيلًا ، الحياة ، الجوازي ، البلد ، نعمة العيش ، نظرات الآخرين ، سماء الله العالية .
— اما يا اولاد لو طلع الكلام ده صح ..

تشتمل الكلمات ، تندفع في سباق بينهم ، ولا تستطيع الاذن ان تعبر شيئا وسط سيل الكلمات التدفق . الرجال يحلمون بسوالم اخرى ، لا يوجد فيها عمد ، ويرجل لا يقضون حاجاتهم في السباح ، على شاطئ الترتعة ، وبلبل لا يبدا في السادسة مساء ، ويستمر حتى السادسة من صباح اليوم التالي ، ولا يرتبط الملل

في اذهانهم بالظلام والصمت ، انهم يحلمون بسماء مفسسولة بالشهد والحنين ، تعبرها طائرات كثيرة . وقد يكون هناك مطار كبير . الطائرات لن تذكرهم بعد ذلك بالحرمين ، ولكن لترتبطهم بالدنيا الواسعة . وقد تختفي اختسامهم ، تلك القطع النحاسية الصفراء المربوطة بالدويرية في محافظهم الفارغة . وقد تبني النقود ، تلك القطع الفضية الالامعة ، والاوراق الخضراء ذات الرائحة المحببة . في الايدي فترة اطول ، حتى تدفئها ، وقد تعرق الايدي على النقود من الفرح ، وقد لا يخافون شيخ الخفر ، وشيخ البلد ومقاول الانفار ومعاون الزراعة .

سلسيلة تهيم خلف النصبة ، وتقوم بعمل كل ليلة ، انها تفتي بصوت لا يسمعه سواها ، كلمات سمعتها في الزمان القديم ، في إحدى القاعات الضيقة الحمراء ، الفاقعة الحمراء ، في شارع محمد علي ، في مصر ام الدنيا ، الكلمات التي تترنم بها ، مربوطة حول اغلب ، كحجاب لا يفارقه . ترددها دون ان تفهم معناها :

— آه منك يا زمن السفر والترحال ..

حب الدين : قلت لنفسي . يا مركب العمر . ان جاكى العدل حلي ، واقعد على دفئك . واخذ يابدين خلي . وعذني المهندس يانعمل . قال انني خامة جيدة ، وانني ساجد نفسي في انعمل معه عندما سمعته ، لم ادرك معنى ما يقول . غير انني في الميبل . واللبل يخفي حقائق الاشياء ، بدأت ادرك معنى كلمات المهندس . انني احبه ، وفي كل ليلة ، بعد ان تغلوا العثة تماما ، اصبح بمفردي في مواجهة سلسيله ، نجلس معا في مواجهة بعضها ، نتحاسب ، نضع نقودنا في منتصف الطاولة ، اقيد الحسابات . افول لنفسي : يارب سترك ، والنبي يارب . انني لا اخاف سوى شماعة الناس . لم اكن اطلب الكثير . قال لي المهندس : سامعك معه ، ملاحظا لتشغيل الانفار ، على ان اراقبهم في العمل ، صرف الاجور سيكون كل خمسة عشر يوما ، او كل اسبوع . زي ما انتو هايزين . قال نه نسمعيني اعلى اجر في الناحية . قال ان الفجوة ستحدث هنا ، سنرى بانفسنا الكثير . مثل على المهندس همس بكلام حلو عن مستقبل السوالم ، الاذكر انه قال : كلمات رائعة ، كانت في عينيه غنوه مقبدة ، عبارات حبسية تريد ان تنطلق ، ان تمر يد في الهواء ، فركت يدي في بعضهما ، احمر وجهي « احنا تحت امرك يا باشمهندس » وكنت صادقا فيما قلت

اشعر اننى وجدت شيئا ما ، وقد افضى بقية لعمر مستريحا ، كنت افكر في ترك السؤال من قبل ، كانت الحال قد ضاقت بى ، كان الفراغ وضيق ذات اليد وبيع الارض قد دفننى الى حافة اليابس ، سرت مع المهندس حتى الخيام ، تركته هناك ، وما كنت اود ، ان افارقه لحظة واحدة ، كنت حريصا عليه كما الحياة .

» تصبح على خير يا باشمهندس « عدت ، في طريق عودتى ، كان في نفسى شعور غريب ، نوع من التشفى في العمدة وشيخ اخضر والخضر والعلم يعقوب ، كنت اتشقى في كل من يقبض ماهية اول الشهر ، كل الذين لا يطلبون من الله سوى ان يدوم الحال ، رحت امنى نفسى بالايام القادمة ، اى يرحمه الله ، تنبأ بما حدث من قبل ، العجربة التى مرت بالسولم في الربيع الماضي ، جلست في وسطنا ، كنت اجلس على الجسر ، اخذت انرى ، وشوشت الذكر ، وميت بيأضى ، قالت لى : يا بك رزق كثير بعد عمر طويل ، اطلبه من الله ، سأتها من العمر الطويل ، قالت سنة واحدة او اكثر . رفعت يدي نحو السماء الربيعية الزرقاء . قلت يارب ، اوزع الشاى على الناس ، اتحرك بين الرجال ، وقد بدأ جو العشة ثقلا بالانفاس والدخان ، اتخيل نفسى ، العجربة الزرقاء . الحذاء الالامع ، البد الناعمة ، حب الدين سرحان رئيس قسم .

بشركة ، الزواج . العشيقه ثم الزوجة ، يصل ويسلم ليد انسيب : العمل في النيسار ، استعادة الارض التى بيعت للمعلم يعقوب ، القراط الخامس والعشرين ، لا بد وان اقول ، اتنى لا اتصور كيف كانت الايام تستمر بدون المهندس ، النوم حتى العاشرة الاستيقاظ ، الافطار ، التدخين ، النوم مرة اخرى ، الصحو ثم النوم ، ولا شيء غير هذا ..

فتحى ساهم : اخوانى ، اهالى السؤال الكرام ، وشحت نفسى نيابة عنكم ، املى فيكم ، انتخبوا الفلاح المثقف ، فتحى سالم ، رمزه المتناج ، كانت ليلة جريئة ، لم اتم حتى الفجر ، بدا لى الصباح متعبا ، قمت من نومي ، تناولت افطاري بقم غير قمى ، ذهبت الى دوار العمدة ، لا ادري لم ذهبت الى العمدة بالذات ، تحدثنا في كل الموضوعات ، سألنى عن اخبار البلد ، واخبار اعطاء الاتحاد ، واخبار الجمعية التعاونية ، والمدرسة ، طلب منى ان امسر . بعد ايام ، سيكون الامر في لجنة الاتحاد . درنا حول كل الموضوعات ، الا الموضوع الرئيسى ، المهندس والبترول ، لم

احسه . ولم يشأ الحديث عنه . كزنا بدرك . اننا لم شق في هذا عساج المعجب . لا من اجل ذلك الموضوع . راحب الدواى تمتد بين الكلمات . لم نجد ما نقوله . حضر الى العمدة ضيوف من بلاد بعيدة ، قمنا ، سلطنا ، رحبنا بهم ، سالونا عن الصحة والحد . احسنت ان وجودى اصبح بلا جدوى ، قمت . سلعت استاذنت من العمدة ..

— ما انت قاعد ياسى فتحى ..

— اصل وراثنا شغل ..

— طيب ياخويا ، خطوة عزيزة .

في الطسريق . وكنت بمغردى . رحت ائتش في نفسى من احساس واحد . اعرف به موقف العمدة مما يحدث ، كان وجهه في هذا الصباح . اخرس ، مسطحا لانطق ، قال لى : ان الظروف سعية . اعد فعل ما قدر عليه ، نحن عاجزون . مات والدى . حدة تركت المدرسة . ورحبت بالفراغ ولتسكع . ونزهات الليل . في حوارى السؤال . وقالت لنفسى ، ذات مساء ، فليكن ما يكون : دلاحاول الحصول على شيء ما من معجزة المهندس ، لقد استطاع حب الدين ان يتصل اليه . ان حب الدين اكبر منى . كنت اقول له من قبل : يا عمى حب الدين ، الحال تغيرت ، دائما يسبقنى حب الدين . مكتوب على ان اكون تابعه ، او بعده او مقلدا له في كل ما يقوم به . مجرد وجود حب الدين في السؤال ناز دالعه اوفيد . تكوى القلب والجنب والعين ، كل من المفروض على ان اكذب رايي فيما يحدث في التقرير الاسبوعى الذى ارفعه الى مكتب المركز . كل تاخيرة وفيها خيرة . دائما كنت احافظ على المواعيد . واخدم التعليمات ، عن خوف لا عن اقتناع ، غير انى : نهاية الامر لم احصل على شيء . وعندما وصلت الى منزلى ، ادركت ان الحال في اسولم امر من اى وقت مضى ، واننى لم ادرك هذا الا بعد حضور المهندس . في المساء ذهبت الى عشة تسليبية ، وضعت على الشفتين ايشامة باهجة .

— مساء الخير .. رجالة ..

— مين اسى فتحى ، يا ليلة بيضة ، اهلا وسهلا ..

كان المساء قد حل ، وطار طائر الشوق ، شق فضاء السماء لكاذب ، حاملا الحنين للابل والاحباب . جلست بين الرجال ، في يدى جريدة قديمة ، دائما قديمة ، حاولت ان اتصنع الاستماع

الى الراوي ، احسست بالارتباك ، كنت موهوا بهزيمتي ، اقول
 لعب الدين كلاما ، تنزلق عباراته من طرف اللسان ، دون ان
 تترك اثرا في النفس ، حب الدين يدرك معنى كلماتي ، كرهنا بعضنا
 لحد الموت ، وقتلنا لبعضنا البعض ذات مساء ، دونما عذاب
 الكلمات ، ان بضاعتنا واحدة ، واهل السوالم الطيبون ، اما
 ان يشتروا مني او منك انت . وقتلنا يرمها ، هذا السلام صحيح
 لم تكن لنا حيلة . قلت لنفسي : كل ما حولي يشير الى اسفل ،
 التي قيعان الاشياء ، لا امل ، اجلس ، انفرس في الوجوه ، تستقر
 نظراتي على وجنتي لسبيلة ، تستريح عيناي لجمالها ، في
 الصلور ، قلب هذيان ، شعور من فاته كل شيء ، من استيقظ
 ذات صباح فوجد ان الارياح قد تم توزيعها ، بالعدل او بالظلم ،
 المهم ان الذين وزعوها ، نسوه ، ولا امل في تصحيح الامور .
 اكتره المهندس لحد الموت ، ولكني ادرك ، انه اني ليوظف الاحلام
 المؤجلة منذ سنوات . قالت لي امي بعد الظهور : ان البيت في حاجة
 اني كيلتين حب ، فكرت طويلا ، قنت لها : حاضر ، كل الامور
 ما تصلح ان شاء الله . لست عدة الشغل ، الساعة .
 الجلباب المكي ، الحذاء الاعم ، الثراب الكاوشوك ، امسكت
 بالجريدة القديمة . قال الرجال ، احسن تستغل
 شغلته ، قلت : هي ايام التسكع ، ان زمن النزوج والترحال لم
 يحن بعد ، وقتت لسبيلة : يوم ان حضرت الى بلدنا ، وهي
 تغطر في الشارع الرئيسي ، فتوقف الرؤى والاحلام ورمشة
 البلب ، وتنفض الغبار عن العيون والصداء من القلوب ، قلت لها :
 يا ارض احرمي . ما عليكي ، فتوقفت ، استدارت ، نظرت الى ،
 انفرست نظراتي . لحمي ، ومضت في طريقها ، فكرت الخديعة
 والفشل والامال المؤجلة . وعندما حضر المهندس الى بلدنا ، قلت
 لنفسي ، وكانت ديوك النجر قد بدأت تؤذن ، خيرا ، ليكن امتحاني
 الاخير ، وبمدها مرحى يا زمي النزوج .

ابو السعود : لم يرسل المهندس في طلي ، يبدو انه لايعرف
 انه يوجد في السوالم شخص اسمه ابو السعود ، واسم ابيه
 ابو السعود ، واسم جده ابو السعود ، آباؤه واجدادهم سمووا
 العائلة باسم واحد ، قد يحتاجني المهندس ذات يوم ، يطلب مني
 ان ابغ الناس ما يريد ابلاغه لهم ، وعندئذ سادور في الحوار
 ساعة الغروب : يا عباد الله ، يا اهالي البلد ، ان تكون المناذرة عن

ماض ناهت في طريق العودة من الحقل ، او طفل صغير ، غسل
 الطريق الى بيته ، او عن موعد الترحيلة الى جنالكبير . سكوت
 المناذرة ، بكلام حلو ، كلام المهندس ، لا افهم لم يكونه انفسه
 المهندس ، لم يقف ضده ، لو صح كلام المهندس ، لاصبحت الحال
 غير الحال ، ولودعنا ايام الجوع والعري . الشيخ محمود يعقل
 على رزقي ، ولم يعد امامي سوى ان ادور في الحواري واتادي .
 ومن قبل ، في الزمان القديم ، قيل ان والدي ، كان يفسل الوتي
 ويكفهم ، ويقرأ القرآن في المساء وايام الخميس وذكرى الاربعتين
 ومن سفرى وانا امنى نفسي بالكثير . بعد وفاة والدي . لم
 اجد لنفسي ، سوى ان امر في الحواري . قلت : يوم ان يطليبي
 المهندس ، ساطلب منه اغلى ثمن ، ان التقود في يده ، مثل حيات
 الاور ، قيل لي : ان اسهل ما عنده ، ان يعطى تقودا ، لن انتازل
 عن مليم ، ان فاصلتي ، واعتقد انه لا يعرف الفصال ، ساقول
 له : بين البائع والمشتري ، يفتح الله ، ساتركه وامشي ولن اعود
 اتيه ، ولن اسكت عليه . في صباح اليوم ، ذهبت الى الخيام ،
 سلمت ورجعت وعرضت خدماتي ، وقتت : انا ابو السعود ،
 الذي يعرف كل ما خفي ، ضحكت امام الغريب ، انا ابو السعود
 ابو السعود ، ابو السعود ، ابو السعود ، ابو السعود . امسك مائة
 الف عين ومائة الف اذن ، لا شيء ، يحدث في السوالم الا وعرفته .
 احداكم ياقيوف بلدا ، ان كان هناك ما لا اعرفه ، وودت ان احسم
 في الشئبة محمود . اجلت ذلك الى ما بعد . اثناء وقوفي ، لمحتني
 ووداني اتحدث مع الغريب ، اسرع في سيره نحو دوار العمدة ،
 هذا لا يهم ، عند الغريب ساجد الحماية ولقمة العيش والراحة
 والستر ، على استعداد لافعل ما يطلبه الغريب ، فرح الغريب
 بعديتي ، قالوا : دمي خفيف وروحي لطيفه ، وتدموا في الايام
 التي مضت دون ان يعرفوني ، قلت لهم : خدامكم يا بهوات ، ذا
 احنا اهل . توقفت ، رحت انظر الى الجالسين امامي ، جلست
 على الارض ، تربعت ، رفعت يدي ، فانسحر كم جلبابي عذراعي
 المغطاء بالشعر ، برشت عيناي في الشمس ، رفعت كف يدي
 انبعتي ، صنعت منه شمسية ، تغطي عيني ، حتى استطع ان
 نظر الى الافندية الغريب . تفحصتهم واحدا واحدا .

- امال قين الباشمهندس عصمت ؟
- ذا مش موجود ، وجاي بالليل ..

— كذا ، طيب عن اذنك بقى بإجماعة ..

للام : سمعت ، ان المهندس ، محتاج انظار للعمل معه :
موعد اخرجيه قرب . بعد ايام قبله . يحضر المعلم من ابي الضمير .
ومندوب المحافظة من دمنهور ، الفصل ، الاتفاق ، قراءة الفاتحة
دفع العربون ، تحديد موعد السفر ، تناول طعام الغداء في
المنزلة ، ارسال من يشتري زجاجات البيرة من الضهرية ، لوح
الثلج الذى يقطر برودة وسط لحر ، الدخان الخارج من التوامد
والابواب . سمعت ان المهندس سيدفع اعلى اجر في الناحية ، المال
معه كثير ، تلك نقطة اتفقنا عليها جميعا رقم كل خلافاتنا القديمة
والجديدة . رايت المهندس من قبل ، غير اننا لم نسدل كلمه
واحدة . سال المهندس عنك ، يا معلم لأم ، قلت لمحدثي ، ذلك
من مصلحته هو ، وقلت لنفسي في غيظ : ان حدث واجر له مقال
غيري انظار ، لحرق الخيمة ، وقتلت المهندس في خبء اثليالى
وصمت الحقول . والنقود قادرة على عمل المعجزات ، كل ما يعجز
عنه القلب واللسان .. بعد لقائى الاول مع المهندس ، عرفت انه
من السهل الضحك عليه ، انه من عيال البشار . قالت لى امى
المريضة ، عندما شكوت لها سوء الحال : وحكىتها لها ما حدث
اخيرا للسوالم ، قالت : لماذا انظر الى الموضوع يخوف ، قد يكون
الموضوع خيرا ، ذكرتنى بما سبق ان فعلناه مع لاندى القادم من
المحافظة ، ومقال ابي المعلمين ، قلت لنفسي : ان المهندس فرصة
لزيد من الفنى ، وبعدها ساستري السوالم بمن فيها ، وابتنى
لنفسى قصرا عاليا ، اطل منه على السوالم . فى العمل ، قد تخطف عين
المهندس فتاة صغيرة ، يسأل عنها ، يتابعها ، يطلب منى ان تحضر
كل يوم ، وفى يوم ما ، لا احضرها ، فيسأل عنها المهندس ، لا ارد
عليه ، غير انى سافرا فى عينيها اللهفة ، واعرف كل شيء ، وذات
مساء ، ونحن عائدون من مكان العمل الى البلد ، يقترب منى
المهندس ، يمسك بى من ذراعى البمنى : « يا فتى لك ايه يا حضرة
المقال ، انت طبعاً ابن بلد وسيد من يفهم » . اعرف ههذه
اللمحة جيدا ، وسافرا كل ما قبلها انتظارا لحدثها ، الخجل فى
العيون ، الشفاء المشقة ، التردد على ملايح الوجوه ، ابتسامة له .
انكم . احنا اخوان بابيه ، يطلب منى ان يذهب استبد انى احبهم
الليل . وينقسم لى : مؤكدا القسم بيده ، وبرحمة اقل ما له فى
الحياة ، انها ستذهب للعمل فقط ، تزداد ابتسامتى انساما ،

وقع ، لغزت لسنارة ، ارفع يدي ، اوبت على كتفه ، بس كذا .
عالي والطلب رخيص . يا امير يا ابن الامرا . . الباقي على انا ،
سأضع المهندس فى جيب السدىرى الداخلى ، وتكون الليالى مبرقة
بالسرور ، الدخان ، الجوزة ، احلى البنت فى حجرى الداخلية ،
وفى الخارج ، دعوات امى . فى المرات السابقة ، كانوا مقالين
صفارا ، هذه المرة ، لا اصدق نفسى . وجود المهندس ، وعد
صادق بالامان ، وعد بان اخرجى الاسنة ، وان يبق كل عند
حده ، وان تموت ذكرى الصرف والبيعين الباطل وليالى المركز
والتحقيق وطرحه امى المراقبة والعمل فى الحقول الواسعة كل
يوم ، عند الآخرين ، وان تدفن الى الابد ، عبارة من اين لك كل
هذا ، والشبهات ، وكلام الناس . ومن يدرينى ، قد اصبح احد
مالكى الارضى ، وقد اتاسب عائلة الحاج منصور ابو الليل من
الضهرية ، او عائلة المنيسى من دميسنا ، او عائلة الدفراوى هنا
فى السوالم .

سلسلة على الله ، والله لو سمعنى زماى لاسكتك يا مصر ،
وازرع لى فيكى جنينة ووسط الجنينة قصر . انتم ضابكم ايه
يا اهل السوالم ، له ، قال لى حب الدين ، وهو يهزنى : ان رشا
فرجها اخيرا على اهل السوالم ، لم ارد عليه ، قلت لنفسي :
يبيق المهندس فى السوالم طويلا ، وجوده معناه . ان تروح انا
فى العنة كل ليلة . ان تروح امردى انا فى كبره حبيب فى
الجيوب ، وتوضع على النصفية ، دون ان يدري الرجال كيف حدث
هذا . ها هو فتى سالم بنفسه ، جالس ، رغم كل ما كان
يقوله لعلنا . كل ليله من الليالى ستحصل لنا وجوها جديدة .
قال لى حب الدين : ان عشتنا ستتحول الى كازينو ، سأكون
صاحبه . كلمات حب الدين توفقت للاحلام التى امانها الانتظار
والتردد « كازينو عمال شركة السوالم الكبرى » كرب الشاى
فريشان ، كركديه : قروش ونصف . المنتجات بكافة انواعها : ثلاثة
قروش ، يضاف الى الاسعار ١٠ ٪ خدمة ، ان يكون هناك شكك .
شكك ايه ، قال حب الدين ، دى القروش حان تقى اكثر من ايه .
تنى ادلب . السوارع سمسار . حى اصبح . واسلم من سم
قبل الثانية صباحا ، سينشغل كل بحاله . ان نظار احد الى الآخر
فى السوارع ، محلات ، منى فتاوة ، بقالة ، سينما ، مقاه .
مطاعم ، مكاتب ، توبيسات ، العمارات العالية . انزهة ساعة

العصاري . اشتهر في احدثه . وقد سعى ذات مساء بعضهم .
عصمت دون سواء . الرجال اصابعهم . هوس . كل هذا ثم يحدث
الا بعد حضور المهندس . يتحدثون . تملوا اصواتهم . تخفت .
يصمتون . يعودون الى المهندس . دائما المهندس . لم اره حتى
الآن . لا يهمني . عدم حضور المهندس الى العشة . اهالة لي .
قضيت . شتمته اكثر من مرة . قلت : انه لا بد وان به عاعة .
قد اكتشف ذلك . لم اهتم به . حاولت ان انخل صورته . وان
كنت لا اعرف اسمه . كل الناس لا يقول سوى المهندس . يقول
لي حب الدين . في لحظات الصفاء . انت بابت وشك خير على
السؤال كلها . لا اصدقك . سوف يكون اسمي المعلمة . معلمة
المعلمات . سلسبيلة . سكر . سوسو . عطيات . سلسبيلة على الله
مصر . شارع محمد علي . السوالم بحيرة . التراث القديم . كركرة
سيره في الشوارع . الاهتزاز الذي يصيب البيوت من مروره
البلطى . الشارع الصاعد الى القلعة . هات خمسينه طافيه .
الحارات الضيقة . البلاط المضلع القديم . الغصن تحب الفرس .
والنبي احنا ما كنا عايشين . يتحدث الرجل . اجلس خلف
التنصبة . في آخر الليل . سلسبيلة . انا . انا . بجك . حب
اندين يريد ان يضحك علي . ما يهمني هو المهندس . اجبته . انت
ادري لم . القلب فاض بما فيه . منذ سنوات . اريد ان ارى
المهندس . ان اسمه بنظرة احتقار وتشف . سلسبيلة تحت
القدمين . ساعديه . بعدك يا عصمت ان اعرف رجالا آخرين .
ومن السفر قادم . وما انتظره وما ابحت عنه . ان اجد هنا .
بل على ارض اخرى . بلاد بعيدة . مدينة لم توجد بعد . ويقول
لي حب الدين . في آخر الليل .

ورداني : بكرو الصبح . تسلم ارضك يا ورداني . بس باحضرة
العمدة . معلمش يا اشي : المهندس . النصف فدان . الحكومة .
التسليم . الهرم . الحوضه تنلوي في البيت . في الصباح .
احل المواشي . امشي بها في وسط حقول الناس فلا حمل لي .
والى لي جاري : ان يقاء المواشي في الزريبة يصيب اقدامها بامراض
كثيرة . امشي على الجسر الطويل . اتركها ترعى في الحلقاء الشائكة
اعود الى البيت . يقول الناس بعد مروري بمسجد ساعه اعصاري
الحكاية ماحتش على دماغ حد الا هو . في الليل . سلسبيلة الامرة
تركوني بمفردي امام المهندس . انتهى الامر . ما فائدة كل ما يقال

في المركز . دخلت المستشفى . رأيت وكشف على اكثر من طبيب
خلعت ملابس . ارتديت ملابس المستشفى . نمت على سرير
طري . وقال لي الاطباء . بالحرف الواحد : عندك ربو . حاله
قديمة . اعود . في الصدر شك الاير . انقادي الزعل والعراك .
دم خروجي من المستشفى . قال الدكتور في مرور الصباح :
خروج . دون نفس السكفة بالاحمر . على ذيل اوراق الصلاح
انطقت في سريري . لم اكن شفيته بعد . قالوا لي ان من يصالح
بهذا المرض . لا يشفي منه ابدا . بعد قليل . كنت افك خارج
سور المستشفى . سور حديدى مرتفع . في يدي بقعة فيها ملابس
منسخة وبقياء اكل . كان على ان اسلك اقرب الطرف الى السوالم .
سيرا على قدمي . لم يكن معي ما اركب به حتى السوالم . بكرو
الصبح تسلم الارض يا ورداني . حاضر . في يوم التسليم . قلت
انتي مريض . لم اقم من نومي . وحي انتي بابت . قالت زوجتي
ان ابني الصغير انطوى قلبه من العياط . لم ارد . قالت : ربنا
يبدعهم . هو ما فيش حد قديم . ان اسلم . الحكومة . المهندس .
العمدة .

عندما قبلوا باطن الارض . اخرجوا معاربتها . شعرت ان
هناك شيئا ما انتهك هويتها . اكتشف عليها القرب . قلت لزوجتي :
ان تعد كيلة حب كي تبقيها في السوق يوم الخميس . كانت الارض
جرحا ينزف في القلب . الغراء انني سانسلم في الاسبوع القادم .
ايجار النصف فدان لمدة سنة . طلبت من زوجتي ان تلم نساءها .
والا تذكر ذلك امام اي احد من اهل الحارة . ابو السعود . اني
لي بالاس . وقت الغروب . ومال على :

- اعمل حسابك في اثنين جنيه سلف من الفلوس . .
- فالولاده وزوجته يشون بدون ملابس
- فلوس ايه ؟
- اللي حات قبضهم من المهندس
- يسمع مني ومنك ربنا
- ايجار الارض . من المهندس . ربنا يوسع عليك . .

صحت فيه : ان اقبل مليعا . ساشكو للعمدة والمركز . وسأوسل
تلفرافا للرئيس . وقلت لنفسي : ان الخير قد يكون مع الشروع .
وقررت ان ابيع النصف فدان بانف جنيه . لتتكلم الناس .
ساخاض كل الناس . ان ارضي السلام على احد . سادبر وجهي

ان قابلت اى رجل ، ساءاخصم الجسر والعشة والجامع ودكان
المعلم يعقوب ودوار الصعدة . السؤال كلها . لا تعلم فيها العيش
ولم تحب ونهر عندهم العترة . اكلت . بيرة . لى . والمسحفة
اشريف . ان ارضى ان تبوح بسرها لاحد ، ولولا خوف من الاثمة ،
الذهبت اليها فى الليل . وهناك ، ساعرف الامر كله . .

السؤال - بحيرة ..

الخميس ٨ من اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

فى الصباح ، قمت من نومي ، غسلت وجهي ، جلعت ذقتي .
تناولت طعام الافطار ، واتناء شرب الشاي ، رحت افكر فيما
ساقوم به خلال اليوم ، وادركت ان ما على القيام به كثير . ارتديت
ملابسي ، امام الخيمة ، عرض على مساعدي ، بعض الخطوات التي
تحت . شرح لي احتمالات المستعمل . طرب الى الرستورانت
والخريطة والجداول والكتيبات . كان دعوى شاردا . لم اتفق
على ما قاله . طلبت منه ارجاء الامور حتى اعود من رحلتي .
ما يهمني ليس انبث ولتروى ، بقدر ما يهمني الناس ، وجودهم
حياتهم . ما يحفون به . ما يرجونه من الايام القادمة . كان على
ان اذهب الى شحنت الاتعام وتكلا العشب وايثاى اليلارد . ساقابل
كثيرا من الناس ، ساعدد معهم ما ستعمله . كان من المفروض ،
ان يقوم المساعدون ، بهذه الخطوات ، فضلت القيام بها بنفسى .
فى البداية ، كنت اريد ان اكون مشرنا على المشروع ، وامدنتى
الشركة بعدد من الموظفين ، ووزعت بيننا الاعمال . بعد حضورى
وجدت فى السؤال ما لم اسمع عنه من قبل . قررت القيام بكل
خطوات المشروع ، لغت نظرى ، ان الرجال ، يحكم تعودهم على
المسافات الواسعة ، فان المسافات لا تعنى عندهم شيئا . ان
اساط الارض والحياة عندهم ، وانفساح السماء فى وجودهم ،
اعدهم الاحساس بالحدوث . وتكون الايام متسلسلة . بالحدوث
والحوادث . جعل احساسهم بالزمن لا وجود له ، ما يحدث
اليوم ، هو ما حدث بالامس ، وهو الذى كان يحدث منذ سنوات .
وفى مستقبل الايام لن يحدث سواء . وعندما يسافر احدهم الى
التنادر القريبة ، ويعمل هناك ، وتحرى التيقود بين يديه ، فانه
يشترى ساعة بلفها حول معصمه . انه لا يشترى سوى الساعة ،
وهي رمز بالغ الاهمية ، انه دخل مرحلة بحسب قهسا الوقت
بالدقائق والساعات . ان التنادر مليئة بكل الاشياء ، غير انهم

جميعا لا يشتررون سوى الساعات . وذلك اتفاق غريب بين كل الناس .

تسال عن الضهيرة : الرجل الذي تساله يقف مكانه . يصعب يديه في جيوبه ، يضيق عينيه ، يحسب ، ويقول لك : دى قريبة خالص ، فركة كعب يمتى . الضهيرة : على بعد ستة كيلومترات بالتعام والكمال . أجمع ملاحظاتي عن السوالم : لا أدري له أجمعها ، أمام شكل الحياة أضغف ، أشعر اننى أمام شيء عغوى وعظيم . قال لى ابنى ، يوم ان تركت قريننا الثانية في أقصى الجنوب : سافر ففى الاسفار سبع فوائد . لم افهم معنى الكلمة . الآن ، وبعد سنوات ، أدركت ما تعنيه . ان حياة الناس في السوالم خصبة وغنية وملئية بالوعود الرائعة . لقد قررت ان يكون وقت فراغى كله لعمل دراسات عن المنطقة .

سيكون هذا اليوم ، دراسات ميدية ، عن المنطقة المحيطة بالسوالم ، لن ارجع الى كتب ، ولن أسمع من الناس ما يقولونه ، سأذهب بنفسى ، سأقابل من يعينهم الامر ، سأتعرف بهم . بالامس ، تأكد لى ، بما يشبه اليقين ، ان علاقتى بهذه البلدة ، لن تقتصر على البشر والبترول ، أدركت ان هناك علاقة ما ، صلة تربطنى بهذه الأرض ، وأنه تم بيننا اتصال بشكل او بآخر من قبل . سأبدأ عملى في الحفر يوم السبت القادم . ما يعنى اليوم ، ان أدرس جملة امور ، طريقة الوصول الى المنطقة ، وسائل المواصلات وتكاليفها ، الطرق الصالحة ، امكانية انشاء طرق جديدة ، أو ترميم الوجود منها ، التنوع من اعاشة ومواد خام ، حالة العمالة ، عدد العمال ، مستوى الاجور ، مدى استعداد العمال للعمل في الشروع ، مكان اقرب إنتاج زيتى أو غازى . كل الدراسات والرسومات ، التى تمت ، كانت دراسات جيولوجية معملية ، توصلت فيها الى نوع الحفريات ، سمك الطبقات الرسوبية ، مدى وجود مخزون خزانة وعمرها . كان التقرير يحتوي على البيانات الجيولوجية والاقتصادية التى امكن الحصول عليها . كان فيه تقييم للامكانيات البترولية في المنطقة ، وتوصيات عن مناطق أخرى تستحق دراسات تفصيلية . كان على ان اكمل مع زملائي الدراسات النظرية ، على ان تقوم بعمل اللازم لحفر البئر الاختبارية .

فكرت قبل ان انام ، ليلة الامس ، وقلت لنفسى : حياة الناس

تتحول . قال مساعدى : انه من المناسب ان اؤلف كتابا عن الناس . لم يبق أمامنا سوى جمع مادة الكتاب خلال عطلتنا اليومى . بعدما رايت الشباب الاحلام في العيون ليله ان كنا على الجسر . ادرك اننى قطعت منتصف الطريق . في الليل . بعد ان عدت من على الجسر . همست للحواري : من حق الناس ان يطمحوا ، فذلك هو الأمل الأخير لهم . وقبل ذلك ، أخذت حب الدين معى ، سرت في الحواري . دون جامع سيدى القريب ، شاهدت المدرسة الابتدائية : اجمعية النعناوية . مكتب البريد ، منزل شيخ : لذلك ، اخترت الواسع . المنار . وصلت الى أول الطريق الزراعى الآخر فوصلت الى قشت الانعام ، قال لى حب الدين : انه يخاف ان أسمع كلام الناس عنه .

- الناس هنا اسلها ، ما يتخلش حد في حالة

حب الدين رجل عذب . وكل رجل عذب في هذه البيئات يسميه مكروه . ولا يطمش اليه احد ، انه يشكل أمام عيونهم قرفا في وجه الطبيعة ، وعدوانا مستمرا على حرمة بيوتهم ولو غفرا . حب الدين : يوجد في السوالم عائلتان : في سوالم قبلى عائلة الدفراوى ، ومنها عائلة السوالم الآن ، وأمين اتحاد الاشتراكي ، وعائلة الخولى ، وهى من السوالم بحرى . منها العمدة في الزمان القديم ، وبعد ان مات ، لم تقم لهم حجة بعده . واكتفى المركز بان عين عمدة واحدا له نائب في السوالم بحرى . قال حب الدين : من أشهر العائلات في الناحية ، عائلة ابو حريش في حصر . والميسى في دميسنا ، هناك عائلات اخرى . دركت من حديثه ، فهمه للعائلة الكبيرة ، لا بد وان تكون كثيرة العدد ، لا يقل افرادها عن عائلة شخص ، ملك الاراضى شرط الناس . احسنا كور من العائلة قرع صغير ، رجل مثل به الحال ، من طرف هذا الفرع الصغير ، تناسب العائلة الكبيرة ، عائلات اعيرة منفصلة وطمح . لذلك ، قال لى حب الدين : ان السوالم ، من وبحرى . عائلة واحدة ، وذلك عن طريق النسب ، قصة حياة . هي قصة الخلافات بين العائلتين الكبيرتين ، والبلد مكون منسختين بلا زيادة ولا نقصان . لا توجد عائلة صغيرة ، او فرد شرطه علاقة مع عائلة الدفراوى او الخولى ، ولا يوجد موقف . قلب : ان حفر البئر يجب ان يتحول الى تجربة حياة لى الناس ، تعنى وجودهم . لا يجب ان يتصور احد ، ان

استبول هبط من السماء . أو أتى من عند الجن والعفاريت ، يجب ان يفركوا . انه نبع من حبات قلوبهم . من تحت جفونهم . سلمت على الرجال . دخلت بيوتهم . شربت الشاي الأسود على المصاطب الصغيرة معهم ، استمعت اليهم . يقولون حكايات ، كذبت تنسجها النساء تبلغ حد الروعة . في أثناء سيرى في الحواري ، مع حب الدين ، وكان ظلام المساء . يمشي نور النهار ، الرجال يجلسون أمام ابواب بيوتهم . يتكلمون . سلمت على شيخ لخفر ، ذهبت الى ارض ورداني بعد استلامها ، عابقتها آثار ورداني في كل مكان ، اشجار صغيرة زرعها ، تكمية غيب ، ساقية ، حديد بعدها من الجهات الأربع . مربط المواشي ، كوم السباح على رأس الحقل . كان على ان اطلب المتادى . ان الاثني ان يمر في حواري البلد . ويطلب من الناس الحضور يوم السبت . في التاسعة صباحا . حيث سيتم افتتاح المشروع بشكل رسمي . في حفل سيحضره كل الناس . قالوا لي ان المتادى اسمه ابو السعود ، وانه رجل فكه ، في اخمصين من عمره ، كان يعمل لحادا من قبل ثم احترف المتاداة . لابد من لقاء آخر بيني وبين الناس ، ما اريد هو ان اقرب منهم اكثر ، اشعر بهم ويشعرون بي . يوم لقاء الجسر ، جلسوا حولي ، صمتوا ، استمعوا الي ، هزوا رؤوسهم ، لم يتكلم احد منهم ، كان الصمت جرحا شوه طعم اللقاء في الانواء اغلب الرجال في هذه الايام من كل عام لا يعملون في الضحى ، وتكون الشمس قد وضحت للعيون ، يجلسون على الجسر ، بعضهم ينام على الافريز الصغير ، بجانب سور ، يغمض عينه ويعلم ، وباقي الرجال ينظرون ناحية السماء الصافية ، يحركون اباديهم ، يطردون بها الازباب من فوق الوجوه ، وليدو عيونهم المبلة بالنعاس ، كانوا لم يصحروا بعد من ومن الليلة السابقة ، او أنهم يستعدون لتوم الليلة القادمة . انهم يتشابهون ، يفتحون اقوامهم على آخرها ، قنبوا استائمهم الصدئة المتآكلة . يرفعون اباديهم في الهواء ، يعدون اقدامهم حتى آخرها ، أنهم يستشفون رائحة مثل الايام الفارغة . اجلس الآن في خيمة صغيرة ، يجلس امامي مساعدي في الخيمة الاخرى ، السائقون والفنيون وباقي العمال ، انهم جميعا متذمرون من الحياة هنا ، يقولون سوء الحظ رمى بهم هنا ، ويحسرون على كل ما في البلاد الاخرى ، القاهرة الاسكندرية ، حيث النساء الجميلات ، السيارات ، الاثوار ،

علامات الطريق ، الشوارع المغسولة بفلان الليل ، الاحمر والاخضر ، ممنوع انتظار السيارات ، مدرسة ، ممنوع استعمال آلات التنبيه الاعلانات ، المشاق في الشوارع المظلمة ، لم احاول ان اتفهم . في لحظة الفسق من كل يوم ، يكتبون رسائل صغيرة ، يرسلونها الى الاهل ولاحياب ، مقررين يوم اللقاء ، ضارين له موعدا ، الموعد سيتحول الى شيء مؤجل ، وسيفعل مؤجلا الى غير ما حله مشروعي يسير حتى الآن بشكل حسن . في ليلة الامس حلت بالدخان الأزرق في السماء ، المصايح العالية ، الناس السعداء ، ثرات خيرا في جريدة معلقة في القضاء عر تسريع جيوش العالم وبحول الحدود بين الدول الى خفوف وهمية لا وجود لها الا على الخرائط وكان الذهب يداعب العمل والاسد يجلس وسط الرجال وكانت الشوارع نظيفة لم يكن في الانويس حاصل . صندوق صغير يضع فيه اركاب الاجرة ، الجرائد والمجلات على الارصفة اناس جميعا اماء ، يقف الرجل . يأخذ ما يريد . يخرج منه ويضعه على الارض ، ثم ار اقسام بوليس ، ولا محاكم ، ولا قضاء ولا حاكم ولا محكوم ولا مسجون ، لم يكن هناك مسئول او محروم أو ياك ، كل ما يطلبه الانسان في تناول يده ، نظرات الرجال حائلة وادعة . لم تبق أية مشاكل ، لا احد في السوام ينتظر محبي ، انبياء الجديد ، وعلى المحيطان عبارات عن مصر المستقبل ، السعادة ، الاخوة ، المساواة . لا احد يملك ، الفنى ، الزهد .

في الصباح ، لم احك ماشاهدته لاحد ، اعتبرت ان ما رايته سرى الخاص ، في هداة الليل ، اكتب على ضوء مصباح . السوالم كلها تمام ، مكان واحد يبعث منه نورا شدة سلبية ، انها آخر ومضة نور تنطفئ في ليل السوالم ، بعد انطفاء نور العشة ، ادرك ان كل شيء ، نام اخيرا . الرجال يعدون ان بيوتهم بعد شهر كل ليلة . اشعر ، وارجوكم الا تضحكوا مني ، اننى قد تزوجت السوالم ، قبلى وبحرى ، واننى قلت لها ذات مساء احبك ، كنت صادقا ، كان القلب ظاهرا والطريق مجديا ومكن النساء مساعدا . الشرف بعيد . بعيد . وقالت لي السوالم . وشعرها بفعل جسدي الذي سدو بيانه من خلف الفلام . انا ايضا احبك . نول الى انشعب ليس شيا في العالم الاخر . حيث حبات عدن ، الانوار والملائكة . النعيم يجب ان يكون على الارض . وان لم يكن موجودا فمعمنا ان نوجده . نخلفه . في السوالم . في الارض

والبيوت : في قيعان نفوس الناس السطاء ، يكمن الجواب على الحيرة والتساؤلات والإنهزامات اليومية ومن يعتمد على هذا البلد : ولقد قام برحلة خرافية ، بلا نقطة ابتداء وبلا أمل في الوصول الى مكان ما .

قابلت رئيس مجلس القرية في شئت الانعام . سلم على ، وحب بي ، جلست معه طويلا ، حدثني عن مشاعب منصبه ، شربت القهوة ، ان السوالم تتبع مجلس قرية شئت الانعام ، عرضت عليه افكارى ومشروعى ، حاول ان يعترض ، لم يرجع الى رؤسائه في مجلس المدينة ، قلت له اننى قمت بعمل اللازم قبل حضورى وعدنى بأنه سيكون معى . قال لى ان عدم الفهم هو أس اليلابا في هذه البلاد ، الرجال لا يفهمون حقيقة ما يحدث للبلد . التعامل مع الناس شديد الصعوبة . قال الرجل وهو نغف : اى محاولة للاصلاح لا قيمة لها ما لم يتعلم هؤلاء الناس القراءة والكتابة أولا . كرر : القراءة والكتابة قبل كل شيء . اكمل : الايام القادمة ستحمل للبلاد الخير . قال انه يمشى لابنه الذى يتعلم في مصر . ان يكون مثلى . قمت معه : شاهدت الوحدة الجمعية ، زرت المدرسة والمجموعة الصحية والمركز الاجتماعى . ذهبت الى مركز ايتاى البارود ، في المركز قابلت اكثر من مسئول : قال لى الشاوشى وأنا خارج من باب المركز : ان الحال امان . ابناء الليل اختفوا ، الرجال في هذا الزمان نادرون ، طلب الى ان نطمئن لكل الناس . لقمة العيش قهرتهم . الناس لا تريد الا ان يعيش في سلام . قابلت مفتش صحة المركز ، طلبت منه ان يتعاون معى ، ابدى استعداداه . في طريق عودتى بالسيارة . على الطريق الزراعى : كانت سحب الغبار ترتفع وشور حول السيارات وكنت افكر في كل الذين قابلتهم ، أدركت حقيقة هامة . قرأنا في حبياة السوالم ، وتأكدت لى بعد هذه المقابلات الحياة معمرة . القيم والتقاليد رسخت ، وفهم الناس من الصعب احدث تغيير فيه . مجرد تجاوب الناس معى معجزة . القدم اكسب اكثر الاشياء دمامة وقبجا والفة جعلتها تبدو رائعة في العيون . الناس جميعا . مفروزون في طين الارض حتى رقابهم ، ويمرونهم المبنة في الارض دور في رعية : في كل ناحية . الاختيار صعب . في صعوبة الارت نفسه . الحياة يسكنها الواحد ، والوجود بشيانه : بشر في نفس الفزع . نظرت الى الطريق والحقول والناس : أدركت ان ما يحول

يلعنى بعد اكتشافا ، قلت ان تدوين كتاب عن الحياة هنا امر بالغ الأهمية .

منذ يومين . قال لى حب الدين . وهو يودعنى . عند باب الخيمة ، وكنت استعد للنوم : ان الفلاحين يقلبون الارض في هذه الايام ، تمهيدا لزراعتها بعد ايام الجفاف وأن قلب الارض مهناء ان يحلم الناس بالليل . قال لى : اننى قد أحلم . ولما فاته من المستحسن ان ابقى في الخيمة ، مصباحا مضاء اناء النوم . قال حب الدين : اهل البلد يحلمون الآن أحلاما سسسية . فشكرته . استدار حب الدين . اشار بيده اليمنى الى البلد كلها :

— أهم كلم ييحلوموا

قلت له :

— تصبح على خير

وقلت لنفسى : كلنا نحلم في نهاية الامر

معها يجيش وجدانه بأشياء غريبة ، وهما في العشة . أثناء جمع
أشيائهما ، البراد والأكواب ، الراديو ، الجوزة ، الطليقة .
الورق . يدلق مياه باردة على النار المشتعلة ، يلم الحصر .
يتحاسب حب الدين مع سلسبيلة ، يحسبان ما عليهما ، ما لهما .
يدونان الشكك في الدفتر ، تعطيه أبقود التي معها ، تطلب منه
أن يذهب في الصباح إلى أبنائ البارد لشراء المونة ، تعدد له ما
تحتاجه ، وفي آخر حديثها : تطلب منه بحروف لينه مطبولة .
أن يشتري لها أشياء خاصة بها ، أشياء لا تباع في الأسواق .
ولا تسمع عنها النساء .. أحسن شفاها ، بودرة ، قمصان نوم
نايلون ، سوتيان ، وتوصيه ، وتحلفه برحمة من ماتوا ، أن
يشتري لها هذه الطلبات بعناية ، وأن يختارها بدوقه ، وهي
تثق به .

حب الدين يسير في حوارى البلد ، سلسبيلة تحمل على رأسها
قفصا صغيرا ، وضعت به العدة ، وفي سرهما ، في حوارى البلد :
أنيق الكلاب ، في الباحات وعلى رؤوس الحارات ، يسألها الخفر .
من هناك ؟ يمران عليهم ، يرد : أنا حب الدين . الخفر جالسون .
بنادقهم بجوارهم مستردة على الحائط ، أنهم يتحدثون ويدحنون .
في الليلة الأولى ، أصطدم ثدياها النساقرين بعظام صدره .
سقطت عليه ، احتوى ليونة صدرها ودقته بين ساعديه ، حاولت
الإشياء أقربيه من عينيه إلى بياض في لوب الحلب . يمر كعه
بعداني الشعر النلبيلة . يمسك يدها بين يديه ، يسرا في الحجرة
- تتجوؤني بأحب ..

شيء ما ، يبدد بخار الرغبة في بافوخه ، يقيق ، يحس يديها
قريبا منه ، يتوقف ، تتزلق الكلمات من طرف اللسان . تنام
ومشها على العيون الواسعة .
- يبنى وبينك لا ، إنما قدام الناس دا لازم يحصل .

تحس ملامح وجهه المبهدة بأصابع يدها الناعمة ، يقف ،
تمشي أمامه ، وحينما تمشي ، فإنه يدرك ، أن قدمها تدب على
رموش العين ، وتدوس في حبات القلب فتدعسهما به . دها . ولا
يوجد فيها سوى بقايا أفراح عجوز صئدة .

- تتجوؤني باواد بأحب ..

تسكره الكلمات ، تقترب منه ، يزداد ارتفاع الستف ،

آخر الليل ، في عشة سلسبيلة

ينصرف أرجل . تنسحب من مهب لأحرج منه سلسبيده
تصيحون على حيز . تردون بقولون كعب مغلقة . يديون بها
سهرهم . يذهب كل رجل إلى منزله . يسواء يتحاسب معنى
حديثا سلسبيلة لرجل . انهم في السماء العالية . يدو مشطورا .
عشقه مغلط . يرسل صباه على نادر والرجل . وفي انوارى
الواسعة ، يبدو أن الأضواء الشاحبة التي يلقها القمر هي التي
بعلا خيال الناس بحكايات عن العذراء والجن . وفي الباحات ،
أشجار عجوزة ، ترقد ظلالتها تحت أقدامها في سكون . وفي
الليالي ، لا يبقى للساثرين في الظلام . سوى التشميريرة ملء
التجسد والقلب والعقل . صلوات الاستغفار والاستعاذة على طرف
اللسان ، أن السكون انزماذي الوحش يصيب الرجال بخوف
لا يبعث إلى قلوبهم بالبرودة والاكتماش . خوف من نوع آخر حار
مكتب ، مرتبط بحكايات سمعوها رهم صفار في ليالي الشتاء
الطويلة ، عن المغاربت وأبناء الحان ، وقد يحلو الرجل أن يذهب
إلى حقله ، وعندما يمر على آخر بيوت البلد ، تبدو له أشعة
القمر الغضبية ، تساج على السهول الواسعة ، وتمتد المسافات
ويبتعد خط الأفق ، وفي البيوت النائمة ، التي اختلطت ببعضها ،
نتاحت معالمها ، وتحولت البلدة كلها إلى كتلة من السكون الوحش
ديكبير في قفصه . خدعه ضوء القمر ، ونسمة هواء باردة ،
ناطلق يصبح ، معلنا ميلاد يوم جديد ، ناشرا الاضطراب والحركة
والعصيان بين باقي دكة البلد الأخرى . آخر الليل في عشة
سلسبيلة ، معناه أن ينصرف آخر زبون ، أن يقول الرجال كل
ما عندهم ، أن يلعبوا الورق ، ويدخنوا ويشربوا الشاي ، ثم
يرين عليهم صمت شفيف ، ولا يبقى أمامهم سوى أن ينصرف كل
لحاله .

حب الدين وسلسبيلة بمفردهما ، سيقى هذا اللحظة الصامتة
المشحونة سرا خاصا بهما . ينصرف الرجال ، ويجد نفسه بمفرده

يتنعم الجدران ، ويشعر حب الدين بإحساس ساخن يحتويه بداخله .

— ا .. ت .. ج .. و .. ز .. ك

قالت له سلسيلة وهما يسيران في حواري البلد :

— دا حرام ، احنا آخر ناس نروح

لم يرد عليها . جال بخافه احساس بأن الله قد تاب عليهما ، ثم مررب يعمل دلهار مثل كل الناس . وقد يستطيع مواحهه بعسه . منذ سنوات خرج من السوالم شاب سفير خجول . يهيم بعيدا عن الناس ، سافر الى دمنهور . كان يطلب العلم . الرجال وأنساء الذين شاهدوا التساقب في الصباح البعيد . ما رأوا يذكرن . أن اوصفة الجسر . كانت ميتلة . وأن احتمال مجيء سيارات كان ضعيفا . بسبب اشتاء . في الاجازات . كان الصبي الصغير . يعود الى بلده . يصانح الرجال . يقبله الصبية . يجلس على الجسر طويلا . يقرأ ويفكر ونادرا ما كان يتكلم . بعد عامين عاد من دمنهور . عاشق في السوالم . كانت الحياة بالنسبة له . لوعا من الانتظار المستمر . المعجزة قد تحدث . في الصباح ينتظر لحظة العصاري . ووقت الفسق يتمشي بمفرده على الجسر . يجلس على افرزه في الليل . يدور في حواري البلد . ويقف امام ذكأن المعلم يعقوب . ثم يعود الى منزله . الليل بالنسبة له رحلة طويلة . بقطة حارقة . يتقلب . يدور حول نفسه . يتقذه من رحلته مسياح ديك في منزلهم . فيسردك انه عائد من رحلته : القوافل ضماى . وينبوع الماء في السماء التاسعة . الاهالي تدرک انه فشل في تعليمه . قالوا عنه . ذات مساء . انه مثل التي وقعت على السلم ، بخته مائل ، من ظله آية الناس . انه مهمل ولا يعمل . الفقراء اكادوا ان والده سترك له ارثا . وفي هذا السكافة ..

شاهدنا لأول مرة في ايتاي البارود ، اقترب منها ، اصطدمت نظراته برموش العين السوداء . ونسجت اشقاء كلمات عذبة غير مسمومة . سكر ، آه لو استطعنا ان نمسك النجوم بأيدينا المشوهة الاصابع ، او نمنع بها من حبات العيون والقلوب أكثر الموقود حلاوة ، او تفصل بدموع القلب كل الاحزان . سلسيلة لا أشع نظارة على العينين ، ولا اردى بدلة انيقة ، كما يفصل

اهل البندو ، غير اني استطيع احيانا . ان اومن الكلمات . ملساء ناعمة ، ويكون في الاعماق عندئذ شيء هادر . في عنف حركه الاشجار المجوزة في الحقول وقت هبوب الرياح .

فتحت سلسيلة الباب ، دخلت ، اشعلت المصباح الصغير . وضعت « القوالح » في المنفذ ، دقت عليها الجاز ، اشعلت النار . راحت ترتب المنزل : خلعت شئنيها . احترت البخور . وضعت في النار . عبق البيت برائحة محببة الى نفس حب الدين . تذكره بآخر الليل . أمسكت بليل جليهاها ، رفعته ، خلعتة . أصبحت امامه بقميص النوم . ترك جسمه ينهار في الارض . حلب في احد اركان الحجر مستندا الى الحائط . اغضى عييه سفع الغماضة . وفي الخارج ، الف الف عين تحديق في منزله ، جفت بها المضاجع ، تركت نومها : لدى سماعها صوت بابيه وهو يبع . ألف الف اذن تسمع أقل حركة . حتى عيون السواني . وأوراق الاشجار . ونصف القمر المشطور ، خيمة الضوء النصف تقطى اسلند . تعرف حكايته ، تحسده على سلسيلته . تذهب الى دوائر العمدة ، تنجي به ، تقول ما تشاء قوله ، ترسل الى المركز الشكاوى ، تجلس بجوار الشيخ محمود بعد صلاة العشاء . تطلب منه ان يقوم المعوج ، ويرشد الضال .

— واد ياحب ، مالك الليلة ؟

جالت بخافه رغبة ، كان يريد ان يسمع اسمها كاملا . سلسيلة على الله ، سلسيلة على الله . تذكر الماء والظما . والقوافل العثى . وكراثة اهل البلد . ونظرات حبا يكون آخر امل له في الحياة .

— واد ياحب ، أنا سلسيلة ..

اطل عليه عصمت فعمى النجعاوى ، اصدق آمال العمرة الامان وابعول والخير : ذات مساء . قال له المعلم يعقوب : ما من احد يضمن الدنيا : يجب ان تتفدى بها قبل ان تعثى بك . قال له : في الارض قدود تربطه بالبلد . الدنيا مليئة بالاشياء الجميلة . اقائه بالمعلم يعقوب هو السبب : لا يذكر متى تم ذلك . يذكر انه قال له : ان بيع الارض من استهل الامور . وقال له المعلم يعقوب ، وهو يأخذ منه الارض قطعة . قطعة . احب كنزك . بارك لاعتبك : اذا ضربك احد على خدك الايمن قدر له الايسر . وفي حجرته الصغيرة : شرب لأول مرة : وكان ما سمعه منه

يومها . ما دُعيتم أهدافنا شريفة . فإن كل ما نقوم به مشروع . ولا أحد من جهة أن يتدخل في شئوننا . قال له : إن الصريين لم يأخذوا من الأرض سوى الشقاء . أكد له المعلم يعقوب : أنه حبه نحد أجس . وأنه أرحل أهل النواصم . حب الدين سمع كلاما جديدا . فقلت في تعليمي يا معلم ، وطعم الفشل أمر من أعين . أنتسمانه بنوى الغيب وأنسفيل معش . رد عنه أعمد يعقوب : المعلماء دائما يقشون في البداية ، وأنه لا يجب عليه أن يهضم يمثل هذه الأمور .

عندما وقف حب الدين يوم السوق . على الجسر . يبيع أول قطعة من أرضه للعمدة يعقوب . لم قل له أحد في بيتي أرض أسوان كمن المر والخلص ومعنى الحياء . أسهب سمع الأرض ، وفي كل مرة . كان يوقع عقد بيع ابتدائي . كان يذكر والده . ويتذكر أن الناس قالت عنه ، أنه ظالم ، وإن هذه الأرض لم تكن بلا مناصب . وبفسى الطريقة . قال الأرض ضيع . وفي كل مرة . كانت صورة أبيه في ذهنه تزدد تباددا ، وبحيط بعلامها صيات جديد . أخوته الذين هاجروا إلى البنادر . برسبون له الرسائل . خطابات تحمل اختاما سوداء ، الأرض التي يبيع فيها . ليست ملكا لك وحده . أوقف كل ما قمت به ، أي إجراء باطل . ستفانك . أحترم ذكرى والدك . ليس من حقد ولا من حقنا أن نتصرف في شبر واحد من الأرض .

إن سلسيله تقف نصف عارية . أمام حب الدين . يسانس الجسد يبدو شديد الوضوح من تحت القميص الشفاف . وعلى اكتف . كتل الشعر الليلية . وفي العيون وسن الدند . سلسله تمد يدها إلى . وفي يدها الأخرى طبلة مقفلة .

— واحده ونص يا حب .

ترفص ، تحيي جمهورا لإيراد سواها ، تستعيد لياي مضت وإن تعود ، وتحدث أناسا تراهم في جو القرفة . تفتي كلمات من النسب ورمز السفر والترحال يقول وقد أسكرها اللل .

رأيا في أهل البلد .

ذات مساء . استدعى العمدة حب الدين إلى دواره ، طلب منه أن يطرد الخائشة التي أحضرها من البنادر . الناس عائله واحدة أهل . ووجود هذه المرأة خطر . الرجل اكتف وجهه والالسنه " ترحم . أنه يحدثه الآن بالحسن . كذب . أخبره أنه تزوجها

على سنة الله ورسوله ، عقد القران في طنطا ، في مسجد السيد أحمد البدوي ، وهو راض عنها ، أخرج العمدة من جيبه عريضة كبيرة . عليها آلاف التوقيعات . لذا نحن نفوض الأمر لك ، في هذه القضية التي ابتلانا الله بها ، فانت وى الأمر فينا . إن مجرد وجود هذه الفاسقة في بلدنا ، دلالة غضب الله علينا ، وأقبلوا التحية . قال للعمدة يومها . سلسيله هي آخر ما يملكه . الرسمال الباقي ، وإن من ينظر إليها ، سيفتح بطنه بمطوأة حادة . لقد أدرك أن البيت لم يكن يمنحه الأمان ، كان يذكره بأنه ضال . وعلى أجنحة الليل ، كانت تسبح المخاوف والأحزان ، وعندهما يموت الخليل ، يرسو الذبول والأحلام المحطية والأمانى المديوحة . تبقى معلقة في عينيهِ وقلبه حياة لن يحياها أبدا .

تستدير عطيات ، تبدو ثنية القفل واضعة ، تسير بنجح ودلال . بشم راحتها . وتذكر النهر الحارق في لياليه الأولى معها . سكر ، عطيات ، جسده يشوع الحزن ومتاهة الشوق وأخدود أرغبات المحبومة . انت يا سلسيله الأمل . تقبل عليه . يملن الجسد عن شكله وتفجره ، من خلال الملابس الشفافة .

حب الدين يأخذ الطبلة من سلسيله ، وسلسيله تقف أمامه ، وقد لغت حول وسطها لاسنه البيضاء ، كي ترقص له وحده . أنها تخفى في صحارة ملابسها بدلة رقص قديمة ، لفنها بناية . داخل جريدة ، أُنست بأنها لن تلبسها إلا في ليلة الدخلة ، يوم أن تتحقق الأحلام ، ليلة أن يتزوجها حب الدين ، يحيا للدرجة أجنون . أنها من ما في دنياها . وبعد الحصول على الوثيقة الجديدة ، سيتزوج فوراً . والا فمرحى يا ليالى الفرسجان المسحورين ، حيث الشفر والترحال . صدقته . قالت أنها تحبه . لم تكن صادقة في كلامها ، كان القلب مالا يذكرى عصمت وحارة باب الوداع والشباب المتحرق حب الدين يضع الطبلة بجواره . يمد قدميه ، ويندلق على مهل ، حزن السنن القديمة . سلسيله تمتلئ الآن في الحجرة ، ورائحة احتراق البخور ترحم أنفه ، ورموش حب الدين تنام على عينيهِ . وفي أغمائه تنتشر أخاديد المرارة . في الليلة الثالثة . اقتربت منه ، سكر ، وجدغابة الجوزة بين شفتيه .

— شد ، شد ياواد يا حب .

شد كما قالت له ، وأستمر ، وطلعت النار في الحجرة ، فتح

فمه من آخره ، وخرجت كتلة من الدخان الأزرق الغامق ، احس
ببخار دافئ يصعد الى يافوخه ، وثبتت بين اصابع قدميه حبات
عرق دائنة ووهنت دقات القلب ، لم يعد يشعر بها ، وفقد
السيطرة على اطراف جسمه . الغاية تتدس بين الشفتين مرة
اخرى ، اطبقت الشفتان على اغاية بصيصية ، خرج الدخان من
فتحتي منخاريه ، صعد البخار الساخن ، انفكت عقدة اللسان من
زائمت النظرات ، واحس ان جسمه ينصهر ويعود الى اصوله
الاولى ، شعر برغبة في الضحك ، فاستلقى على ظهره وضحك ،
اهتز الجسم كله من شدة الضحك . قامت سلسيلة ، وقفت ،
بذت له في نومه ، مساحاة هائلة من اللحم الابيض ، بدى له
صدوها العريش ، يسد الحجرة ، سارت ، تحركت في الحجرة .
وقال لنفسه : يوجد هنا كنز الكنوز ، وبين طيات اللحم يكمن
السر ، الدنيا لم تخلق الا للراحة والنوم والاسترخاء . العمل
جنون وعبودية ، وقرر بينه وبين نفسه الا يقوم من هنا ابدا ،
وان يظل هكذا ، حتى آخر ايام العمر ، حتى آخر ايام العمر .
- تعالى جنبي ياسكر ..

ان ترد عليه ، ان تقشرب منه . السكر والرقص والتوهان
وتداخل الاشياء ، شواطئ امان لن يصلا اليها الآن . انها تريد
ان ترقص ، ان تطير ، ان تدور في الحجرة ، تدوس على الارض ،
وتحمل السماء فوق الرأس ، وبعد ان تحبب التناس ، وتسمع
كلمات لاعجاب ، تنال اليه ، تمنحه كل ما يطلبه . شعرت سلسيلة
بالاهانة ونظرت اليه بدهشة ، كانت تريد ان تسمع غشاه ، كلماته
الموشاة بالوجد ، المبللة بالوصال . وتنام في آخر الليل على وسادة
الصوت النحون . حب الدين بشير اليها ، يطلب منها ان تجلس
بجواره ، ان تنام ، ان ينفوس رأسه المثلث في لحم فخذها الابيض ،
ان تنام بدها البضة على جبهته الساخنة ، ويسمع منها حكايات
آخر الليل .
- يا سلسيلة ..

سلسيلة كما هي ، وهو لا يجد في نهاية الامر سوى نفسه ،
انه يبردها بكل قطرة من دمه ، بكل نفخة هواء ساخنة في اعماقه
شعر بضعف يسرى في نفسه . ويوم ان عرض عليها ان تعيش
معه في البلد ، قبلت ، منحته كل ما قضى العمر يبحث عنه ، وقال
لها : انت احلى من على الارض ، الله لم يخلق الجمال الا ليكون

احدى صفاتك ، ردت عليه : وانت اعظم وجل قابلته في حياتي .
- مالك ياحب

رشف بلسانه طعم الوفاء ، وشم رائحتها . الكلاب تنبح في
الخارج نباحا متصلا . احتضنها .

- الكلاب ماسكة الليلة ، لازم فيه حاجة حا تحصل

انهم ان الكلاب ترى ما لاتراه نحن وان الله قد اختار لها ذلك
لايها لا تستطيع ان تبوح بالسر . قالت له سلسيلة انها معه
دوما حدث

- سلسيلة .

- حب .

كان يود ان يسأله ، هل ملت معاشرته ، هل سيعود ذات يوم
ليجدها قد ذهبت (وقد يحدث هذا) . كان يدرك ان نصف كلامها
كذب ، ولكنه كان يفتح نفسه انها الصادق لنفسه . وهو معها
كان يحس بخوف ، كان يود ان يدخل بداخلها ، حتى يحتضن
بها . وكانت كفاهها تدور ان ظهره ، تمسح عنه الاكاذيب
والخوف والقهر ، كفاهها لا تغطيان ظهره كله ، هناك مساحة عارية ،
معرضة للضرب والطعنات وشك الابر وقرص الاصابع . كانا احبانا
يخرق في عرقه ، وكان يحاول ان يستمد ، وهي اسفله ، ينظر الى
الامر ، فيجد ان تحته فراغا عميقا ، وكان يخاف السقوط . فكل
شيء ، حتى حبات العرق على الجسد العاري تشير الى اسفل .
وقال ان عدم وجود الرغبة في شيء ما ، هي خير وسيلة لامتلاكه .
وان الخوف من الفقر ، هو تسليم اكيد باننا نفقد العمر في معارك
صغيرة ، سمع ما يقوله الودع ، وقرأ بخته ، وقال لنفسه :
- ليرحمنا الله ، فليس لنا الآن سواء .

حب الدين يقف ، يفتح عينيه عن آخرهما ، يخلع بقايا ملابسه ،
وتجدها مع سلسيلة الى الحجرة الداخلية ، واضمأ يده على
ظهرها ، وهي تنظر اليه ، واصابعها البيضاء الصغيرة ، تجوس
خلال شعر صدره الغزير .

- الا ابوكي كان اسمه ايه ياب .

لا ترد عليه ، تجلس ، تيسم له ، تبدو البسمة كوميديتها
لم يعشها بعد . وسكر بعيدة ثانية ، ولبطلق سهامه وينطلق ،
بني تبعد عنه وهو يجري ويجري .

في الايام الاخيرة ، كان يلتصق بها ، وعندما يكتشف جزءا من

جسمه بعيدا عنها . كان يفرح . ويعترب من احضانها أكثر يسمح
بأسائه يدها وصلرها ، ويمرغ عينيها في جسمها . لم يكن يدرك
أن الحب العنيف معناه أن العلاقة تمشي نوعا من التحول الى
شكل آخر . كان يخاف من الكذب والفهر . انه يطلب نوعا جديدا
من المياه يفسل به الحياة من حوله . قالوا له ، هذا النوع من
المياه ، غير موجود . وقد يطلع من باطن الارض ، أو يهبط من
السماء فجأة دون موعد .

كانت ايامه معفرة الجبين ، مشروخة .

على الطريق ، تقاطع الشرق ، علامات القدم الحلو ترشده . وفي
الخارج ، كل البلد تعرف ما يحدث ، أوراق الشجر ، مياه
الترعة ، منافير الجنادب ، عيون الحيوانات النائمة في الحظائر ،
فوهات بنادق الخفراء المستوددة على الخواطر يأكلها الصدا . يتذكر
وعد الزواج ، ويطلب منها بفم غير فمه ، أن تتمرى . كما ولدتك
أمك بالتنام . تقوم ، تخلع قميصها ، تفك شعرها الاسود . حب
الدين يقترب من سلسبيله ، وفي سيرة البطيء اليها ، فان ظله
يستقبل خلفه ، راسما على أرض الحجرة خطا متمرجا كطريق
الشبان .

ومهما فعل ، فانه لا يضاجع في نهاية الامر ، سوى نفسه .

قال المهندس : أما بخصوص الاخ للوم ، نظرا لخبراته السابقة
حاستعين به في مشروعتنا ، رئيس شؤون العاملين ، بصفة مؤقتة ،
بهنا أساسا السكافات بصرف النظر عن أي اعتبارات ، صرف
مهندس من الانفار ، انه لن يتعاون معه أحد الا عن طريق للوم .
الأيام بلا عمل . لا يوجد في البلد نفر واحد غير مدان للوم ، ولا
يستطيع العمل الا عن طريقه .

في كل مساء ، يجلس للوم ، على المصطبة ، امام منزله ، يحصى
في ذهنه الانفار الذين يتعامل معهم . يعرفهم فردا فردا ، يحصى
من يتعامل معهم من اصحاب الاعمال والاراضي ، للوم نادرا ما
يدون أسماء في أوراق معه ، عقله دفتر . ما رآه للوم في حياته
علمه الكثير ، وأهم ما تعلمه ألا ينسى أبدا .

في البداية . كان عمله صغيرا ، تقرا أو تفرين ، يؤجرهم اصحاب
الاراضي ، الذين لا يعملون بأيديهم في حقولهم . سماه الناس ،
الخولي للوم . بالليل ، يمر على الانفار « الرجل بعشرة قروش ،
والصبي بستة ، والقبض آخر الاسبوع » . أهالي السوالم يتذكرون
منظره أياما : كان شابا خجولا ، لا بدخ ، في يده خيزرانة ،
صع يده اليمنى في فتحة جلبابه الزفير ، يسير في الحواري ،
مع أمام ابواب البيوت ، يقول : يا سائر : يخرج طفل صغير ،
سنة عن ابيه . يخرج من الداخل صاحب البيت : يقول : اسم
صاحب الحقل الذي سيعمل فيه . وميعاد العمل . يثب منه
ياخذ معه طعام الغداء بدلا من الرجوع الى البلد وقت القيلولة .
أحيانا يطلب منه الانفار ، جزءا من الأجرة ، فيعطيه ما يطلبونه ،
الماء أمام مسجد سيدي الغرب في الصباح ، البركة في الكور .
قبل أن تشرق الشمس ، يلتقي للوم مع الانفار ، يتجهون الى مكان
لعمل . في الحقل يستبدلون ملابسهم بملابس الشغل ، يلغون
الأكل باللائس ، ويضعونها فوق أفرع الاشجار ، ينتشرون في
الحقول الواسعة ، يقف للوم وراءهم ، يلاحظ عملهم ، وفي آخر
النهار يعودون الى البلد

وصدقه في العمل : أهم من أي عزيمة . ينتهي القضاء ، يسمع عالي السوانم من الرجال العائدين إلى بلادهم ، كلاما عن الموم ، يقرأونه وهم راكبون فوق ركائبهم ، أن ما يبيع الموم هو دفته : تحافظته على كلامه ، رجل سابق لأوانه ، والرجال في هذا الزمان قليلون . صيت الموم يطر إلى البلاد الأخرى ، والسكل في السوانم ، راقب ما يحدث بعيون ميتة . ذات صباح ، يشاهد المارون ، أمام منزل الموم ، عمال يبايع ، سلالم ، جبر أبيض على الأرض ، نبات يعلان المياه من الثرعة ، أكثر من رجل في خلاه بيته ، أنه جيد ترميم الأجزاء المتهدمة في بيته ، ويطلب باقي البيت ، تميدها لبناء بيت آخر ، عندما يفرجها الله . قال له : من يحبه ومن يكرهه ألف مبروك « سألوه : لم لم يتزوج ؟ قال لهم : « لسه بدرى » لم يزل صغيرا . وتمنى الرجال ، وهم في الطريق إلى حقولهم ، أن ذلك الصباح البعيد ، أن يجدوا أبناءهم الضعفاء في مثل نجاح الموم : استنات الصفيرات ، الجميلات على وجه الخصوص ، منت كتر من بنت نفسها ، بأن تكون من نصيب الموم . عندئذ ، تذكرت كتر من فتاة ، أن الموم سبق أن داعبها من قبل ، أو أبدى إعجابه بها ، في الحقول الواسعة ، في وقت القبالة ، هذا كله ، كان في الأيام الخوالي . تغيرت الحال الآن .

مشاريع الموم تعددت ، وحسب له أبو السعود كل شيء ، وقال منه الرجال أن مكسبه في اليوم الواحد لا يقل عن خمسة جنيهات خيرية : النقود سرعت الولد ، فأصبح كل وجوده من أجل الحصول على مزيد من النقود ، يصل إلى السوالم ، مندوب من جنالكيس ، مجموعة من الأفندية ، يركبون سياره مكتوب عليها « محافظة البحيرة » . يسأل القادمون عن الموم ، يتركون السيارة في أرض أوقف ، يسرون على أقدامهم ، أول مرة ، تحضر فيها سيارة حكومية ، لا تسأل عن العمدة أو شيخ البلد ، يذهب من فيها إلى الموم .

في منزل الموم ، السلام والتحيات والتعارف ، كما يفعل كبار الموظفين في البنادر ، والطريق من الحجرة الضيقة ، المفروشة القفلام ، حتى المندرة البيضاء ، المؤدانة بالرسومات الرائعة ، حيث يجلس الموم ، خيوط من نظرات الرجال المحيطين بمنزل الموم الموم في سماعته : ينسى أنه عمل في حقول الناس بأربعة قروش في اليوم ، أيام بطولها . قضاهم حتى الظهر ، الخطوط بلا نهاية ،

الناس ما زالت تذكر نجاح الموم السريع ، بلغت نظرهم ، ملايسه النظيفة ، الساعة التي يلقها حول معصمه ، الجزمه أم استك ، الثراب الأحمر ، أنطاقيه الصوف التي اشتراها من المحلة الكبرى ، الصديري الشاهي المعبر ، تهديده الدائم لكل من يخلف معه ، كلامه بالغ الميأس ، يد الموم ضاقت منها الشقوق ، فالزم والعنى له علامات يدنها الناس . النساء تقول ، تعليقاً على غنى الموم السريع : كل شيء قسمه ونصيب ، وأنه لا أحد يعرف كيف تسير أمور الحياة .

قال ورداتي : الموم لم يرث من والده شبر أرض ، كل ماكانت تملكه العائلة ، مساحة منزلهم الصغير ، ومتر في متر مبني فيها القبر الذي دفن فيه أبوه . مات أبوه ، وهو يتعنى أن يفتح الله عليهم ، بقطعة أرض ، فالذي يعيش في السوالم ، دون أن يملك أرضاً ، يعيش ويموت ، وهو مقطوع الجذور ، محروم من شيء يحصل عليه الآخرون . الزمان لم يجدد عليهم بما يطلبونه ، وقالت أمه : لنا الله .

الحال تسير بملوم ، وعندما يسأله أحد ، يقول أن الامور ماشيه والحمد لله ، الآن مثل المتصرف ، وأنه يعيش على الكفاف ، ويقول أنه راضى بعمله ، ويكل ما تأتي به الأيام والليالي ، حسده الناس ، أن المزارعين في البلدان الأخرى يسمعون عن الموم ، في مواسم العمل ، تقاوة الدودة ، أو زراعة أنطن ، جنى الحصول ، تغليب البطاطس ، يهل على السوالم ، رجال عليهم القيمة ، يركبون الركائب المظلمة ، أنهم من بلاد أخرى . على الجسر ، يسألون عن منزل الموم ، يقوم أبو السعود ، لا يتركهم ، يذهب بهم إلى منزل الموم ، على المصطبة ، يجلس معهم الموم ، الناس تلاحظ أن جسمه قد امتلأ قليلاً ، أنها أيام الخير . برحب بالرجال ، يسألهم عن الصحة والحال ، يمتني لهم محصولاً وافراً ، يقول لهم : أن خيرهم خير ، يعقد معهم الصفقات ، يبدأ الفصائل . تعلم الأصوات ، تخفت ، يقرأون الفتاحية . يرفض الموم أن يكتب معهم أي أوراق . يقول لهم : أن الإنسان يربط من لسانه . كلام الرجال أهم من أي ورق مكتوب . يشربون الشاي ، يرص لهم أبو السعود المفضل ، يدور عليهم بالجزءة . يحضر لهم المياه الباردة في القتل المظلمة من الخارج ، يقومون ، يعزم عليهم بالشاء والمبيت عنده ، يتكلمون بأن وراهم أعمالاً كثيرة بسبب الحصاد . يقولون له : أن مقالته

يستعد خلع الأفق كلما قنوب منه . والشمس الحارة . مجلد طاهر
يسيطر لأذعة . سنوات عمره الأولى . الخراج في الجسد والغيب .
الأمنيات المستحيلة لتحقيق . رائحة التخميد في بيوت الفلاحين .
تملا خباياهم في ليالي الحرمان . شكل النفود الذي لم يكن يدركه
جيدا . قلب اجلياب أربع مرات ، قال للموم لامة . ليلة الأسس :
أن أهل السوالم كذب كلاب : نظر من نافذة حجرته ، وكان الوقت
مساء . نادى أشجعهم أن يخرج إليه . وسقطعه الف قطعة .
قال لامة : أنه كثيرا ما كان يسخر من حب الدين . عندما يتكلم
على إفريز الجسر . ناظرا إلى كل شيء في صمت . قال لامة : أنها
لا يد وأن تنعم بحبائها ، لا يد وأن ينتقم من أيام الجوع والعري .
كثيرا ما يكت أمه . قالت أنها لا تصدق عينيها ، ما تراه أمامها .
كثير . كثرة النفود تخيف مثل قتلها . قالت له . ذات ليلة
شتوية : النفود هي كل شيء ، الإنسان يستطيع أن يشتري بها
أليسة على الشفاه . والدعما في المآقي ، رجفة الحب في حبات
النفود . النفود . ثم النفود .
— هود يعجب الرجل الإحبيبه في الزمان ده .

قام للموم : احضرن أمه . قبل يدها ، قال لها : آمين . وقال
أنفسه . ن كل شيء ممكن في هذه الأيام .
قال ورداني : ذا الواد لقي لقيه .

قالت سلسيله : راجل ولا كل الرجال
قال حب الدين : ازمن ذا زمن السكالب ، زمن السرفة والفسر
والخداع .
قال العمدة : لازم اعرف ذا حصل أراي : الفلوس دي جت
متين ؟

قال أبو السعود : اسمعوني ، كلكم مجاتي : الحكاية أنا الوحيد
الذي أعرفها . سأحكى لكم الحكاية من أولها ، أصلها وفصلها ،
الناس أسرار : والفضيحة مكروهة من جميع الناس : ما حدث مع
هذا الولد : جعل القلب يفيض ، السكوت حرام . يقول أبو السعود
كان من عادة أمه ، بعد وفاة أبيه ، أن تذهب إلى منزل الصراف
في الحديقة : تكتس وتفصل وتمسح أرض المنزل ، تروى الزرع
في الحديقة : تلعب الأطفال الصغار ، تشتري الخضار والفاكهة
من السوق والجرائد اليومية من كفر عوانه ، هاتي معه يا أم للموم :
حاضر . أغلى . حاضر . أطبخي ، حاضر ، اكوي ، حاضر :

قشري البامية ، حاضر ، خوطي الملوخية ، حاضر ، نشي الطير ،
حاضر ، أقفلي الشبايك ، حاضر ، مسوي السرير ، حاضر ،
هوي أوضة الجلوس ، حاضر ، امسحي الخشب ، حاضر ، اروي
الزرع . حاضر . حاضر . حاضر .

الرجال يتحدثون ، الموضوع حكاية للموم . الفنى والفقر من أهم
الأمور في حياتهم ، وحدوثها أمر لا يمكن أن يمر بسهولة على عبون
وأذان الناس . وتجرح أصواتهم رداء الليسل ، ويتنفسون مع
الكلمات رائحة الأيام الفارغة ، وجفاف الأراضي في الحقول
لا يد وأن يحضر النبي الذي تحدث عنه سيدنا الغرب في كتابه
الذي لم يعثر عليه أحد . يبدأ أبو السعود حكايته في الغلام .
والرجال لا يملكون سوى الأنصت . يقول أبو السعود ، وقد
لمحت عيناه ببريق أبيض : كانت تذهب في الصباح ، وفي المساء
تجر قدميها على الطريق الخشنة ، فتتصور أنها ربطت بمسامير ،
تحاول أن ترفعها ، فلا تقدر ، أنها متعبة ، امرأة هدها العمل :
تريد بكل ما فيها من أمعاء ، أن تنام في أي مكان ، لا يد وأن
تعود إلى السوالم . أحسنا كان الصراف يطلب منها أن تبني
عنده ، في تكلا العنب ، بدلا من الذهاب والعودة كل يوم
— للموم لوحده بابيه ، ذا عيل وينيم .
كانت تعود .

معهما بقايا أكل ، ملابس قديمة ، لقم مكسرة ، ذات مساء
قبل أن تعود ، وجدت خزانة : صراف مفتوحة . أوراق النفود
الخضراء والحمراء تملا الأرفف ، المفاتيح بجوار الخزينة ، رائحة
السود تعبق أنفها ، رائحة تعرفها جيدا . وقفت مكانها ، شعرت
بتمثيل في أطراف أصابعها ، سمعت دقات قلبها : أحسنت بدقات
العنب ، على جدار صفرها الداخلي . مدت يدها ، لمحت أصابعها ،
استدارت ، كان الهدوء والصمت والسكون والجدران وأسواف
وباب الخزينة المفتوح ، يعجب بها أن تفعل ، تمد يدها ، بدلا من
هذا الموقف البليد .
— يارب .

رفعت عينيها نحو السماء ، عبرت ذهنها ألف فكرة ، رفعت
يدها ، أمسكت رأسها المشتت ، تذكرت كلمات عن الإمامة والمعبية
والسرفة ، وسما الله العالمة ، والحساب ، رأت بعينيها مئذنة
سيدى الغرب ، تلمن الفراغ مشيرة نحو السماء المنسولة

بالحنين والرحمة ، أوشكت أن تراجع ، تفلق الباب وتمضي ،
انصراف يقول عنها انها آمنة . . الأمانة من أهم الفضائل في بني
الأناس جميعا ، يذكر المنزل الصغير ، ذهاب للوم ، حبة العين ،
إلى حقول الناس ، العودة في المساء ، اللابس المرقمة ، مساحت
المحم التي يبدو من تحت الخرق ، أنوم بلا عشاء ، الأكل والشرب
بحسب . السلح الإجرد الذي لا يغطيه عود حطب . الفرن الذي
لم تغدح فيه النار منذ ستة أشهر ، قبر زوجها الذي لم تذهب
إليه منذ أن دفن فيه ، لعدم وجود ما تذهب به . في لحظة خاطفة
مدت يدها ، أخذت ما استطاعت أن تأخذه ، لفته في ملابسها ،
خرجت ، أصابتها وعشة ، سألها زوجة الصراف عما أصابها ،
جسمها مازال يرتعش ، وعيناها تدوران ببطء ، قالت انها متعبة .
في المساء ، عادت إلى البلد . وفي اليوم التالي ، أتى من فتن دار
أم للوم ، بعد التفتيش ، أخذوا أم للوم وللوم معهم إلى المركز .
احتجزا هناك . وبعد أسبوع ، عادا إلى البلد .

أظهر التحقيق ، انه من المحتمل ، أن تكون أم للوم أدخلت
التقود ، كل الشواهد تشير إلى ذلك ، عدم وجود أدلة ، وعدم
العثور على شيء عند تفتيش المنزل ، أقوال الشهود لا تعد شاهدة
إثبات أو نفي ، ما قاله الشهود ، نوع من التخمين . أدخلت أم
للوم . يقول أبو السعود للرجال - التقود كلها لله وحده سبحانه
وتعالى ، يعلم كم مقدارها ، من حقنا أن نتصور ، ماذا سيكون في
خزينة الصراف ، وقت الحصاد ، وتكلا العنب ليست بلدا صفيرا
أم للوم ، يوم أن حضرت من تكلا العنب ، لأخر مرة ، وهي معها
التقود ، كانت تسير ببطء ، تقدم قدما وتؤخر أخرى ، تستغفر ،
تطلب الرحمة من قفسار الذنوب ، تذكره بما آلت إليه الحال .
جلست بمفردها في منزلها ، وبعد أن نام الجميع في السوالم ،
وانطلقت نجوم الليل ، وهبت نسيمات الهواء الليلية ، ذهبت أم
للوم ، ومعها ابنتها ، إلى المعلم يعقوب في منزله ، كانت قد أرسلت
للوم سرا إليه ، قال له : أن أمي تطالبك في أمر هام . وعندما
أبدى استعداداه ، قال له : أن أمه ستحضر بعد انتصاف الليل .
على باب منزل المعلم يعقوب ، تقرت أم للوم ثلاث تقرات ، ففتح
الباب ببطء ودونما صوت ، دخلت بجانبها ، مرقنة بسرعة ، وعلى
ضوء شمع خافية ، في الحجرة الداخلية ، ثم الاتفاق ، أنهما مالا
تقول ، ماذا تفعل ، ومطلب منها أن تنفذ كل شيء بدقة .

يقول أبو السعود : الصراف دخل السجن ، كان البالغ كبيرا ،
زوجته قررت الرجل إلى بلدها عند أهلها ، وقبل السفر ، كان
يها مطلب واحد ، حضرت إلى السوالم ، زهرة وذبلت ، ولكن
رائحتها ما زالت بها ، أنها لا تطلب سوى يمين الله من أم للوم ،
بعد المنازعات والأخذ والعطاء والخوف من اليمين ، وسؤال الشيخ
محمود ، قامت أم للوم ، استسحتت ، وضمت ابنتها تحت يمينها ،
ثم حلفت اليمين في الباحة الواسعة ، أمام دوار العمدة .

الرجال بمصمضون بشفاهم ، أبو السعود يقول لهم : انها بعد
أن حلفت اليمين ، ذهبت إلى منزلها ، دخلته ، ولم تخرج منه
بعد ذلك أبدا ، نزلت عليها النقطة ، وأنها الآن لا تستطيع الحراك .
أسأل والمنزل الجديد وجاء ، كل ذلك لا قيمة له أمام المرض الذي
اقمدها في الحجرة الداخلية ، يشير أبو السعود إلى السماء ، التي
لا يبدو منها ، في هذا الوقت سوى النجوم « الله موجود » .

الرجال في حيرة ، وسيظل ثراء للوم أمرا محيرا ، الرجال يقولون
أنه الحظ والشظارة ، البعض الآخر يقول انها تقود الصراف ،
وبعض الثالث يؤكد انها لقية ، تقود من الذهب كانت مدفونة
تحت منزلهم القديم ، وجدها بالصدفة . يتفق الرجال على أمر
واحد ، المعلم يعقوب هو الذي دبر الأمر كله ، يده هي التي صنعت
كل ما حدث . المعلم يعقوب لا يفعل هذا من أجل سواد عيون أم
للوم ، ولا من أجل للوم ، ولكل شيء ثمنه .

يقول فتحي سالم ، تعليقاً على ما حدث : أبدا ، الكتاب الذي
كتبه سيدنا الفريب عن السوالم ، في الصفحة الأخيرة منه ، أن
الأيام القادمة هي زمن العجائب ، سيحدث فيها للسوالم ،
عجائب سبع ، وبعدها تقوم القيامة . العجيبة الأولى ، ثراء للوم
المفاجيء ، والعجيبة الثانية ، عشة سلسيلة وجب الدين .
- للفنندي الباشمهندس ، العجيبة الثالثة . .

يشير إلى خيام المهندس التابعة في أرض الوقف ، والرجال
الجالسون حوله يحسبون في عقولهم عدد العجائب ، ويصبح
أحدهم : باقى أربع عجائب أخرى ، كى تقوم القيامة .

للوم يجلس أمام داره ، على دكة من الخشب ، واضعا ساقا
فوق ساقي ، وقد قرر أن يتعاون مع المهندس . وعده المهندس
بالكثير ، مرتب ، منصب ، مكتب ، سيارة ، مستقبل هريش .
قال للوم للذين أرسلهم له العمدة ، كى يمنعه من التعاون مع

المهندس ، أنه حر فيما يراه ، هددهم باخبار المهندس ، مصلحة البلد تفرض عليه أن يتعاون مع المهندس ، وأنه ان امتنع سيتم اي مرد اخر يدنك . وان يتعمل المشروع . في الايام الاخيرة ، اصر للوم على أن يناديه الكل ، بسيادة المدير العام ، دون ذلك نفي أوراقه ، وعلى باب منزله . وأرجأ كل مشروعات عمال التراحيل التي كان يستعد للقيام بها ، وراح يقضي أيامه البطيئة المروء في انتظار المشروع الجديد . قال : أنه لا أحد يعرف أين يكون الخير . ان عيوننا لا ترى ، ولذلك فمن الصعب معرفة النافع من الضار .

يتصور الرجال هنا . ان سلسبيله هي اسعد خلق امة . شخص واحد ، في السوالم كلها . يعرف ان سلسبيله كثيرا ما سكن في التليل . تقول له : انها ليس وراءها ما يجيده . لم يكن هناك رجل يجري وراءها . يسأل عنها . يطلب رقبته . يدور في بلاد امة الواسعة ، يمسك سكيت يريها بها . بين المزدعاب والجراح . تقول لحب الدين . وهي بكى : ليس هناك ما يسعدني اليوم . وانها تنتظر مشروع المهندس ولولاه لركت السوالم . وانها لا تطلب منه سوى ان يترك البلد معها . فهو خسارة ، الدنيا واسعة . يدها على كتفه . ستضعه تحت رمش العين . وفي بلاد امة الواسعة سيدان الكثير . قالت له : انه لم يجرب ان يكون وحيدا ، لا اهل ولا اصحاب له . قامت انها لم تشاهد اولادها منذ سنوات . تختم حديثها بالبكاء . نحر العيون ، وبدو لحدود متورمة ، وفي الصباح . تغسل يدي العجوز دعوى ليلة الامس . وتحاول ان تفتي .

ولدت في حارة قديمة ، متفرعة من شارع محمد علي ، بجوار باب الخلق ، اسمها في شهادة الميلاد ، عطيات . والدتها شال . مول عن نفسه : ضابط ايقاع ، اما انها التي لم يرها ابدا ، فكانت تعمل راقصة .

احبها ابن الجيران . كانت صغيرة . ايام البراءة المفقودة ، في كل مكان ، في الحارة ، على الناصية ، امام دكان ايقالة ، عند بائع الفول ، داخل محل الكشري ، كانت هناك عيشان في خضرة النورسيم ، تحديقان فيها . تبعان لها الوعد والامان ، عينا بنوع حزن ، متاهة . قرأت فيها اشياء رائعة ، الزواج ، الراحة ، الاستقرار . كان صبيافا ، اقرب الى الطفولة منه الى الرجولة . قالت لنفسها ، وهي تبسم له : ضل راجل ولا ضل حيطه . كانت تعيش بمفردها مع ابيها . كرهت الحياء . والحجرة الصغيرة والسلطوح والنمسي التي ترهقها كل يوم . لم يرها احب ابها .

ثليثة ، وعلى الأرض حصيرة يجلس عليها والدها ، ومعه الزوج
الكهل الذي يتابعها كثيرا من قبل .
- سلمى على عمك علوانى يا سكر .

- بسر لو ما كنتش تكبرنى يا أبو سكر ، معيا ايه .
بعد الزوج لها يده ، تسبقه بسمه خربة . يسلم عليها ، يحتوى
كفها البضة بين يديه . يجلسون ، اللبالي . بعد ذلك ، هى لبالي
الرجل القريب . الزوج يتغنى بسجده . ووالدها يشعر أن طاقه
القدر فتحت له ، وأن الدنيا استجابت لدعائه أخيرا .
- يا سكر واقفى بقى .

أحست بالهوان ، قالت أن ذلك لا يمكن أن يحدث ، تذكرت
النسب أصغر ، عيشه ، شبابه ، مستقبله . وذات مساء ، وهى
في طريق عودتها إلى المنزل ، شمت رائحة اللحم ولسمن المحروق
علا الحارة . فقررت أن توافق . لا تدور الآن سببا واحدا لذلك
عادت بسرعة ، صعدت درجات السلم المائلة ، أمسكت بالدرابزين
الخشبى عندما أوشكت أن تقع ، كان والدها ينام في السرير على
ظهره . السرير منخفض من المنتصف ، ولم يكن يبدو أى شيء
منه . عندها تحذقان في سقف الحجرة . اقتررب منه ، جلس
بجواره على السرير ، راحت تنظر إليه ، أدركت ، إلى أى حد
سالت الحال .

- خلاص يا بابا امرلك ، اتجوز عمى علوانى .

علم عصمت بالخبر ، جرى خلفها ، وضع في يدها ، في غفلة من
ألمون ، ورقة زرقاء مفروسة في دموع العين . ثم يكتم . لم ير
وجهه « أهلى لم يوافقوا ، ما زلت تلميذا في المدرسة » عندما
كلمت والدته : « أسمع إلى بابى كلامي : وأمر في قرب الفقير .
والإمام صمعه . ساهبه وحدى كثيرا في حوارى الحلمية الجديدة .
لنسى أماننا سوى أسنسله ، ساهوك حتى تجف الدموع في العين »

تزوجت ، في ليلة الفرح ، كانت البيرة تسد عين البحر ، الأكل
الشرف ، الرقص حتى الصباح ، الرؤوس الدائخة ، يقدم لها .
والدها حجر الجوزة ، به المصل فقط .
- أمضى باسث الملعقات .

تضع ما في يدها في منتصف الحجر ، وهى مغمضة العينين ،
خحك الرجال .

- ابن النول عوام .

في المساء ، حملت صورة والدها ، وقفت بها فوق أهلى مكان
في سطح المنزل ، صورة قديمة ، تكسر زجاجها ، لا يبدو منها
سوى شارب كث ، يتف عليه الصقر . يقول لها والدها : أن
هذا الشارب ، من أيام الريف ، أيام الصلاة ، الصناد ، ذابت في
شارع محمد على أشياء كثيرة . تحول ابن ستبه إلى رجل برقص
بالطبله كاللصان ، وتتلوى زوجته أمام عيشه طوال الليل بين
الرجال . قال لابنته أن أمر ما في الدنيا هو لقمة العيش . قال :
وكان لسانه ثقيلًا من شدة السكر : لماذا لا يخلق الناس بلا
بطون ، وهل من الضروري أن نأكل ونشرب ونلبيس ؟ لم كل هذا ؟
حملت سكر صورة والدها ، أشارت إلى وجه أبيها ، أن كان
يربدها ، فعليه الحضور إلى منزلها ، لا تعرف اللف والدوران ،
عليه أن يكلم والدها ، ومن ناحيتها هى متوافق . كان خشب
الصورة القديمة ، يضغف على خطمى تديهما التافرتين . أحست
بأن شيئا ما ، قد ثبت بداخلها ، اكتشفت أن مساحة صدرها
عريضة ، وأن الأمور قد تغيرت ، فرح عصمت ، أشار إلى سماء
الله العالية ، وقال أن نجوم الليل شهود على ذلك .

تقول سلسيله لحب الدين ، وهى حزينة : كان هناك رجل
نهل يتابعها ، لم تكن تعرف عمله ، كان في الجسد وعشة ، وفي
القلب خدر ، وفي الصدر وحشة . لم تجد من تخبره ، سألت
الجارات عن عمل الرجل الكهل ، ابشمن ولم ترد واحدة منهن
عليها بما يفيدها ، فأدركت أن في الأمر سرا ما . وعندما كان
يسير وراءها ، كان يلك لها أن تسرع في سيرها . الرجل يجرى
خلفها ، وصوت تنفسه يصل إلى أذنها شديد الوضوح ، أحيانا
كان الرجل لا يستطيع السير ، فيجلس على أقرب مقهى ، ينتظرها
حتى تعود .

سلسيله بنت جميلة ، قالوا لها : أنها يوم مولدها ، كانت
طفلة رائحة ، اختلف أبويها ، أمها على اسمها ، كاد الأمر يصل إلى
الصلاخ ، تدخل أهل الشير ، اقترحوا اقتراحا ، أن يدون في
شهادة الميلاد ، اسم غير الاسمين ، ثم تنادى بالاسمين معا .
قال والدها : أنه سيسمها باسم أمه في البلد ، ورفضت الأم مرة
أخرى . وأصبحت لها ثلاثة أسماء ، تعيش مع والدها ، فوق سطح
أحدى العمارات القديمة . سلسيله تعود ذات مساء ، لتجد
حجرتها الصغيرة مربعة ، السرير السفري فرشيت عليه ملاة

— ولعى ياست سوسو .

تمثال الروس ، وترقص الأجساد ، وتدور الغابة بين الأفواه ،
تتمد الأصابع دون وعي ، تمسك آخر الغابة ، تدسها بين الشفتين
— كانت ليلة ولا كل الليالي .

تقول سكر : إن عنما علواني ، اتفق كثيرا في هذه الليلة ، وإن
الذين كانوا حولها ، منوها بالمراث ، واستعجلوا موته . قضت معه
ليالي مترعة بالأسى ، سبحت معه في بحار العرق ، لا تذكر سوى
النهاية ، تحملته ، منحتة كل ما يمكنها منه ، أنجبت منه بطنين ،
ولدا وينثا . البنت في حلاوة أنشده ، لا تعرف أين هي ، أطلقت
من علواني ، في حياة سلسيله أشياء كثيرة ، لا تحب أن تذكرها ،
وعندما نحكي قصة حبنا لحب الدين ، فانها سر عليها سريعا ،
يثوقف حب الدين أمامها ، ويعاود السؤال عنها . تقول له : أنها
لا يعجبها هذا التدقيق في أمور عادية . تكمل ، ما أهمية السؤال
والجواب ما دام الأمر قد مضى ؟ يرد عليها ، بصوت هامس : ما
فائدة السؤال والجواب ، ما دام الموت هو نهاية كل النهايات .

الطلاق ، شارع محمد علي مرة أخرى ، الليل ، الحجرة
الصغيرة فوق السطوح ، ذكرى ليالي علواني ، لهفة الجسد ،
والحين أي سدر رجل حقيقى ، تذوق مرارة خيبة الإمل كل ليلة
الحواري ، الشوارع ، الحارس المتعب المكثود ، النوم يرف في
أعمقون كظائر جيب يود أن ينطلق ، نساء شارع محمد علي .
الأصباغ والألوان والبسمات المترنحة على الشمسفاه والخدود
والحواجب . السكرى ، محاولة تصيد كلماتهم المتناثرة مع هبات
الرياح آخر الليل . ظنرات الرجال . والدها لا يحضر إلى الحجرة
كثيرا . وقال لها زملاؤه أنه يعيش مع رافعة في شارع كوت بك .
لم تهتم بالأمر . قالت لهم : أنه لابد وأن يعود إلى هذه الحجرة
قالت : أنها لا تحب هذه الحجرة ، وأنها لا تقدر على البعد عنها .
وإن أمرها غريب ، فهي المكان الوحيد ، الذي يدوم لهم في
النهاية . سكر لا تذكر كيف كانت تقضي الأيام والليالي . تجلس
وسط الحجرات المتناثرة ، فوق السطوح طوال النهار ، تنحسر
جسدها ، فتشعر سخونة وفوران ينبعث من الداخل ، تن
في شيء ، ما لا تعرفه ، تحدث نفسها . شكك سوء الحال لأحدى
أجارات . قالت لها الجارة ، إن الحال عندها أسوأ . ووعدها
بعض ما يمكن عمله من أجلها .

ذات مساء ، طرق باب حجرتها شاب صغير خجول ، مربك .
لا ينطق الكلمات كاملة الإحرف . أحسب أنه ما زالت به رائحة
الطفولة ، لم يكن قد خلق ذقنه بعد ، ذكرها برائحة ابنها الذي
لا تعرف مكانه . قالت لنفسها : الشاب غريب ، أمه ليست هنا
حتى تفصل عنه غبار الأيام ، بعد انتصاف الليل ، وضع بحوار
سريرها كل ما كان معه ، النقود والأوراق والعواطف والأحزان .
تذهب إلى الاسكندرية ، تنفى ، ترقص ، تشهد نجوم الليل على
أهدم والأحلام ، تبحث عينها عن عصمت ، تنحس الورقة
الزرقاء التي تحمل رائحته ، والتي ما زالت تحملها معها . تقول
لنفسها ، في ليل الاسكندرية : أنها في أيام شبابه الأولى ، أحبها
شاب صغير ، لا تذكر حتى اسمه .
— اسمه أيه يا سكر ، اسمه أيه يا سكر .

رفضت الخروج معه ، قال لها : أنه سيقتل نفسه ، ضحكك
عليه ، وذهبت إلى منزلها . ضرب نفسه بالنار ، أنهى الأمر بيده
، سكر ، أنت قضائي وقدرى . كانت الورقة ملوثة بالدماء ، ملقاة
جوار حشته .

عاشت سلسيله في الاسكندرية ، تقول لحب الدين : كان أمام
منزلها مسجد صغير ، الأذان هو كل ما يربطها بالناس ، يذكرها
بحرور الأيام والليالي . يوما يبدأ في منتصف الليل . وشتى في
الثانية بعد الظهر . الحياة كالحلم الثقيل ، والنوم كالغشاء ،
البقطة العارقة استمدادا للنوم . يأتي الرجال سكارى ، مهزومين
تذهبهم السفن والبحار والبلاد البعيدة ، يشربون الدفء الممطر ،
يلدوب كلماتهم مع صمت الميل ، تقطعت عيونهم بالجسد الأبيض .
لمحبون ، وعندما كانت تنام ، فإن صورة الشاب المنحدر تأتي :
تملا عليها الحياة ، تصحو مفزوعة ، كرسى ياسوسو ، أمضى
ناتعة ، تضع يدها على الحجر ، وكل الناس غريباء ، تسمع
أسماءهم ، تعرف ألقابهم ، تسأل عن بلادهم البعيدة التي قدموا
منها ، الأمر لا يعنيتها . ترص الممسك في الحجر : تسوى كل شيء
بأصابع يدها .

— ولعى الحجر دا يا أحسن سكر في العالم .
يخرج الدخان ، ومع لحمة خروجه ، تدرك أن كل ما في
الحياة ، يساوى . سلسيله تقول لحب الدين : لم يكن معها
ما يستحق المحافظة عليه واتساعته ، لم تندم لحظة على شيء .

برطت فيه . أصبحت في الأيام الأخيرة ، لا تذكر حتى وجه أبيها ،
أب شكل أمها . وحلت ذات ليلة ، وفاة والدها ، واحتراق
أعيا ، بسبب لإتدريه . وبس أولادها يخوضون معركة الاسلام
الأخيرة ، في مكان ما . من الدنيا . تقول سلسيله : انها لغت
ودارت في بلاد الله الواسعة . كن تقابل حب الدين في النهاية ،
كل ما يحدث لنا معدر ومكتوب حتى قبل ان نولد . ومهما جرينا
نرهننا بعضنا ، فلن نحصل على أكثر من نصيبنا . ان الأيام تقضيها
بالطول وبالعرض ، وبأى شكل كان .

في دمنهور ، التقت بحبيب الدين ، لا تذكر سبب وجودها في
دمنهور ، كانت تلبس بذلة الرقص ساعتها . اقترب منها ، لف
وراءها البلد ، قال بصوت عال : انه ابن عمدة ، وأنه بلا عمل ،
وسيلف وراءها القطر المصري كله . كان يرتدى جلبابا من الصوف
الغامق . على الكتف عباءة ناعمة . وفي اليد جريدة . وعندما
وجد نفسه معها بفردهما ، قال لها دون لف أو دوران :

- اسمعي يايت ، ما تجي معايا البلد .
- بلد ايه يا آدمدي .
- السوالم ، قبلي وبحري .
- واسم الكريم ايه ان شاء الله .
- حب .
- ايه ؟
- حب الدين سرحان .

استراحت له ، قالت لنفسها : قد يكون بر الامان ، حضرت
معه الى السوالم ، سلسيله تقف على باب العشة ، وهي تذكر
ان الليل موحش لحد الموت . تنحس الظلام بيدها ، مضحك
تفوق في الضحك . السوالم تشرط ليلها الاسود على مهل ،
وسلسيله تضحك ، تقول لنفسها ، وهي تجمع اشياءها :

- الضحك على الشفائير .
- والقلب يصيغ متاذيل .

انها تذكر ان كل رجل في السوالم ، يتمنى ان تمنحه نظرة ،
يرمي عليه السلام ، تطالب منه خدمة . خيوط النظرات التي
برمت بينها وبين عيون الرجال . ليست سياتا من الرقية ، بل
هي نوع من الامال يلقها بداخله . كان ذلك يسعدا بالليل ،

وكانت تقول : ان كل شيء هنا تحت أمرها ، وما عليها الا ان تشير
بأصابعها فقط .

سلسيله تجمع اشياءها من العشة ، وفي نفسها خاطر محدد ،
بان أيامها انتهت ، الحياة في السوالم انقطع عيشها . كانت الأيام ،
أياما ميتة . وفي السوالم ، جدلت من الانتظار حبلا طويلة ،
علفتها في السماء السابعة ، وصعدت عليها ، وهناك لم تجد شيئا
العشة خالية ، وأذان العشاء لم يصلها بعد من فوق مدنة
سيدي الغرب ، الرجال الذين ذهبوا الى المهندس لم يعودوا الى
العشة . انفتحت الكفن . حملت الكفن . لسارع الرئيسي
والحارات . قالت لنفسها : ان تغيير نظام الحياة ، آذن بانتهاء
كل شيء .

في البيت ، الوحدة والصمت والضوء الخافت . سلسيله
تتحرك في الحجرة الصغيرة ، ومن يشاهدها يكتشف . ان سكر
الفاتنة ، التي ملأت قلوب الرجال بالعود ، تسير الآن في حجرتها
الصغيرة ، كأمراة كهلة ، تتقدم بها الأيام ، تشعر انها لابد وان
تفعل أى شيء ، الأيام لم تعد تطاق في السوالم . في البداية ،
تحملت الفراغ ، انحرادى الجرداء ، البيوت الطينية ، الناموس
بالليل ، النوم على الأرض ، وقالت من أجل عيون حب الدين ،
يهون العمر كله ، لكل شيء حدود . الرجال يمرون في الحارة أمام
انبيت ، يشاهدون انبيت مضاء على غير العادة ، وفي الداخل ،
كانت سكر تنام ، تتحرك ، تترك بدنها ، تعاني هما غريبا . قامت
غيت ملابسها ، تزينت ، وقفت طويلا أمام المراة ، أظفاس
المصباح وجلست في الظلام . حب الدين لم يعد ، إنه مع المهندس
في الخيام ، وهي تنتظر عودته . قالت لنفسها : كان ايه عصم .
أحبته في الزمان القديم ، ومن بعده ، فان قلب قدماء . كل
ما يحدث لها من خلابة الروح ، وحب الدين ، هو الذي انقطع
الاشياء بداخلها ، كانت تقول : ان الموي لا يطلبون سوى انكفن
واللحد والرحمة ، غير انها اقتنعت بعد ذلك بحب الدين .

وبعد حضورها الى السوالم ، قال لها حب الدين : انها هنا
زوجته ، ويجب ان تعامله على هذا الاساس . قالت ان الكذب
هو أحلى ما في الحياة ، نعمت بالوهم . أحست ان الحجرة خائفة
صعدت الى سطح الدار ، انها نادرا ما تصعد اليه . وفوق انسطح
كانت السماء والنجوم ، قالت لنفسها : فلنحلب نجوم السماء :

ومن حليها ناعم تراب الأرض ، تضع فيه حصوات ملح قليلة ،
وتصنع منه لقيمات مكسورة ، مغموسة بالأهانات ، تأكلها معا .
فزامن الزوج قد حل أخيرا .

هبت عليها نسمة هواء ، حملت اليها رائحة الأرض الشراقة ،
والأشجار الخالية من الأوراق والزهور ، لقد أدركت ، معنى ما
يقوله الرجال في العشة أحيانا ، أن الأيام التي نمر بها السوالم ،
هي أيام الجفاف . يكمل الرجال ، أن أيام الجفاف قد طالت
هذا العام .

يحكى أنه حدث في قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، أن
كان في بر مصر ، أم الدنيا ، ملك من ملوك الزمان ، له حبيسة
وصولجان ، وجند وأعوان ، وأن هذا الملك قد دأب له كل شيء ،
الأرض والناس والبلاد وأزمان ، وأن الناس قد نشؤوا به ، وقالوا
هو المخلص ، الذي حلينا به عند آلاف السنين ، ثم أنهم عبدوه .
أحدث أن أتى رجل من فاح البلاد ، رجل ذنب القلب ، جميل
الحيا ، سمع الخلقة . كانت الشعيرات البيضاء ، تجلجل رأسه .
دأب الناس عنه . أنه حكيم الزمان ، أنه معجزات عظام . يحرا
القيب ، يتنبا بما سيكون ، يعرف ما يدور في الخاطر ، يطل على
الأيام القادمة ، أتجه الحكيم الى قصر الملك ، وكان القصر مبني
على مكان مرتفع ، وهناك ، فرش حصيرا صغيرا ، وجلس عليه .
سأله الحراس عن سبب جلوسه أمام قصر الملك . قال : أن الملك
سرسر في طلبه ، متى آن الأوان ، وهو هنا جالس حتى يطلبه
الملك ، سيجلس حتى آخر أيام العمر . في اليوم السابع : أرسل
الملك في طلبه فتعجب الناس من أمره ، ثم أن الحكيم ، الذي كان
يعمل فلاناً ، في أول أيامه ، تقدم نحو الملك ، وقال الأرض بي
يديه : يا ملك العصر والأوان ، أنت الذي سجل الناس في كل
مكان أحسانك ، لك عندي نصيحة ، أن أخفيها عنك ، أكون ابن
زنا ، وأن امرأتي أن أبديها لك ، لا أطلب منك سوى منديل
الامان . رمى الملك له منديل الامان . قال له : وما نصيحتك ؟
قال : أيها الملك الجليل ، لقد قال لنا القدماء ، أن من لم ينشأ في
المواقب ، فما الدهر له بصاحب ، الملك من غير صواب . الملك .
انزعج ، وأصل الاستماع . أن قوانين قاعة العدل ، قد ألف بها ،
ندوسها الناس بالأقدام في المحال العامة ، الرجل يفرق أخاه ،
فما العمل . انظر ، الرجل يذبح وهو بجانب أخيه . انحدث
اليك ، قول سمعني . أقول أن المتحنى بالفضائل يسير وهو
محزون لما يحدث ، أنهم يقولون : أن العذانة موجودة باسمها
أعلم باسمي ، أن الملك إذا جمل الناس بخافونه ، دأب ذلك على
ضعف . يقول أبو السعود : الحكيم قال للملك : أي حال تجد

عليها البلاد الآن ، أوصيك بأمر واحد ، لا تخلق قلبك أو عينك أو أذنك ، وفي مصر الآن ، يزداد الإغنياء غنى والفقراء فقرا . ومن جديد نستمع عن أبدين يقضون ليهم بغير عشاء . فهل يرضيك هذا .

سمع الملك ماقاله الحكيم ، أمر بتأجيل الموضوع ، في الصباح ، صاح الملك بالسيف ، أضرب رقبة هذا الخدار ، أرحنا منه ، ومن سره ، أمر بأموالي ، بقول أبو السعود : أن أهل المدينة شاهدوا في العصر ، رأس الحكيم ، معلقة على باب القصر ، فتعجبوا من أحوال زمانهم .

أبو السعود ، رجل طيب ، بعد الأربعين بقليل ، حرم نعمته الحياة الهادئة . لم يتزوج إلا منذ سنوات قليلة ، ينسب أبي أبياهم من أولياء الله الصالحين . يقول أن عائلته فرع من عائلة سيدى القريب . وأن سيدنا القريب ، قد زاره في المنام وهو شاب صغير ، قال له : أصبر على الظلم ، فإن يدوم أى شيء ، قال له : أنه سيقتل بجواره في نهاية الأمر . أبو السعود متزوج من امرأة عربية ، أب لأربعة أطفال . يوم ولدت أمه : سموه محمد ، قيل للناس في البلد ، أنه بنت ، خوفا من الحسد ، ولم يكتشف أمره إلا بعد ذلك . لا يعرف أحد ، من أين يعيش أبو السعود ، يكاد يستدين المال من كل من يلقاه ، حتى من المعلم يعقوب ، رغم أنه لا يريد ما عليه أبدا . يستعذب الحزمان ، ونادرا ما يشكو حاله الناس . اسمر اللون ، حلو التقاطيع ، في أصابع يده خواتم نفصوص زرقاء وحمراء ، يضع في قديمه «بلغة سوقى» ، يقول عنها رخيصة وخفيفة . يحمل في صدره كلمات الله ، لا يكره أحدا ، يحبه كل الناس ، محفظته فارغة دائما . كل دور البلد داره . زل حقول البلد أرضه ، انظف من الصينى بعد غسله . غير أنه يعود ومعه من خيرات الله الشيء الكثير ، لا يكره في البلد سوى الشيخ محمود .

الرجال يجلسون في حلقة واسعة حول أبو السعود ، أول مرة يجلسون فيها بعد حضور المهندس ، شغلهم مرضوع البشر . شاهدوا أبو السعود ، أمسكوا به ، حلسوا حوله . لم يشأ أن يحدنهم عن البثول . والبشر والمهندس ، اختار أن يبعد إلى أذهانهم هذه الحكاية القديمة . حكايات أبو السعود لا تنقطع ، وفي كل مرة ، يتسامل الرجال : من أين باتى بهذه الحكايات . الشكل

يعرف أن أبو السعود عنده في منزله صحارة قديمة ، فيها كتب صفراء ، ورثها عن أبيه ، ويقول الناس سرا : أن الكتاب الذى ألفه سيدنا القريب ، عن السوالم ، موجود فى الصحارة ، أبو السعود يحتفظ به لنفسه ، لأنه يعيش منه ، ولا بد وأنه يوى أن يعطيه لابنه من بعده ، هو سر الأسرار بالنسبة له ، ولعائلته كلها . قد يخافون من لسانه ، يعملون له ألف حساب ، ولكن احدا لا يستطيع الاستغناء عنه .

أبو السعود ليس شيخا ، وإن كان يلف رأسه بعمامة ، ويتسكك ذفته بمناية ، أنه حليق الشارب ، وذقنه تبدو كخط دائرى شديد السواد ، جليابه أزرق غامق ، لم يغير لونه . أبو السعود ، هو مستودع الأسرار فى السوالم . الناس يقول : أن أبو السعود وجد في أكثر من مكان في وقت واحد . يقسم الرجال : أنهم ساعدوه ذات مرة على الجسر ، وأمام دكان المعلم يعقوب ، وعند دوار العمسدة ، في وقت واحد . ومن يومها ، وهم يقولون في السوالم ، أكثر من «أبو السعود» . أبو السعود لاذهب إلى المسجد رغم أن الناس تناديه : يا فضيلة الشيخ ، أنه يقول : أنه أولى بالمسجد من الشيخ محمود ، فهو الوريث الوحيد للإمامة في البلد ، أحدل والظلم مسألة تحيره . زمن عجيب ، وهو يثق أن سيدنا القريب ، هو الذى سيفصل في المسألة ، سيقوم من نومه ذات صباح ، ويتولى الأمر بنفسه .

في كل مساء ، يجلس أبو السعود على الجسر ، أو في أرض الوقف ، أو في عشة سلسيله . يحكي الحكايا ، يقص أخبار أتبلد ، ويوم يذهب إلى المركز ، أو تكلأ العتب ، فإنه يعود ، ومعه حكايا غريبة ، أشياء يقول أنها ستحدث ، في الأيام القادمة ، وتأتى الأيام ، كى تصدق ما قاله أبو السعود للرجال . وعندما ندأ أبو السعود في حكايته ، فإن الرجال يقولون : أن في فمه ألف لسان ، وأن في رأسه أشياء كثيرة ، وقد يضحك الرجال من كلامه غير أنهم يعجبون به ، يعطون منه أن يستمر في حديثه . يقولون له : أن خير ما في هذه الأيام هي الحكايا .

في الصباح ، يخرج أبو السعود من منزله مبكرا ، لا يتأمل قبل منتصف الليل ، ولا تأمل قبل ساعة القبولوة ، لم يعرض أبدا ، ولم شاهده أحد من الناس في منزله بالنهار ، يقولون : « فيه شيء » ، وأن عنده سرا ما من أسرار الحياة . وعندما تحدث في

السؤال حادثة ما . ويعمل الامر للحكومة . وترسل من يحنق في الموضوع ، ويكون الحادث قتلا أو سرقة أو حريق بيوت أو عراكا بسبب المياه . فان تقدمين من البنادق ، لا يباثرون عملهم . الا بعد سماع أبو السمود . لا يقاطعونه أثناء حديثه . ينصتون له . يسألونه رايه . ويقولون ان رايه هام . يقول عنه بعض الناس : انه خياص اعمدة . ينقل له كل ما يحدث في السوالم .

أبو السمود . يتحرك طوال النهار ، في الحواري والبيوت . يفر الاحلام للنساء . يسمع منهن ما يفلهن له . يكتب الوصفات الدلية . يدخل كل البيوت في التلذذ . يدفع الباب بدمه اليمنى . ويدون ان ياذن له احد . فانه يدخل . يذهب الى دكان العلم يعقوب . يشرب الشاي والمسل . يذهب الى دوار العمدة . يدخل حجرة التليفون . ينفي السلام . يسألهم عن الحال . يجلس على الأرض بجوار الكتبة . يسمع كل ما يقال . ولا يعترف احد في السوالم على وجوده . يقول لهم : ان خير ما في الدنيا . ان تضحك .

أبو السمود جالس على افرزنجير . ساهو وحزين . يضع يده اليمنى على خده . ينظر الى الذين يعبرون الجسر . ولا يتكلم ونظراته تدور في الاركان بسرعة . يقترب منه اكثر من رجل .

- مالك يا أبو السمود .
- مافيش .
- مالك يا ولد .
- قلت مافيش . خير ايه يا ناس .

يحلف لهم بالطلاق . الاشيا معدن . الحال عال . حزين بسبب ما . لا يتكلم . يقول لنفسه : مهما حدث : فكرامة الانسان اهم ما في حياته . أبو السمود . في حكاياه عن السوالم . لا يباثي . لا يقف أمام الكلمات طويلا . الموضوع عندما يتصل بحياته . يتوقف . وتظهر من عينيه الدموع . حب الدين يقول للرجال : ان اولاد أبو السمود في المنزل بدون اكل منذ يومين . وابنه الصغير مريض . أوشك على الموت . تنجب الرجال . أبو السمود رغم الضحك والخبرة . وتناقله الحكايا عن الناس . فان له قلبا .

وفي الدنيا الاسعة ما يبكيه هو الاخر . القلوب تفيض بخان دافئ ممطر . وتسكرها لحظات الحب والوفاء النادر . تذهب النساء الى بيت أبو السمود . ومعن اللذة والضحك والدقيق

والسمن واللين والجبن . أبو السمود يضحك من جديد .

- الشحات له نص الدنيا .

الليلة . بعد ان حكى أبو السمود للرجال . حكاية الحبيب . ورأسه المعلقة على باب القصر . يقول لهم : انه يحزن كثيرا على هذا الحكيم . ويطلب له الرحمة .

- الا الذي حصلت والا من عندك يا أبو السمود .

- الا من مندى .

في الكتب كل شيء . خاصة الكتب الصفراء . الحكاية حدثت وكل ما يفعله أبو السمود . انه يحكيها لهم . يقول الرجال لا يسمعون . لم له شرح نفسه في انتخابات الاتحاد الاشتراكي . يدون جميعا استعدادهم كي يعطوه ما هو اكثر من اصواتهم . يقولون له : انه يعرف كل شيء . وخير من يمثل الرجال . قل لهم اكثر من مرة : ليست لي في هذه الامور . السياسة لها زناها . وهو رجل على قد حاله .

الرجال . بعد عودتهم الى منازلهم المتناثرة في قيعان الخارات الضيقة . يحاولون ان يستعيدوا ما قاله أبو السمود الليلة . السكلمات تنوء . فيدركون ان أبو السمود رجل غريب . أبو السمود يحلل عينيه . وعندما يسأله بعضهم عن السبب في ذلك . يقول . ان عينيه موجعتان . والده اصابه العمى في آخر ايامه . من المفروض ان يذهب الى حكيم العيون في دمشق . الحال لا تسمح بذلك . تحرك اصابعه . كمن يعد الفتوى المطلوبة لذلك . يخاف العمى . وعندما يرين على الرجال صمت . يتذكرون خلاله . ان عيونهم جميعا مريضة . أبو السمود يضحك .

- الله جميل . يحب الجمال . والكحل جمال .

زوجته . الست اصيله . ليست من اهل السوالم . ذهب في احد الايام الى دسوق . مولد سيدنا ابراهيم الدسوقي . أبو العنين . مكث هناك سبعة ايام بليلاتها . شعر الناس بالتسوق اليه . والى حكاياه وكلماته . عاد وهي معه . امرأة ناعمة . نظمت وجهها بطريقة سوداء . وتسير خلفه . اول مرة . يعود إليها أبو السمود من احد الموالد . وهو لا يحمل قفصه الصغير . كان ينادي زوجته ضاحكا :

- من هنا . يا ام أبو السمود .

سأه الناس عنها . قال انها من ابناء الطريق . نس صلح .

استأصله معه على الخير والشر ، الرجال في الحقول ، والنساء في البيوت ، يحسدون أصيلة . قابوا السعد في نظرهم ، رجل طيب القلب ، خفيف الدم ، أصيلة صابرة على مآلفيه معه ، تأكل يوما ، وتجوع باقي أيام الأسبوع وتقول : كل شيء ، يكون من أجل سواد عيون أبو السعد .

أصيلة تخلع الملابس التي كانت تلبسها ، ولحناء التي كانت تصنع بدنها وتدميها بدأت تضحى . واهجة البنادر بدأت سلاخي من كلالها . أنها ذهبت إلى الترع . ويعود . ويستساعد في الحواري . قال أبو السعد : عن التغيير الذي طرأ على زوجته ، شاحكا : الدنيا قطار قشاش ، لا يترك الراكب راكبا ولا ينسى الماضي ، الحال لا يد وأن تتغير .

أبو السعد لحاد البلد ، يحيى الليالي في البيوت . ويرد النساء تبطن ، بعد الظلم على الحدود وشق الملابس وحلف الجبن البطل وقول الكذب الأبيض . يمسك الذكر . يحضر الوفاء بالذور . يذهب إلى إيسى البارود . ودمهور بالشكاوي الجبوة سرا ، يتصرف فيها ويعود . أحيانا يرسل العمدة أو العالم يعفون إلى البنادر ، في مهام خاصة ، يذهب إلى منزل لأم . أبو السعد يداوم على الذهاب إلى الموالد في الناحية . وفي أيام زواجه الأولى . كانت أصيلة تذهب معه ، وبعد أن أنجب أولاده ، واستقرت زوجته ، فانه يذهب بمفرده .

أهل السوالم . يشاهدون أبو السعد . ساعة العساري . مارا على الجسر . في يده قفص صغير . معه ما يحتاجه في سفره ، عدة الشاي . بعض الطعام القليل . غيارات . ومعه بعض الكتب الثقيلة ، تدور طلب منه أسعائها أن يضعها في صندوق التدور ينطع الطريق على قدميه . ينام أحيانا قبل عليه الليل . يذهب إلى سيدي إبراهيم الدسوقي في دسوق . سيدي الإريعن في الخضيرة سيدي مسعود في دميسا ، سيدي أحمد البدوي في طنطا . يعود بعد سبعة أيام . لحظة الزروب . يضع قدمه على الجسر . يمتنع الحد ، يدوس على أرض الجسر بحكمة كما يفعل الثرياء . يشاهد واحدا من أهالي السوالم . ينسجم . ينسجم القفص على أرض الجسر . يصانته ، يصح القرية في أحضانها . يملا عينيه بعنظر السوالم والناس . تلح الشوق بالقلب وقاشت الدوع في الآفن . ولا بد من السوالم . وأصيلة وأولاده وأهله . وذكر يانه وحكاياه .

في القفص حمص وحب العزيز وخيز أبيض وطعمية . أبو السعد رغم فقره ، غير بخيل ، يفتح القفص على الجسر ، يخرج ما بداخله يرمي على الناس بما معه . يأخذ الناس منه ، يسألون أنفسهم : عن مصدر ما معه . يذهب إلى منزله ، يوزع ما بقي على أولاده وزوجته وأبناء الجيران . يقول لزوجته : كل يوم يشرق على الناس . يخرج معه أرز قهقري ، من يموت ينقطع رزقه . أبو السعد يقول لزوجته : أنا ما دنيا أحياء ، عند شروق شمس اليوم ، فسجد ما نأكله ، بشكل أو بآخر ، يكمل : ليل مشاكل الناس كانت هي الأكل والشرب فقط ، إذن لهات الأمور .

أبو السعد ، يجلس بعد عودته في وسط داره ، يلبس أكبر أبنائه طرطورا ملونا ، أحضره معه من المولد . زوجته تضع الشاي على النار . يقول لها كوب الشاي من بدنا يساوي الدنيا بما فيها . يقول لزوجته أيضا : أن الناس يلبسون الأمري : وبسائهم قد أصابه عوج ثقيل : أن الدنيا انقلب حالها ، الرجل في غير داره لا يساوي بصلة قديمة : أنه لا يستريح إلا في هذا المكان البسيط . ودون أن تسأله زوجته ، فهو يحكي لها ما حدث ، ما سمعه ، ما رآه أثناء سفرته . أنه متعب من السفر ، ولذا فإن أصيلة هي التي تحكي له أولا . كل ما حدث وهو في المولد ، أبو السعد ، هو المتحدث في كل مكان في المولد . في بيته يكون مستمعا فقط . أنه يجلس ولا يتكلم . يسأل زوجته عن الأمور التي سافر وتركها معلقة في جو البلد . أصيلة بارعة في حكاية الحكايا ، تتكلم باللسان واليد والحاجب ، ورغم أنه شيخ ، وهي من تسأل الصالحين ، فهي في منزلها امرأة ، تنسبه ، تسعده بالليل ، وفي النهار ، فهي لا تلبس سوى قميص على المحم رمش عين الجميل .

أبو السعد يخرج من داره بعد شرب الشاي ، يسأل من يقابلهم ، يسمع منهم ، يقول لهم أخبار المولد ، يعرف منهم أخبار البلد ، يمر على النساء اللاتي اعطينه أندورا ، يطعن الخواطر على وصول التدور ، ولها الآن نائمة ناكل أرزا مع الملائكة في صندوق التدور . في المولد ، يلتقي أبو السعد ببعض الناس أهم أقارب في السوالم ، يحملونه السلام والعتاب والسؤال عن السبب في الانقطاع أبو السعد يذهب لهم ، يلفهم السلام ، ويعاتبهم ، ويعاقبهم ، ويقول لهم : العمر قصير .

يذهب أهل السوالم ، قابو السعود ، بعد وجوعه من المولد ، بساعة أو ساعتين يكون قد ألم بكل ما حدث خلال غيابه . أهل السوالم يتراهنون ، أن كان هناك ما يخفى عليه . الرجال يقسمون أنه يذهب إلى المولد ، تاركاً عينه ، وأذنه في السوالم ، حتى يعود

في العشة ، يجلس أبو السعود ، يصل ما انتقع ، يحكي أخبار الدنيا الواسعة . الرجال تنصت إليه ، الدهشة والإعجاب والإنهار من جديد ، الناس تقول : الليلي بدون أبو السعود ، لا طعم لها ، يؤكدون ، أنه ملح الحياة في السوالم .

الرجال يجلسون صامتين ، بعد أن استمعوا إلى حكاية الحكيم مع الملك . سأله عن المهندس ، لم تكن عنده رغبة في الكلام ، قال : أن حكاية المهندس لم تنضج بعد ، في الأمر سر . قال : أهل السوالم ، يخرجون خلف المهندس ، وأنه هو أيضاً جرى فيمن جرى . يؤكد لهم ، أن سنوات عمره التي مضت ، والصفحات التي قراها . وكلام الله الذي يحمله في صدره ، يؤكد حقيقة واحدة أن الدنيا بكل ما فيها . وكرر : الدنيا بكل ما فيها . لا تساوى منا كل ما نفعله فيها .

يقف الرجال حول دكان المعلم يعقوب ، ويعضهم يجلس . أمام الدكان ، دكان من الخشب القديم ، مستندتان إلى الحائط ، وفي مواجهة مصطبة ، قرشت عليها حصيرة متأكلة الجوانب . ضلقتا رب الدكان مفتوحتان ، ربطت كل منهما بحبل صغير إلى الحائط . على واجهة الدكان ، فوق إطار الباب ، فروع شجرة ليلاب ، مشدودة إلى أعلى ، تساقطت من فوقها الأوراق ، فبدت عارية . في داخل الدكان ، لافتة صغيرة ، بهت لونها الأصلي ، تطلب في رد ناعم من الزبائن الكرام ، ألا يخرجوا المعلم يعقوب ، فالشكك مشوع ، والزعل مرفوع . وانزلق على الله مضمون .

المعلم يعقوب يتحرك بين البضائع في خفه ومهارة . يبدو طناناً رباته من أهالي السوالم . الساعة من أهم الساعات في اليوم ، فيها تكثر الطلبيات ، يقبل الرجال ، عادوا منذ قليل من حقولهم ، معهم مواشيهم ، بعد يوم من العمل . في منازلهم ، غيروا ملابسهم ، وركبوا عداستهم . وخرجوا ، بعد أن أطمأنوا إلى عائلاتهم . عند الدكان ، يقفون أو يجلسون ، وبين الحين والآخر يخرج الكلمات من أفواههم ، يشهد بهم الحساس ، فترتفع أصواتهم ، وتعلو أباذهم . وفي أثناء جلوسهم ، يدخون ، يدعون سحائر رفيعة من غلب دخان صلبة ، وقد يكون مع بعضهم فروع قبيلة ، في جيب حافظته الجلدية ، فيشتري بضائع ، غير السحائر والشاي والسكر ، رطل خلالة لأولاده ، روح النعناع لزوجته . عبر الشارع ، يمر الأطفال الصغار ، والشبوة والرجال . المعلم يعقوب لا يتصرف إلى جلساته كلية ، بمجرد أن يحضر أحد زبائنه ، فانه يصمت ، يترك الجالسين ، يحضر للزبون طلبه ، فالمعلم يعقوب يعرف كل أهالي البلد ، ويعرف طلباتهم . الشيخ محمود ، غلب التشوق ، أبو السعود ، يسأل عن اللبان الذكر . وعندما يجده عنده ، فانه يهرش يده في قفاه ويضحك .

— أول ما يفرجها ربنا ، جهز لي ورقة منه .
ورداني لا يطلب سوى باكو الدخان ، أن ورداني ياخذ الباكو

بيده ، يضغط على منتصفه ، يقربه من عينيه :
- ما توتون الباكو يا معلم يعقوب ، دا احنا بتدفع فلوس .

يحضر المعلم يعقوب باكو آخر ، يقسمهما في كفتي الميزان ، ينظران . عينا ورداني برسمان وتنخفشان مع حركة الميزان البطيئة . ياخذ ورداني الباكو ، لاكثر نقلا . حب الدين يحضر الي الدكان ، ويسلم ويسأل عن الحال ، يسأل المعلم يعقوب عن جريدة ودارا ما تكون عند المعلم بموع جريدة ، فالجرائد تحضر بالصدفة . المعلم يعقوب يعرف ان في البلد رجالا لا يتعاملون معه أو مع أي بقال آخر ، يذهبون الى البادري ، يحضرون ما يحتاجونه . في منتصف الدكان عمود ، ملحق فيه السكوب ، على العمود والحيطان والسكوب واللائقات والدواليب ، طبقة لزجة سوداء ، في لحظة القروب ، الدباب يفضي كل ما في الدكان . من يمر على الدكان يشاهد المعلم يعقوب ، بيده فولة كبيرة ، وقد اكتسب نشاطا غريباً على سنه . المعلم يعقوب يقف فوق كرسي في منتصف الدكان ، ينشئ الذباب . وفي منتصف السقف ، سلك مدلى ، في آخر السلك ، صليب أبيض على لوحة سوداء ، تحت الصليب لافتة سوداء ، مكتوب عليها بحروف بيضاء « الرب معين لي » .

الرجال يحطون ، يتحدثون عن المهندس والبشر وأرض ورداني ينتظرون ان يحضر حب الدين ، والمعلم يعقوب ، لم يعلن رايه في الموضوع ، رغم انه يعني نفسه ، بان يبيع الكثير ، بل معنى نفسه بان يفتح للمحل فرعا عند البشر . حتى في أيام الخريف الجافة ، ثمة مساحات في النفس للأحلام والمنى ، ورغم جهامة الحياة وتجربها من كل بهاء ، فان الناس يحلمون . المعلم يعقوب يعترف بان معلوماته عن الموضوع بسيطة . المهندس لم يحضر اليه وهو لم ير اى فرد من العاملين في المشروع . احسانا يقول الصمت . وتدور هيون الرجال الصغيرة ، المكتحلة الصبر والحرمان في محاجرهم التي بلا رموش . ويحدثون داخل الدكان وسط العشة ، في أجولة العدى والارز والفلو ، ومسننداق الضايون وعلب الشاي والسكر . نظراتهم تستقر على المعلم يعقوب وهو يتحرك بين البضائع ، رغم الزحام ، وامسلاء الدكان عن آخره ، ثمة طريق يسلكه المعلم يعقوب ، يعرفه جيدا ، حتى وهو ممغم العينين . نظرات الرجال تسريخ عليه ، يفتدون في انه رجل ناجح ، وانه يملك الكثير . ويدرك الرجال انهم يحسدونه

الحسد حرام ، انهم يتوبون ، ويستغفرون ، ولا يبقى في الاذهان سوى صورة ملامح وجهه المجيدة ، انبساطه الدائمة ، سرعة حركته ، ضعف بصره ، النظارة لسميكة التي يرتديها بالنهار فقط . انهم يعجبون به ، ويسأل كل منهم : لحظة تركه الدكان . لماذا لم يكن من حظ ان يفتح دكانا ، العمل قليل والربح كثير . الرجال يقرون ان الدنيا حظوظ ، يقولون لانفسهم : شاعر البلد لا يسليها . الدكان لو كان لاحد من اهل البلد ، لما نجح ومهما فكر الرجال فسيظل النجاح والفشل ، الفقر والغنى ، اسرار لا يفهمها احد . الرجال عقب تفكيرهم في هذه الامور ، يرمعون عيونهم نحو السماء ، تتبع عيونهم مذنبة سيدى الغريب ، ترتفع النظرات على قوالب الطوب فيها ، وتصدد معها حتى الهلال الغضبي ، وهو اعلى مكان فيها ، منه تنسحب النظرات الى الخيمة الزرقاء وعند هذا الحد ، فانهم يقفون عن التفكير . العبد في التفكير والرب في التدبير ، وق هذا الكفاية .

ذات صباح ، حضر الى السوالم رجل غريب ، استاجر دارا خالية ، سكن فيها . كان رجلا وحيدا ، يخرج في الصباح ، يدور في حواري البلد ، حارة ، حارة ، يجلس على شاطئ ترعة ساحل مرقص ، او افريز الجسر القديم (لم يكن الجسر قد بنى بعد) . يرمى قطع الطوب الصغيرة في الماء ، يتسنى برؤية موجات المياه بعد رمي الطوب ، وهي تبدأ كنفطة صغيرة . ثم تتسع مع موجات المياه ، وتتسع ، حتى تصل الى شاطئ ترعة الآخر . في المساء كان يعود الى داره ، يتذكر الناس ، انه كان دائما بمفرده .

« الساعة الخامسة ، لقد حان الموعد . القاهرة » وانساعة بها الان الخامسة ، الان تبدأ برامج السهرة ، ايها السادة : اسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، القاهرة تحيكم وتقدم لكم نشرة الاخبار الثالثة » . بنمت الرجال ، الكلمات الغريبة ، تسقط على الاذان والقلوب فتحدث فيها آثارا جديدة . فترة قصيرة ، ماؤها هدوء مؤثر ، تتناقص بعدها المناقشات الحامية . وقد طلب رجل مامن الباقين ، ان يصمتوا لدى سماعه خبرا يعتقد انه عام . يعاودون الصمت ، ولا تطول فترته ، اذ سرعان ما يكتشف الرجال ان الخبر لا يعنى شيئا ، ويصوت منخفض : يخدش احدهم سننار الصمت . كلمة صغيرة ، ويبدأ الحوار . ان ما يشغل ورداني . هو الاسماء التي سمعها ، بلدان ورجال واحداث .

أجزاء بعيدة من العالم ، يقول ووداني : انه كان يعرف ، منذ ان ولد ، ان آخر الدنيا من الناحية البحرية هي الاسكندرية ، وبعدها البحر المالح ، الذي يقول عنه الرجال انه بحر بلا شاطئ آخر ، وان آخر الدنيا من الناحية القبلية ، هي مصر ، ام الدنيا فوها الصعيد البراني والجواني . اما هذه البلاد ، التي لا أول لها ولا آخر . البلاد تزداد عددا يوما بعد يوم ، وتزداد اسمائها غرابة ، مع كل نشرة اخبار جديدة .

— همه يبيعوا البلاد دي مئين يا اولاد ؟

— دى حاجة تحير والله ..

— « شوف ياسيدى — قال ابوالسعود — فى العالم مائة دولة ، كل دولة منهم قد مصر أربع مرات . أمريكا لوحدها فيها خمسين دولة ، روسيا كمان خمسين دولة ، والآن الصين والهند والسند واليابان ، الناس هناك زى النمل ، تقول يا رحمن يا رحيم » .

عيون الرجال تسع دهنه ، وتنافسهم المبهورة تملأ الصدور . شيء ما ، مدهش وغير عادى ، يتقل الصدور ، الرجال يدركون ان ما يسمعونه فى نشرات الاخبار ، كل وقت ، اسماء لها معناها . العالم كبير ، واسع الأجزاء . قال المعلم يعقوب ، من خلف البتك وهو يعطى البضاعة لأحد الزبائن : ان الحياة فى كل هذه البلاد ليست سهلة بالمره . ادرك ووداني انه حتى آخر أيام العمر ، ثمة اشياء كثيرة لا يعرفها الإنسان . وصمم بينه وبين نفسه ، ان يعلم ابنه ، ولو وصل به لامر ان يبيع نصف الفدان الذى لايمك سواه

فى بعض الاحيان ، يدخل ائذكان من الزبائن ، يتف المعلم يعقوب مسكنا على البتكة ، يبدو متعبا ، وعيناه تدوران فى محتويات محله وقد ينقل شيئا ما من مكانه الى مكان آخر . يفرغ من عمله ، يتف فى إحدى زوايا ائذكان ، يشنى جسمه ، يعاود النظر فى محتويات دكانه . يتجه ناحية الرجال ، يفتح فمه ، يتهاى للكلام ، الرجال يتشعرون له ، يقول تسانح غائبة للرجال . أهل اسرار كلهم ائمه رجل صفار بلا نجارب ، وهو مشغول عن اسداء النصيح لهم . ومن المؤكد ، ان احدا منهم لا ينافسه قسا بعله . الرجل بهرون ردوسهم ، مصدقين كل ما يقوله لهم . رقى كل مرة . كتشعرون ان الرجل عاش حساته كلها ، كل لحظة وكل ثانية . رجل وادع وعمر ، لف بر مصر من اوله الى آخره . المعلم يعقوب يستترسل فى سرد ذكرياته . مغامرات ، سفرات . خرج من بلده

يجيبه خال الا من الهواء ، لف ودار . الرجال يتشعرون ، انهم يتفصلون عن الحياة ، اغلقوا العمر عليهم ، على المكاسب السماء ، واصبحوا معزولين ، ومع مرور الايام ، شعرت مشاعرهم ، وضاع من ماء وجوههم سر التجدد الابدى ، جذورهم قطعت ، واصبحت الارض التي ينبتون فيها بلا ماء . والمزاء ، انه فى الاعماق منهم ، ثمة من حياة ، موجودة فى قاع وجودهم ، يحسون بومضاتها فى بعض الانفعالات النادرة .

خشاما لهذه النشرة ، نعيد على حضراتكم موجزا . انعقاد الاجتماع الاول للمؤتمر الثانى لرؤساء دول عدم الانحياز بالقاهرة ، ٨ دولة تشارك فى الاجتماع ، ١٠ دول تشترك كمرافقين .

يلكى أهالى السوالم ، ان مصباح حجرة سيدى الغرب ، كان آخر ضوء ينطفئ فى البلد ، وقبل ان ينطفئ ، كان الرجل يجلس ، امامه طبلية صغيرة ، عليها كتاب كبير ، جلده اسود مئتين ، يقرأ بصوت مرتفع . شباب البلد تسمع ما يقرؤه يتأثر عميق ، وبصوت بطيء .

« فى الليل ، على فراشي ، طلبت من تحبه نفسى ، فما وجدته ، ابنى اقوم واسطوف فى المدينة ، فى الاسواق ، وفى الشوارع ، اطلب من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته ، وجدنى الحرس الطائف فى المدينة ، فقلت ارايتم من تحبه نفسى ، فما جاؤزتهم قليلا ، حتى وجدت من تحبه نفسى » .

قال الرجال : الغرب به مسى ، خلفه حكاية ، يطول شرحها ، وقال الصبية الذين خانتهم ميولهم ، وسرقت نظرة او نظرتين من داخل البيت الذى يعيش فيه ، لا يوجد فى البيت سوى حسيمة ومخدة من القش وصندوق خشبى قديم ، وطبلية ، وكتاب اسود ، وصليب معلق على الحائط .

السوالم مهتمة بالرجل الغرب ، اسمه يعقوب ، مسيحي طيب وهو هارب من بلده البعيد فى الصعيد الجوانى ، من ظلم وقع عليه ، وقيل ان الحال هناك لا تسر ، له عائلة وزوجة وأولاد ، وقد يحضرهم الى البلد ، ان استقر به الحال .

— الرئيس عبد الناصر يقدم فى خطابه فى افتتاح المؤتمر الثانى ، لدول عدم الانحياز بالقاهرة ، مشروعا باعلان بيان عن تحقيق السلام بالتعاون الدولى .

شباب البلد يحادلون يعقوب ، وهو انشاء سيره فى حوارى

السوالم . يلغى التحايا على الرجال . يقول لهم بصوت ربيع .
 « سعيدة » ولا يرد على السلام الا بعبارة « سعيدة مبارك » .
 يقرقر بعبر حوارى السوالم الآن ببطء ، وخطواته المتسرعة ،
 المحملة ثقير ، وعيونه التي كانت تنظر الى الارض ، أصبحت
 تحدقان في كل شيء ، وانحناء ظهره اعتدلت ، والرجال يتحدثون
 عنه بحب . والنساء في السوالم . يتناهن لمحبته بمفرده في دار
 واسعة عليه . ويتحول بيت يعقوب الى مكان يسهر فيه الشبان .
 أهل السوالم يعرفون شرب الخمر ولعب الورق ، زجاجات
 صغيرة ، رقيقة الصنع ، مرسوم عليها صورة حاوة . في البداية ،
 لعب الشبان الورق . للتسلية وقضاء الوقت . واللبل يحدز بلا
 نهاية . الليل متاهات الرجال . والرجال في السوالم ، يصنعون
 مركاب من ورق الاحلام ، يبحرون بها في اللبل ، على أمل الا
 يعودوا بعد ذلك أبدا ، سفرة طويلة المدى . ولحظة سقوط اللبل .
 هي لحظة طرح التساؤلات المرة . يبدأ الحزار من طرف واحد ،
 مع النفس والظلام والبيوت . ان المتزوجين يخافون من العودة
 الى الفراش . والنساء . يمثل لهم لحظة المساء ، شيئا .
 يخرجون من البيوت الى أي مكان . مسرح يعقوب ذات مساء .
 ان يلعبوا بالنقود ، نقود قليلة ، يشترون بها أكلا وشربا لزوم
 « تسهرة » . كان يعقوب يعرف على الرجال بالنزول . يمنع الرجل
 وكاوا راغبين . م يدم المنع . كويت حرقهم . بحثوا .
 أصحوا بإداة الاكتشاف . تدفقوا شرابا في طمع المر . انبعثت في
 اندامهم نسوة رائعة . تحرروا . مفعش الشيء ، لغنى تربت ائذنا في
 بارض السوالم . فأحسوا أنهم يطرون ، يشربون الليل ، ويشاجعون
 النجوم . نقد الواقع أشكاله المسالفة . وتحطمت قواعد الحياة
 الرتيبة . دارت الرؤوس .

- خمسينه والنبي يابى يعقوب .
- عشرة صاغ أو سمحت .
- ع الحصباء تكرد نرج .
- سكك لا . ومايش رغل .

تنحدر الحجرة الصغيرة ، الى ساحة حرب ، المكس والخسارة
 الهائلة في اللعب ، حركة الإبادى في خفة ، العيون المنعمة من منامه
 الورق والنقود وحسابات الثلب والفضء الشاحب . يقول لرجل
 يعقوب بخسر كثيرا : لا نقض من الخسارة . تسال وقت . بى

آخر الليل ، يتصرف الرجال . يعقوب يوصلهم حتى باب منزله .
 يصافحهم ، يأتى الى اسماعيم . يباح الكلاب ، منتشرنا خلال
 وشوشات النخيل الليلية . يعقوب يقول لهم . يصوت منخفض ،
 رجاءة الليل : « الرب اعطى ، الرب اخذ ، فليبارك اسم الرب
 في العالمين » .

تطورت الامور ، الرجال يتراهنون على اموال كثيرة ، ويربح
 يعقوب كل ما مع الرجال . يعقوب يجمع يدهو حديدى من فوق
 الطويلة كل التعود . يصمها في حجر جلبابه . عقله مرز وبسب
 في الورق . ويده التي تجمع النقود ، وفرحها حتى حافة الطويلة
 وتدفعا دفعة بسيطة . فتسقط في حجر جلبابه . محدنة رئيسا
 عربيا . انه يذكرك ، ان كل العيون المحيطة به ، تجلده بنظرات
 الطعم والدهشة والاستغراب ، يعقوب يرفع عينيه ناحية الرجال ،
 تصح نظراته غضبيهم . ونوقف كلا عند حده . وتساءل لهم ،
 مقاول الانفار . وكان احد نحاي اللب مع يعقوب : الا يخاف
 يعقوب أهالى البلد . وحاول ان يلعب له بذلك ، يعقوب طمأنه .
 الرجال هنا طيبون . وقد ينور في الغوس شئ ما . ولكنه لا يصل
 الى ضرره او ايقاع الاذى به . في آخر الليل ، نظرات الرجال ،
 تنحول حوله الى يشوع حزن ، والكلمات مدبوحة على الشفاه .
 - تلعب يا للموم .

لا يرد للموم . يخرج الورق من جيبه . يضعه على الطاوية ،
 يعقوب خائس لما هو . لا يفتى ربح او خراب . ولا يستطيع
 احد من الرجال ان يقرأ انفعالاته ، يجد امامهم وجه بليد ،
 لا ينور عليه بصر . وسعر الرجل ، رغم السميت الموحش ،
 اتم متفاهمون . في النهار . يشفقون على ان وجود يعقوب ، خطر
 عليهم . البيوت اقتربت من الخراب ، نقود للموم التي انت من
 لا شيء . ها هي تضيق . ان شباع جزء من نقود المعلم في اللعب .
 يدفع الرجال ان يتطلعوا الى السماء ، وغوهم ، مسؤولية ماكثر .
 تعلم حب الدين من المعلم يعقوب أشياء كثيرة . أهمها ان يبيع
 رأسه ، « ثمت الورق كثيرا » . غير انه تنفق النقود في احمه
 اخرى . لاول مرة . ينف رجل في السوالم . كي يقول عن الارض
 انها لا تترك للناس سوى الخراب ، وانها سر الضيق والمصائب
 وكل اللاء ، حب الدين ، تنكلم بلسان غير لسانه ، كلمات يعقوب
 بقولها حب الدين دون خجل ، وسط الناس . الرجال معلون

الايمن ، بأنهم لن يذهبوا الى منزل يعقوب أبدا ، وبعد العشاء ، بعد أن تستقر مريمات الظلام في قبعان الحارات ، فان الرجال يرتدون ملابسهم ، يقولون لأولادهم : انهم ذاهبون الى الجامع للصلاة ، وهم يملون انهم يكذبون ، وبمجرد أن يسلموا أنفسهم للحارة ، فانهم يتجهون الى منزل يعقوب .
- يامرحب بالبلديات .

حيهم لمنزل يعقوب كالقدر ، لا فسكك لهم منه ، يكرهونه ، غير أنهم يذهبون اليه كل مساء ، الناس تفق ضده ، كلهم ضده ، أحد منهم لم يستطع مواجهته ، تواعد النسياس على حرق منزله ، نسوا الوعد . للوم ، خلفت عليه امه الا يذهب الى منزل يعقوب ، حدثته عن المستقبل والنقود وتحبشة العمر ، اغلقت عليه الباب وجلست خلفه ، قالت له : ان كان يريد الذهاب ، فليقتلها ، فهي لا تحب ان ترى ايام زمان . وخير لها ان تموت . للوم يجلس في المندرة بالقميص والصديري يذخن ، يعمل النسياس لنفسه ، يشرب الجوزة ، يحدق في حائط منزله ، يعد آكواب شاي في سواد ومرارة ايامه : ينظف أسنانه بعود كبريت : ننظف سبناه :

- يعقوب يناديني يا امه ..

يلبس جلبابه ، يركب مداسه ، يأخذ عصاه في يده ، يخرج ، لا يكون هناك يعقوب ولا غيره ، وحتى امه لا تعرف السر في تركه يخرج . يتسم أن يكون اللبب هذه المرة للتسليه . في حبي اللبب ينسى . نفدت نقود حب الدين وللوم ، وكان يعقوب يعد نقوده في هدوء .

- انعب يا يعقوب .

- علق .

صمت حب الدين ، هرش شعر راسه .

- العيب على نص قيراط أرض .

- لا يا حبيبى ، فلوس وبس .

يسهر حب الدين ، يقول لهم يعقوب : انه لا يلعب لا على النقود ، بضحك ، يضع الورق على الحصى ، يمر بيده على وجه المحدث من اتر السهر كل ليلة ، يبيع شجرة على الخائض . ويستأنذ الرجال في ادب أن يعد قدميه على آخرهما . يقول للرجال حوله . انه حدث مرة : أن راهن عامل في محطة السكة

الحديد . يعد منتصف الليل ، أثناء اللعب . لم يكن هناك سوى انوار البلوك في المنطقة ، ثم الظلام والصمت . كان الزمان ، أن يحلق الموزوم نصف شاربه بموسى على الفور ، لم يكن معه نقود ، أحضر الموسى ، وقطعة من الصابون وقليل من المياه ، أبادى لرجال ترتفع الى شواربهم السكتة فجأة : يتحسونها . يتأكدون من وجودها .

- وبمدين ، حصل أية ؟

- حمت من نسي .

من الامور المألوفة الآن ، أن يشاهد الشيخ محمود ، أثناء ذهابه الى الجامع ، لصلاة الفجر ، منزل يعقوب مضاء ، من ينظر من النافذة : تطالعه ، وجوه مسهدة ، وعيون ذبلت من السهر . لقد تعود الخفراء ، أثناء سهرهم في الليل ، أن يشاهدوا يعقوب ، يسير بعد منتصف الليل ، مع أحد الرجال ، يذهب معه الى منزله ، يعودان بعد قليل ، يسيران متلازمين ، يفهم الرجال ، أن الرجل نفدت نقوده ، فطلب تأجيل اللبب حتى الصباح ، يعقوب يأمره أن يذهب الى منزله ، كي يحضر نقودا ، ان كانت هناك نقود : وعند ما يدعى الرجل الكسل ، فانه يقوم معه على الفور

- حصل منك حاجات كثيرة يا يعقوب .

- غير صحيح يا عمدة .

- تسست في بيع أرض حب الدين سرحان .

- دا راجل ومسؤول عن نفسه .

- الرجاله يشرب الخمره عندك .

- اللي يعمل غلط يتحاسب عليه .

- بتفتح بيتك لغاية الصبح .

- طول عمري متعود على السهر ، أنا باحب الليل أكثر من

النهار يا حشرة العمدة .

- بتقرى الولد حب الدين في كتابكم طول الليل .

- هوه الى سفر .

- يا يعقوب أمش كويس ، احسن لك .

- شوف يا عمدة ، أنا عمري مارحت لحد بسنه : ولا عمري

مارحت لحد فيهم علشان يجي عندي .

- موسى تشومى يصل الى القاهرة فجأة ، في محاولة لحضور

المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز ، المؤتمر يتخذ قرارا بعدم حضور تشومي الى المؤتمر .

يسأل الرجال عن تشومي ، يتحدث فتحى سالم . كلمات قليلة هي التي فهموا معناها ، ياقى كلمات فتحى سالم سماء ، لا يفهموا أحد ، تصل الى الاذان ، ولكنها لا تعنى أى شئ بالنسبة لهم . يقول فتحى سالم ، تشومي هو الذى تسبب فى قتل الزعيم الافريقى باتريس لومومبا ، وأنه يعادى الثورة . من المفروض أن يدعى فى الماهرة . بعد أن يدوروا به فى السوارع أمام الناس . يقول أبو السعود : أنه يتكلم بألف لسان . أنحيري . مرساوى . وشكله أسود فطيس ، وأنفه مثل قرن الففل الكبير الإفطس .

إن يعقوب يتذكر أنه بعد أن حضر الى السوالم ، سأل من اى المسيحيين فى البلد ، وذهب اليهم ، أكرمهم علما ، سألهم من اى طائفة هو ؟ أجابه يعقوب مازحا ، أنه من الانجيليين ، عرف باقى المسيحيين ذلك ، تجنبوه ، وخافوا منه ، رفعوا ايادهم الى صدورهم وحببهم ، راسمة علامة الصليب . حاول يعقوب أن ينهى ذلك . لم يصدفوه . قرروا أن يلقوا قنيس كنيسة الضهرية ، خير وصول يعقوب الى السوالم ، أهالى السوالم لم يفهموا السبب فى الخلاف ، يعقوب وحده ، وباقى المسيحيين ، كانوا يفهمون . وبعد ذلك ، فإن يعقوب ، الذى لم يعرف الغضب أبدا ، كان يسأل عنهم .

— الجمهورية العربية المتحدة ، تحدد إقامة موسى تشومي ، فى قصر المروية .

ذات مساء ، حرق بيت يعقوب ، شىء فيه حريق ، اندلعت السنة التران كميذان الغضب فى قلب الليل . قالوا ان أحد الرجال الذين كويت قلوبهم من خسائر كل ليلة ، حرقه . أحضر الرجل ، ولا أحد يعرف من هو ، جوربا قديما ، حشاه بقطع قماش ، تقعه فى الجاز بومين ، أشعل فيه النار ورماء على سطح المنزل ، ظن الناس أن يعقوب تحول الى فحمة سوداء ، اكتشفوا بعد انقضاء النار ، أن يعقوب غير موجود فى المنزل . فى الصباح ، عرفوا الامر ، سافر يعقوب بالأمس ، مساعاة الفجر الرمادية المرحشة ، بعد الظهيرة وحسابات الربيع والخسارة الى بلاده . عاد بعد عشرة أيام معه زوجته وأولاده ، لم يهر من بعدها ، لم تعسا قدم غريبة باب منزله . بنى لنفسه منزلا ، وفتح دكانه ،

وملاء بالبضاعة من النود التى كسبها من اللعب ، أما هو فيقول أنها ثمن قطعة أرض ، كان يمتلكها فى البلد ، باعها ، لم أحضر أولاده .

لاحظ الرجال ، أن جسم يعقوب ، أصبح أكثر امتلاء ، وعلايسه أصبحت ثقيلة على اندام . الرجال يتادونه بالمعلم يعقوب . وفى صباح الاحد . لم يكن يفتح دكانه . كان يرمدى اخر ملايسه يخرج من الصباح الباكر هو وزوجته وأولاده يذهبون الى الضهرية . لحضور الصلاة . لم يكن فى السوالم قبلى أو بحرى سليمة أو ششت لانعام أو دمينسا كنيسة . الكنيسة الوحيدة فى المنطقة كلها . هي كنيسة الضهرية .

المعلم يعقوب من أحب أهالى السوالم . وتربطه بباقي المسيحيين علاقات ود . يلتقون أمام دكانه مساء السبت ، يتحدثون عن انسج والصليب ، الابن والاب والروح القدس ، الطراد ، مريم ، نعيم النفوس مع كلماته . تلا الآتى بالدعوى . وتبتهق الضفوة ، رؤىم الرجال مع الكلمات . أن الفوائف تسعل من عضها مع الكلمات . والمعلم يعقوب ابن نكتة ، حتى الذين كرهوه . لم يملكوا إلا أن يعجبوا به .

الصمت يرين على الرجال ، واللبل احتواهم بداخله . العيون والعلوب والأبدي غسب فى سواده وسنه ورعيه . انهموا الى نشرة الأخبار . وتحدثوا حتى تعبوا ، شربوا الشاي . انهم فى جلسنتهم لا يبدو منهم سوى انصافهم . ومستطيل الضوء الخارج من دكان المعلم يعقوب ، يفضح المارين فى الشوارع ، المارون بسرور بمجرد دخولهم فى منطقة الضوء . وفى ترهم السعد . حسد الجالسين على الدكك والمصاطب ، فالجالسون فى الظلام . يرون المارين . المفسولين بالضوء . المعلم يعقوب يتف خلف البنك . يرفع يده الى جنته . حاجبا النور عن عليه . حتى يستطيع أن يرى الرجال .

— آبه أخبار البشر والمهندس والبتول ياسى حب ..

نتجه انظار الرجال الى حب الدين ، بلع فى العيون ، رغم لظلام ، يرتق أبيش . حب الدين كان يريد أن يتكلم منذ أن حضر ، لذا هو سب حضوره . بعد أن سألته المعلم يعقوب احتشوا اذا سيقل ، وجاش فى وجدانه احساس بأن الامور ستكون على ايرام ، وبعد أن يتدقق البتول . ذلك أصبح قريبا منهم . أنه

على وشك الحدود . صبح حب الدين معه على آخره . بدا للرجال . قاع العم والإسنان واللسان وجرمه الم . لم تخرج الكلمات ، ووجه حب الدين . بأن كل شيء مختلف بداخله ، وبانه سعيد . وأن الرجال يجب أن يفتوا لنسر والبترول والمهندس . ما نتكلم ياسى حب . ما تقولنى أواد ملك البسيطة . حاقول أبه يا رجاله . الحكاية عال والحمد لله . تساهل . قال أكثر من واحد . الحمد ياسيدى .

بدا الحديث . وكنه يحدث نفسه ، الرجال يكره بكلمات حب الدين وثلاث الميل الرفي الداف المطر . بدا لهم البشر وعصمت والبترول . مكافأة بعبادة أنت بعد مسير طويل . اتصال حدد . حصلوا عليه منذ أن ولدوا . أيام هنية ، قد يمشونها ارتفعت الإيادي ، وكان حب الدين يتكلم . صمت . حاول الرجال أن يكلموا الحديث . وفي مثل هذه اللحظات ، عندما ينظر الرجل بداخل نفسه . فيجد سديما كاملا ، عالما ضبابيا مهوشا من الحزن والخيلة والفرح والحبور والجنون ، الكلمات تخون الرجال . ضحك المعلم يعقوب . عسى حبس . اسم الغر ولت .

الرجال يملأون صدورهم بحديث حب الدين . ويعصمون عيونهم في الأماني والأحلام . قال كل منهم لنفسه : خلاص . وتحتج فتحي سالم ، وضع ساقا على ساق ، قال موجها كلامه إلى حب الدين . أن العائد من المشروع ، يجب أن يكون لمصلحة أسيد . الأرض أرض ورداني ، حب الدين له دور في خطا المشروع . رد عليه حب الدين ، كان قد أفاق من سكر حديثه عباراته المشاة برائحة الاصيل المعطرة بعاء الكافور اللونة بزة لحظة ولادة الفجر على صفحة السماء ، قال أن الوضو سيدرسه المهندس . رى عصمت . قال حب : المهندس نكا معه وعلى الرجال أن يطمئثوا . قال المعلم يعقوب : بعد نجا المشروع ، وتدقق البترول . قد يأخذ أحد الرجال أكثر من غيره لايد وأن يكون هناك مفلومون . وبعدد المفلومين : فهناك ظالم في نفس الوقت ، تلك طبيعة الحياة ، المعلم يعقوب : يمتدأ أقل نصيب ، سيكون خيرا من الحال الآن . الحال سيء يا جماعة : حد عارف الدنيا ماشه الزاى

قال حب الدين : أنا المهندس اومعه أن اشركة سنتولى كل شيء : الضرائب . المباني وكافة الإنشاءات المطلوبة لتحويل السوازم إلى مدينة تسبح في النور بالليل . لايد من تحسين حال الناس ، وبناء المستشفيات والمدارس والصحات والمرافق العامة بكافة انواعها . ودور العبادة والمهر وقضاء الوقت والحدائق والمكتبات . كل هذا حير لليلة . فتحي سالم يتقاطع حب الدين ، يطلب من المتحدثين السكوت . أنا باعترض ، على جملة أمور في الكلام .

يصف كلام حب الدين بالخيانة لمصلحة البلد ، مباحه نظام والظلم لايمكن أن تقبل ، العدل بكل صوره ، حق ميدنى لكل الناس . أنا احذر . قال فتحي سالم . باسم الناس . الاتحاد الاسراكي حايصفي المشروع ، لو حصل فيه أى انحراف ، استطيع أن اعد كلامي د كويس ، فاهم ياسى حب . ولازم نفهم المهندس بناتك الكلام ده .

لم يرد حب الدين ، قال المعلم يعقوب . أن فتحي سالم متهور وعنده ظروف خاصة مؤلة ، وفيه واقعى في تفكيره ، العدل والظلم والانحرافات مسألة وجهات نظر .

شوف يا فتحي ، ياسى فتحي . ياسيد فتحي ، يا استاذ فتحي ، يا فتحي بيه ، يا جناب العضو المحترم . حب الدين هو المتحدث . إلى عنده أكثر من خمسين فدان ، معناه وجود تسعة وأربعين غيره محرومين من شبر أرض ، ودا حقهم ، إلى معناه أكثر من عشرين جنية في محفظته ، معناه حرمان أكثر من واحد من وجود مليم في محفظته .

— لازم أبلغ عنك ، أنت علشان سقطت في الانتخابات اللى فاتت الناس عارفك .

لم يعلق المعلم يعقوب على كلام فتحي سالم ، الرجال ينصتون بدهشة ، وحب الدين لايرد على فتحي سالم الذى يشعر بشيء بهدر في داخله ، أنه القراغ المتور بعد أن قال كل ما عنده وعاد إلى جلسته ، قال في ترفع ، وبصوت عال تسمع أن يسمعه الجميع .

— عموما يا جماعة ، أنا ملتزم بتعليمات اللجنة ، ولا كنت قلت كل حاجة ، أنا مش حا أعلن عن الإجراءات اللى حا اتخذها . اتما اليه تكذب الفطاس .

— ثم ان يأسى حب ، كلامك ذا معناه آيه ، الناس تهجم على نفسها ، هجوم الكل على الكل . الفنى غنى والفقر فقير . قولنا كذا ، دى حكمة ربنا ، عايز تغير الكون ، تعيد تنظيم الدنيا ، انا نجحت فى الانتخابات وانت سقطت . فيه فى السما رب ، وفى مصر حكام ، اولو الامر ، اللى الدولة شايفاه بتعمله . الواحد مثا ينام ويحط فى بطنة بطيخة صيفى ، اللى يعملوه فى مصر سمح ، لازم يكون صبح ، هو كذا صبح من غير مناقشة ، واحنا نفهم آيه ، وانت تفهم آيه . اللى هنالك حكام ودا شغلهم . وعموما الكلام اللى قلته دا مش كلامك ، وانا حا ارى اصحابه وأريك .

صمت الرجال مشحون ، ملء بالتوتر ، وفى نفوسهم ثور الاحلام المحنطة والامانى المؤجلة .

— اختلفوا ، وانعازكوا ، واناقتشوا ، المهم كل دا حا يحصل امتى ، احنا بنتفرج لغاية النهاردة .

الكلمات تخرج من قم ابو السعود ، مشحونة من حبة القلب ، هل يسجد الرجال ما يطلبونه ، ومتى سياى اليوم . قال حب الدين ، انهم رغم كل ما يحدث ، فان تدفق الشرول فى ارض ورداني ، سيفعل لهم ما هو اكثر من اى تصور . وطار فى العيون طائر الاحلام حاملا معه كل شئ فى حياته ، وسقط فى منتصف الطريق ، ولكن الرجال ، ندبوا حظهم ، تباكرو احوال العالم ، ولنسوا ، انه كان طائرا مكسور الجناح .

حياة الرجال ، بكل ما فيها ، بلدهم واولادهم ، ارضهم ، احلامهم الخريفية المعتمة ، حرماتهم ، تقف الآن ، وتحول الحياة بكل ما مضى ، بكل ما هو آت ، الى هذه اللحظة . فتحنى سنام بحاسب نفسه ، ويقدر انه لايد من ابلاغ المسؤولين ، حتى يقف حب الدين عند حده . لقد ارتاح الى انه لم يسكت ، وتكلم بكل شرف ونزاهة ، وكان ملتزما بالتعليمات . وتوعد الناس ، قال انهم كلاب يميلون الى حب الدين ، ومعنى ان بائى يوم يخلق فيه كل الناس ، ويكون كل شئ بيده ، الاكل والشرب والتدخين وحتى التنفس ، وعندئذ سيعرف الناس ، من هو فتحنى سالم ، ويعملون له الف حساب وسيكون الكلام فى حضوره بحساب ، ولا بد وان يعرف الرجل ما سيقوله قبل التطق به .

صمت الرجال ، يتحول الى صمت هادى ، هدوء نابع من احساس بالرضا عن كل ما فى السوالم ، وقد لا يدوم هذا الرضا مساحة الليل فقط ، غير انهم سعداء بلحظات الرضا الصغيرة . على امتداد اعمار الطويل .

احس الرجال ، ان الجلسة اوشكت على الانتهاء ، لم يعد ما يقال ، قاموا من اماكنهم ، قالوا كل ما كنموه فى نفوسهم . ضحكوا ضحكات موشاة بالحبور . بالعيران فوق الارض والناس والاشياء ومشاكل الحياة اليومية . قالوا النكات ، سالوا عن ائمان الحبوب واخبار الجمعية التعاونية ، واسعار المواشى فى السوق . تحسوا اجسامهم . مدوا اقدامهم على آخرها ، رفعوا ايديهم فى الهواء . قالوا ان الجارس يضر بالجسم . ضحك ابو السعود ، قال ان ابناء السوالم اهل ضيق ، ولا ينفع فى الناس سوى الشغل الحمارى ، من اول النهار الى آخره ، وان الراحة لها ناسها فى البنادر . اهل السوالم يوتون من الشغل . والناس فى البنادر تموت من الراحة ، فتمعجب من حال مصر . — واهى دى احدى المعجائب السبع .

ضحك الرجال من كلام ابو السعود ، اخذوا من دكان المعثم يعقوب ما يحتاجه المنازل ، شاي وسكر وجاز ودخان وورق نقره . وتناثرت الكلمات بين الرجال ، وعادت الضحكات الى الشفاه ، واضحى الليسل امام عيونهم موشى بكثير من المسرات ، ياترفى الرجال ، سار كل منهم الى منزله ، ذهب بعضهم الى الجامع ، او عشة سلسبيلة او الى دوار العمدة . قام حب الدين ، نفخ ملاعب من التراب ، سلم على الرجال البائين ، قال له المعلم يعقوب ، وهو يحتوى يده بين كفيه ، وبهزله ضاحكا :

— الرب معين لنا جميعا .

تعليق على ما يرد في السواهم

الأطفال ، يكثر الصبية ، تنمو لهم شوارب كثة . يحبون ، يهيمون بحفلة الغروب في الحقول ، يتزوجون ، يموت الرجال . يدفنون والسر في باطن الأرض . وقد يكون البوح ذات يوم . أو يبقى العمر كله ، وسر الأسرار ، في مكان ما ، تحت الأرض السبعة .
- الموضوع فيه ملغوب .

يقول لهم : أن حامد أبو الليل ، من أهالي الضهرية . كان يتكلم بالأمس عن المشروع ، وقال أن نتائج المشروع لن تعود على السوانم فقط . ستعدها أي البلاد الجبورة . يقول ير السعد : أنه سمع في البلد . لحسه مسه عم . وما ذائب لشركه قد دم بكل هذه الجهود . فإن وجود البترول حتى ويكفيات كبيرة . يو السعد يتكلم . لا يرد عليه أحد . الضعت مرة أخرى . في المساء ، ذهب الرجال إلى الحقل . وقفوا حول الحفر القديم . جلسوا على التراب الأسمر النازك . هيب عليهم سسمة هواء حريفة باردة . نظروا إلى السماء ، فاستقرت في نفوسهم زرقنتها الدكية . أمسكوا بقطع الخشب الصغيرة . نظروا . سمعوا في الخشب القديم . أحسوا بأعجز . لارس وأجهتهم يمر لأعنى لاي منهم . ن ينقش أي رجل ، بما يقال له . الرجال يفكرون في الأمر . ومن الصعب أن توجد في عقولهم فكرة ، أنه لا يتحول ولا أرض ولا أحلام . وهم يدركون أنه من المستحيل عليهم العودة إلى ما كانوا عليه . أيقظ حضور المهندس أشياء كثيرة ، كانت قد ماتت . فطعت جذورها . حججوا عنها لماء وحرارة الأرض . لدرجة أنهم تصوروا أن الأمور انتهت . حفـسـور المهندس إلى أسوان . قلب كل الموازين .

ورداني يجلس بينهم . وهو يدرك أن أرضه لم تبع بسرها ، أنه سعيد ، ويمشي النفس بالحظ . فجأة تغير حاله . في الحلق غصة . وفوق القلب هم ثقيل . ورداني لم يشك من المسألة . وبسأل نفسه : أين الصانع في الأميين ؟ يقول ورداني : قد فعل إلى السر ذات ليلة ، ثم يعود ويقول : أنه لن يكون أكثر من مهندس ولعله والورق والقلم . بخلت الأرض بما فتدها . ورداني يدرك أن الأرض لم تعد أرضه . أرضه كانت مساحة مستوية من الخضرة والسياد . أما الآن ، فالتى هناك شيء آخر .

- أما الحكاية مش داخله دماغ حد .
- دا زمن الأعاجيب .

عشة سلسبيلة مرة أخرى ، الرجال يجلسون . الوقت بعد الغشاء ، حب الدين لا يملك القدرة على مواجهتهم ، على أن تلتقي اميون في صمت ميل بالاسي ، ما يشغل حب الدين . أن يبلغ هؤلاء الناس ، الرجال الجالسين حوله ، ما قاله المهندس . حب الدين لا يتصور أن تصل الأمور إلى هذه الدوجة . أنه صامت . تنال أمام عينيه الأحلام . وبين شففيه يتنام عقب سيجاره . كان ذلك أمرا محتوما . انطوى النهار ، وملاحم الرجال هادئة ، السوانم تبعث لهم بروائح المساء ، ووث اليهائم ، الأرض الجافة ، الزيت المحروق ، التوابل والدهن والدخن ، احتراق الخشب والحطب . وأصوات . المياه المرشوشة على الأرض في الخراب واستراح الرئيسي .
قال حب الدين للرجال : أن المهندس ضعت . سيحضر إلى العشة بعد قليل ، لم يقل له السبب . حب الدين يخمن الأمر . قد يرسل المهندس من البلد ، بعد يوم ، أو يومين على الأكثر .
- وكان يا بدر .
- لا ربحا ولا جينا .

لا يصدق الرجال . وتدرك سلسبيلة خلف التصبة ، وهي تعد الشاي وترس المسبل . أن كل شيء قد. يؤجل العمر كله . الرجال صامتون ، يدركون ، أن الأرض ، تلك الرقيقة القديمة . قدم العمر نفسه ، ليست شيئا عاديا ، وأنه في تلك المساحة الصغيرة ، التي يملكها ورداني ، يمكن سر الأسرار . بعد أيام . تعود الأرض إلى ورداني . وتردم البئر ، يرمون بداخلها الأماني . وكل ما كانوا يملكونه ، يربح ما في قاذبها المسح . ثم يردمون قاذبها بالطين . وعندما يشق من المجرات باطن الأرض ، وتبدل البذور في رحمتهم . وبسبب الشمس والهواء والماء . وتنعاث الأيام والليالي ، فانه يحدث ذلك الشيء الهائل ، الدائم الحدوث ، يثبت زرع أخضر لامع الخضرة من وسط حببات الطين ، ويتحرك مع حببات الخشب . السر سيقال في باطن الأرض . الأيام تمر . بولد

— لا ولسه ياما بنوف .

ليلة الامس . عاش ورداني ليلته ، كانه يعيش معركة ضد اعداء كثيرين ، لوتوا ارضه وحياته . يقع زيت ، اماكن دق الاوتاد ، تار عجل السيارات ، مكان المظلة جراح تملأ ابامه . كان عليه ان يحاربهم ، ابعده عن ارضه . يبطوه الى شجرة في ارض مجاورة اراحو يخرجون له السنهم ، ضحكوا عليه . ورداني يكتشف انه غير مربوط ، غير انه لا يستطيع حتى ان يتحرك من مكانه ، وفي الجو ، كانت رموس الناس مقطوعة ، وعلى الطريق ، اليايدي والارجل وقطع الاجساد وتقاط الدم .

— يايه يا ورداني .

— هيه .

يرفع وجهه للرجال ، في الغد يتسلم ارضه ، يعود اليها مرة اخرى . قال ابو السمود ، وهو يتكلم جادا بلا ضحك : مما دفع الناس الى الانصات له . ليلة الامس تأخرت في نومي ، سهوت كثيرا . الرجال ينصتون . كان بنام بمفرده ، وكان الناس اكلون لحم نيسا له رائحة ، اليايدي يقطر منها الدم ، بين الاسنان لون احمر قان . كان هناك شخص ما يدور على الرجال ، يعطيهم اللحم بغير حساب ، يؤكد لهم ان هذا الشخص ، هو الملم يعقوب ، يضيف ، ان امر الشخص محير ، مرة الملم يعقوب ، ومرة فنحي سالم ، ومرة ثالثة العمدة . استيقظ من نومه وهو يستفت الى الله تعالى ، الا يكون هذا الكلام صحيحا .

— قال الله ولا فالك .

قال ابو السمود : اللحم النبيء في الاحلام قال سيء ، السورالم تنتظرها ايام عصبية . سلسيلة تجلس خلف التسمية هادئة ، حزينة . تنصت لسكلام الرجال ، وتذكر ان هواء العشة اللينة ، غير نفقي وانه مليء بارواح غريبة للدرجة انها تشعر بالرحام في العشة .

— يا ناس ففكوا من دي سيرة .

كل الرجال ، يريدون هذا من قلوبهم ، حديث الاماني ، شيء مختلف عما يقومون به الآن . الحال ان تطلق ، يتعاهدون على الكلام في موضوع آخر ويحاولون ، يختارون موضوعا بعيدا ، يتحدثون ، يسرحون مع الكلمات ، وتثقل الالسنه ، وتلوك الاحرف . وفي النهاية فانهم يعودون رغما عنهم : الى الموضوع الرئيسي .

يسمعون نوححة ، صوت واضح الثبروات ، على باب العشة :

— يا سائر .

— افضل .

— مساء الخير يا رجاله .

المهندس ، بمفرده . يدخل العشة ، يسبقه عطر ، يقف الرجال المرة الاولى التي يدخل فيها للعشة ، وربما كانت الاخيرة . سلم على الرجال . شاب ممثلي ، يتمتع بصحة جيدة ، ملابسه نظيفة ومكوية ، على وجهه بسمة عريضة . اخيرا يقف عصمت فهمي النجماوي امام سلسيلة على الله : تربط بينهما خيوط من الضوء والزيف والحزن . يقرب منها على مهل ، يرفع يده ، تتسع عيناه دهشة ، يفتح فمه ، يرين صمت على العشة : وعلى الرجال .

— انت سلسيلة ، اهلا ، سمعت عنك كثيرا .

يكمل وهو يسلم عليها :

— الحقيقة ، كان نغسي اشوفك من زمان .

تنام بعدها الصغيرة ، بين كفي المهندس . يذكرها دفء اليدين بأشياء كثيرة دفعة واحدة . يوفظ في النفس الحزن والالم والدكريات . تستريح نفسها على وسادة الصوت الخنون . تستقر يدها في راحة كفه . ترد عليه ، تنغم الكلمات نفسها بالرجاء ، بجيش في وجدانها احساس بانغوبة ، وتصور ، وهي تنظر اليه ، شوارع القاهرة ، موجات المياه المرتفعة فوق سور الكورنيش في الاسكندرية ، اعلانات الامبيساير التي تنطفئ وتضيء ، رائحة الشواء والدخان الخارج من ابواب المحلات بالليل ، الاصواء ، السيارات ، العشاق في شوارع الزمناك المظلمة : السيارات الواقفة على جانبي طريق المعادي بالليل ، الهمسات والتأوهات واللابس اللقاة فوق المساعد ، مشاجرة ابن الجيران ، القاهي المزدحمة ، شارع عماد الدين لحظة خروج حفلة تسعة من دور السينما . معاكسات الشسبان ، كلمات الفول ، لثرفة الكاري في البارات .

— انا ماكنش قاترك حنوه كدا .

حديث المهندس يتحول الى نغمة اشتياق عالية ، ترتفع لها النفس . وفي هذا المكان الثاني ، البعيد ، المظلم ، فان سكر ، يتضح لها الآن ، ومع كلمات المهندس ، كل الاكاذيب التي عاشت عليها في الايام الماضية . وسبح الله في اخيرة النفس .

— تشرب آيه يا باشميندس ؟

- ثلثه على حسابي ..

- على حسابي أنا ..

- عتكو ، أنا اللي عازمها ، احنا الاثنين غروب ..

سكت الرجال ، وأحست بعتين في داخلها وهي تتحدث عن
لمربة :

- اسمعوا يا رجاله ..

يجلس الرجال ، يجلس المهندس ، وسطهم ، ينصتون له .
بيما حديثه ، سكر تقول له : انه ضيفها الليلة ، وانها سعيدة
بـ . أرجو ينظروا إليها . يقول ابن الليلة . ليته مريح ، وأن
القلب ينفس عن نفسه الحزن والصدأ . تقوم سلسبيله ، تسوي
ملابسها ، وتدرك كم هي رائحة ، وتعلن السوايم وجب الدين ،
وأياها التي مضت ، تمسك بيدها صينية صفراء ، عليها كوب
شاي وكوب ماء ، تقترب منه :

- انفضل يا زين الرجال ..

في حديثها . خرج الضيوف من عبق الفم ، فبذلت له
الجسد ، تدوس على أرض العشة . يترقب من المهندس ، نشم
فيه رائحة رجل ، بقايا العرق ، ورائحة شراب ، الملابس التي لم
تنشف ، الشعر المبلل بالمياه . تعود سلسبيله ، في حركة بطيئة ،
إلى مكانها خلف النضبة ، وهناك تجلس ، تطفىء الوايبر ، تعد
وها تسكت الراوي : تتحول إلى عيني ينظران إلى المهندس .
- احنا بنشوف بعض لآخر مرة الليلة .

أكمل المهندس كلامه ، قال لهم انهم لا يجب ان يياسوا . البترول
موجود ، كل الذي حدث : هو زلزل اندروج فترة من الوقت .
حاشي يكون شدة كسبه بترول كافي . ما يومه هو ان يؤكد للناس
وجود البترول ، قد يختلف معهم في أكثر من شيء ، والاختلاف
أمر مشروع ، هناك أمر لاسبيل إلى الاختلاف فيه . وهو وجود
البترول .

- دي حاجه تليخبط بياهم ..

- فيه حاجه هنا اتفكرت ..

- مستحيل نعيش قاني ..

- كنا متأكدن من وجود البترول .

لاستطيع المهندس ان يرد على تساؤلات الرجال ، السكلمات
مملة بالرجاء ، ناطقة بمدى ماوصل إليه الرجال في الأيام الأخيرة ،

أحسن المهندس بالذنب . قال الناس لاذنب لهم فيعما حدث . قال
تلاما كثيرا . كل شيء على ما يروم ، لو شاهدتم حال غيركم ،
لادركتم ان حالكم احسن من سواكم . قال : ان ابن عمه في
البلد . كان بلا حذاء . ولسبب ، هو ان اصبعاً من قدمه اليمنى
كانت مقطوعة . كان ابن العم يبكي ، يملا اياه ولباليه بالدموع ،
واشعني أني بعني ، هو أنا كنت عملت ايه . ظل يشرب يبكي ،
بعشر حياته بمرارة والتم . يقول المهندس ظل ابن العم هكذا .
حتى ذهب إلى مستشفى المركز . وعلى باب المستشفى ، شاهدنا
معا ، أمام باب مستشفى المركز ، شاباً آخر ، بلا قدمين . ان أهله
يحملونه إلى المستشفى . يقول المهندس ، ابن عمه عاد إلى البلد
على الفور ، قال لاهله : أنه شاهد ، من هو اسوا منه . وعند
عذا الحد ، أدرك ان حالته لا تستحق حتى البكاء .

الحال هنا قال المهندس : احسن من بلاد أخرى ، يا جماعة أنا
من الفلاحين . فلاح ابن فلاح . خالتسكم دي احسن ، ما
باحسدكم . البترول مهم ذا صحيح ، انما ذا إلى حصل .

يقول لهم : انه سيعود لهم ذات يوم ، الرجال يجب ان يذهبوا
إلى حقولهم ، من الصباح الباكر ، لتنس ما حدث .
- بس إزاي يا باشمهندس ؟

- بس ممكن .

في اليوم : نعتبر ما حدث من كابوس . او حلم . فضحك
المهندس ، فتمكن حكاية مثل حكايات أبو السعود ، التي يحدتها
في الليالي القاتية . الرجال يشعرون بكرهية نحو المهندس .
ما طليه من المستحيل تنفيذه . يقول المهندس : انه يحب السوايم
ويعتبر نفسه جزءاً منها ، خاصة وان البلد فيها رجال ، مثل
حب الدين والولم وأبو لسعود والمعلم يعقوب وفتحى أفندي سام
سى ان يقول لهم ولعمدة وشيخ الخفر . قال لهم : ان مشقة
السب سلسبيله غراء لكل الناس ، وهو يتحسر على الأيام التي
مرت ، لأنه لم يعرف طريقه إلى العشة إلا الليلة .

ربما شعاعة أهل البلد والبلاد الثانية فينا .

سلسبيله تجلس في مواجهة المهندس ، تحدق فيه ، تنرب
تلعنه . أنها تنحو الليلة من حلم طويل ، من نومة عمرها مائة
الف يوم . الناس تنظر وعلى وجهها يستريح احساس مريح ،
أنها تحرك عينها الواسعتين ، وترى على الرجال . وكل رجل

يؤكد لنفسه ، بطريقة ما ، ان بين هذه المرأة ، وبين المهندس شيء ما ، همس راجف ، قسرية ليلية ، وعود غامضة ، رغبات واسعة .

انما الباشمهندس متين !

يحدها الرجال على جراتها . يلتفت الباشمهندس ، ترسم ملل يده على أرض العشة ، خطوطا بالفلو والعرض ، لحقول حرثت وخططت وزرعت غير انها اصابتها البوار .

— مواود في الصيد الجواني ، وشطى في مصر ، وتعلمي كان في الاسكندرية .

— ياه .

وقالت لنفسها ، مرحى يا زمن الزوج ، الدنيا واسعة ، وانها هذا ميتة تنتظر يوم الدفن ، والدفن ككل ما في الحياة بالدور ، وكل شيء محسوب ، ان ما في الصدور كثير بلا حدود .

— والله حنوحشونا يا رجاله .

يقول لهم عنوانه ، عنوان الممسبل والسكن ، يطلب منهم ان راسلوه . اما الذين سدهبون الى مصر ، لسبب أو لآخر ، فهذا هو رقم نايفونه ، في العمل فقط ، فالتليفون في المنزل ، امتياز خاص بالانغناء فقط . يتساءل الرجال ، ان كان في مصر ام الدنيا اقنيا ، تقرأ ، ومعجوا من حال الدنيا . المهندس خلف الناس ، مقام سيدنا المغرب ، يطلب منهم ان يعمروا عليه ، وسيكون تحت امرهم ، ولن يفكر لاي فرد منهم ان ينزل مصر ولا يمر عليه . .. نكره حانكون في مصر يا باشمهندس .

تسأله سلسيله ، الامر حققي ، قالوا لها ساعة الغروب ، ان الامر مزاج ، وسيتم ايضاح الموضوع في الليل عند حضور المهندس ، يبدو ان الامر صحيح . قام ابو السمود ، خرج دون ان يسلم على أحد . انه حه الى منزل المعلم يعقوب ، بسر سبط ، يفكر في الامر . قال لنفسه : ان المهندس سيأخذ مرتبه في اول الشهر . ممعا حدث لللد ، السوالم والناس ، والامر لا يهيم . المصيبة لم تقع الا على رموس الناس في البلد . كانت البلدة نائمة ، غارقة في الظلام ، مقبوسة في الصمت . قال لنفسه : انه لن يفعل اي شيء ، الا بعد ان يسمع راي المعلم يعقوب .

طلب المهندس من الرجال في العشة ، ان يعاهدوه ، على ما تم الاتفاق عليه ، الرجال لا يدونون ما يفعلونه ، بل انهم لا يدركون ان

كان المهندس ، يتكلم جادا فيما يقوله . كان الموضوع كابوسا غريبا . طلبوا من الله ان ينجيهم شر الايام . كانوا ان ايام الايام والأجساد كانت خيرا من هذه الايام ، وان الايام القادمة ، ستكون اسوأ من ايامهم . قال الرجال لأنفسهم : ان الامور كانت سير حسنة أو سيئة ، المهم انها تسير باي شكل ، حتى اتى المهندس وها هو ذا ، يريد أن يترك البلد . ليته ما حضر . سلسيله لا تسمع حديث الرجال ، انها نائمة ، اسكرها الحزن ، تنظر الى الرجال ، تدرك انهم متفاهمون دونما كلمات الايام تغيلة . نعل الحديد . وحكاية البئر والبترول والحياة الجديدة ، ستحول مع الايام القادمة الى حلم قديم صديء . يقول لهم : انه يعلم ، يوحى من داخله ، انه لابد وان يتم اللقاء ذات يوم .

— وسير الحى يتلاقى .

يقف المهندس . يتواعدون على اللقاء صباح القد . وعلى الجسر ، سيكون الوداع .

— ما لسه بدرى .

— المهم تسلم على مصر يا باشمهندس .

يسرع في المرور توف برعته . بعد لها يده . تحضر كفه بيديها الاتنين ، ينأم الصمت على صدر العشة ويخرج الرجال معه .

— الا الباشمهندس اسمه ايه ؟

تقف سلسيله ، تتأذى عليه ، تسأله عن اسمه . يقول لها ، وكان قد اسعد عنها : عصمت هبى النجواوى . تقترب منه ، بدون قد أصبح على الجسر . السجائر في الايدى ، ترتفع ، تدور في نصف دائرة ، تقترب من الإقواء ، تشتعل نارها ، ان السجائر تبدو كالنجوم الملية البراقة .

— انت اسمك عصمت بصحيح .

المهندس لم يسمعها ، تراه من الخلف ، تحاول ان تعزوه . تجرى . تراه عن قرب ، كبتاه متهدنان الى اسفل . يدها تطوحان في الهواء . وراسه مدلى ، والقدم تصطدم بأرض الجسر .

— آيت اسمك عصمت بصحيح ..

لم يرد عليها . في العشة جلست سلسيله تبكى ، لم يكن هناك أحد .

يتصور ان التقود والبتروول والمهندس ، سذبيه برد الشتاء .
كان يقول : ان عدم وجود التقود ، هو سبب البرد . قال له
المهندس ، وكانا يسيران معا على شاطئ بحيرة مرفق
بمفردهما : ان المتي مريح جدا للصحة ، خاصة من اجل القدمين .
كانت تلك هي اسعد لحظتهما . أصبحت عادة ثابتة ومحبة ،
لم يكن احدهما يتصور ان يأتي يوم ما ، لايفرجان فيه معا
ساعة العصري . يتشبان ببطء وبغير نظام ، لجرد الرمية في
التي . الناس تحسد حب الدين ، على هذه اللحظة كل يوم .
والحد قد يصل احبانا الى درجة الكراهية الغمياء .

قال له المهندس : انه قد ثبت بالفعل ، وجود بتروول في
المنطقة ، الشركة لم توافق على الحفر . لانه بتروول غير اقتصادي .
للحظة . لم يفهم حب الدين ، بدت ايامه التي مضت ، كاحداث
مطلوطة . غارقة في الوهم والصاب . وقال نفسه . يا اخي
العلم ، وشعر بالاسف لانه لم يتعلم في الايام التي مضت من عمره .
قال المهندس . مكعلا حديثه . انه ميسفي كافة اعماله منذ
صباح انشد . قد يرحل عن السوالم بعد ثلاثة ايام . فمجرد
وجودهم . يحمل الشركة نفقات ، وأنه لا يستطيع ان يتحمل
المسئولة : ما دامت قد صدرت له التعليمات بنحو المشروع ، على
اساس ان المشروع مؤجل . قال المهندس : انه ان نسي البلد .
ان ينسى حب الدين بالذات .

- انت شاب عظيم يا حب الدين .

- الله يخليك يا باشمهندس .

- انا مش باجاملك ابدا .

يسرا ببطء . حب الدين يسبح في بحار الدهشة ، يسير
عليه نوع ما من عدم الفهم . وحب الدين بطبعته بطيء في فهم
الواقف لجذبة . ومع عادة يستغرق وقتا ، حتى تفصل الامور
اليه . عصمت بالنسبة اليه ، لم يصبح مجرد مهندس وبتر
ومستقبل ، بل انه صديق من لحم ودم .

- دا معناه ايه يا باشمهندس .

- ولا حاجة .

- انا محتار .

- انا اكثر حيرة منك .

اخايد المرأة ، تسال خلال بسمة المهندس . انه يشرح .

الحديث عن البتر والبتروول والمهندس مساحات في القلب .
وحكايته معلقة في اماكن العيون . والرجال لاحدث لهم الا عنه .
شعروا ان الموضوع كله اكبر من فهمهم . فحاثوا ان يفهموه .
نميت منهم العقول والقلوب ، الحال يختلف الان . في كل مساء ،
يجلس حب الدين وسط الرجال في العتبة ، يشرب الشاي ،
ياخذ نفسا من الجوزة ، ينظر في الوجوه ، يفرس في الرجال . يقسم
النار من الجوزة ، ينظر في الوجوه ، يفرس في الرجال . يقسم
لهم ان الايام القادمة ، ستحمل لهم حكاوي كثيرة . كلمات لا حصر
لها ، وعند سماعها لها ، لن تصدق الاذان . مستكذب كل
ما يصل اليها خلالها ، انه يختم حديثه في كل ليلة ، بانه مازال
صغيرا في السن ، ولا يزال هناك متسع من الوقت : تنتظر
ما تأتي به الايام القادمة . يصفق بيديه بعد ذلك « هيه
دنيا » ويرين على الرجال صمت ، يقول بعده حب الدين للجالس
بجواره :

- دا ملك منظمه سيدك .

حب الدين صامت ائيلة . الوقت هو اول الليل . وحب الدين
يجلس في ركنه الصغير . قال له الرجال اكثر من مرة : مالك ؟
لم يرد عليهم . غمض ، ما فيش حاجه والله . كان يسأل : هل
يخبرهم بانه يتصور ان الامر كله خدعة ، الكذوبة من الاكاذيب .
أغمته الحيرة والتساؤلات ، قرا الفاتحة لمشايع البلد ، قال انه
ليس هناك اى شيء صحيح بالرة ، حاول ان يشع بالوهم طول
النهاري .

ذهب الى منزله ، وكان قد صحا مبكرا على غير العادة ، كانت
سلسبله نائمة بالداخل ، لم يشا ان يوقظها . قال لنفسه :
النوم رحمة ، ولكن اين هو ؟ في الرأس صداع ، وفي الصدر
آلم ، ولكن اين النوم : نام على ظهره : واج يتحسس الحصى
بيديه ، سرحت عيناه في السقف الواطيء . المخاوف تتحقق كلها
مرة واحدة . ادرك ان شتاء هذا العام ، لن يكون قاسيا كما

«مختلف تنسدم من فم حب الدين في سرعة . والمهندس
وقوف . وهو لا يتكلم . يتنفي بالانصات . ينظر الي حب الدين
وبسمة رضا تنير وجهه . ويقول لنفسه : ان كل انسان كنز في
حد ذاته . ويقول انه كان ساذجاً . لم يكن يتصور ان يصل
حكاية البئر الى هذه الدرجة . وان يقول حب الدين كل هذا
نكلام . ان تدفق العبارات من فمه . عبارات جميلة . وان باتت
مرة المذاق .

يمودان الى الخلد . والشمس قد تحولت في الافق الغربي ، الى
قرص في لون الدم . وقد اقترب من الارض . الضلال ثالث .
واشعة الشمس للينة تداعب الاشياء . لحظة الغروب . والمهندس
يقول احب الدين : انه اكثر حزناً من أهل البلد . بسبب ماحداث .
المشروع كان اول اعماله بعد التخرج . وكان يمتنى ان ينجح فيه .
ماحدث قل سيء بالنسبة لمستقبله . نجاحه في المشروع . كان يعنى
حياته ومستقبله . لا يستطيع ان يقول مع الناس . الموضوع كان
«قسمة ونصيب» . بل ان هناك ظروفاً . هي التي حالت دون ان
نتم المشروع في البلد . سارا معا . كانت الناس تجلس على ارفف
الجسر صامتين يردون السلام والتحيات ثم لا يتكلمون . الشارع
الرئيسي . الحواري الضيقة . ارض الوقف . الخيام . السواك
يخفى . الخيام والبيوت والناس . المهندس يقف امام الخيام .
يتحدث مع حب الدين . يرفع يده . يسلم عليه . يسير حب
الدين بظلمه . يرفع يده . لا يكون ليده ظلال على الارض . فيدرك
انه المساء . يقف حب الدين . يستدير . يسير ناحية البلد .
حب الدين يجلس بالقرب من الرجال . وهو يفكر في حياهه
وحياة الناس . بعد رحيل المهندس . وطعم الحياة في السواك .
عندما يحاولون العودة الى ما كانت عليه . أسام . الضجر اليومي
المتجدد . الرجال جالسون . يتحدثون . لقد كانوا يتحدثون عن
المناصب والوظائف والحياة الجديدة . تناقشوا . تعاركوا . تركت
الايام واليالي تدور في القلوب والنفوس والصدور كرهوا بعضهم
لحد الموت .

بعد ايام ثلاثة يرحل المهندس . وتعود الحياة الى ما كانت عليه
ان يوجد بترول ولا مهندس . يقترب الرجال من حب الدين .
يجدون انه يبتسم . يتكلم عبارات غير مسبوقة :
— انما الموضوع صحيح يا حب الدين ..
— ماهو مشي لازم التكد في اول الليل ..

يقول كلمات مرة ، وتحول كلمات المهندس الى أسئلة : ومن
خلفهما . كانت السواك . تبدو لهما بيتية . تنال بصوت خافت .
تطلب الامان من الجبل المقبل . وان كانت تعلم انه امان مؤقت .
— انما يا باشمهندس . دا مستحيل
— وايه الفرق بين الممكن والمستحيل يا حب الدين ؟

يتكلم حب الدين بلسان غير نساته . يدور اللسان في الفم دون
ان يدري . يلوذ الكلمات في فمه ويطنحها تحت الاضراس قبل
ان ينطق بها . وبعد الحديث . بعد الكلمات المتناثرة والاصوات
للآخرين . يبقى في الذهن معان عالقة . لم يعبر عنها . تاهت في
زحمة الكلام . حب الدين يتذكر انه لم يقل للمهندس . ان أهل
البلد . خاصوا العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر والخفراء .
خاصوا الحقول والسواك والارض والبيوت والمياه . انهم لم
يلجأوا الى الحقول منذ ايام . قضا هذه الايام . على الجسر .
في انتظار البئر والبتروك والمهندس . من الصعب على اناس ان
يمودوا الى ما كانوا عليه . كانت الليالي طويلة . وفيها حلموا
باشياء كثيرة . والسبب هو المهندس .

حب الدين يريد ان يقول للمهندس . انه اكتشف الآن . وبعد
العمر الطويل . ان كل ما يحدث حوله . يتجه الى اسفل .
وانه يقيم في الحياة بلا هدف . وان طعم المرارة في فمه قد زاد
عن حده . لقد طبع اللسان والاسنان والفم كله بلون قاتم . نسي
ان يتذكر له . ان الالفة التي تربطه بالبلد والناس قد انقطعت .
— انما الحكاية دي حصلت من قبل .

— حكاية ايه ؟
— ان الحفر تم . وبعد كذا يقف .
— طبع حصلت ..
— بلدمك يا باشمهندس . قول الحق ..

لايرد المهندس . يقول له : الرجال يدعوا يضيئون بحياتهم .
الفوها طوال سنوات العمر . الحال تغيرت في الاسبوع الاخير .
ابدى بعضهم ضيقه بسبب الظلام الليلي الدسم . وقال آخر :
الى متى نعيش في البيوت الطينية . وقال ثالث : الحياة اكوار من
التراب . تراب في البيت . وتراب في الحارة والشارع والحقل .
وتسائل ابو السعود : كيف عاشوا السنوات التي مضت من العمر
حتى الآن ؟

إيه رايك يا سلسيله ، ما تيكلمى .

يصمت الرجال ، يستنشقون روائح أبائهم الجافة : أيام متوجة بالنوجس والصلوات ، موشاة بالطماثينة السكاذبة . انهم ينظرون الى الليل ، وفي الظلام تسبح المخاوف على اجنحة الظلام . حب الذين يجلس متكعشا على نفسه ، وغير عروقه يتمدد الوجع والاسى ، ويصمت الرجال ، وتحمل لهم الريح ، من الشاطئ الآخر ، صوت رجل يغنى بجمال الليل ، الصوت احدى من صوت اى رجل آخر ، الكلمات تدعو الحبيب ، اينما كان . تغلب منه الحضور ، كى يتمتع معا بجمال الليل . وكنتمة هواء رطبة . يرتفع الصوت ، هادئا واضحا ، يتحول الى نفمة حزن واشتياق ، ثم يهدد الصوت الى جزء صغير من كتلة الاصوات الليلية المهمة .

— الحكاية كانت حلم ، احنا كنا مغفلين ، كنا مساكين ، انتو عارفين باجماعة ، كل واحد فينا كان عامل زى الفرقان . زى ليه ، كان فرقان بالفعل ، لكننا نشة ، نشابة صغيرة . قطعناها بايدينا وامسنا ، كل واحد فينا خد حته صغيرة ، وقال لنفسه خلاص الاشيا بقى معدن ، وسبحنا ، كنا عارفين ان الواحد منا لو طال الثاني حا يغرقه . انتو طبعا عارفين ايه الى حصل بعد كذا . اكتشفنا فجأة ، ان الى فى ايدينا مش نشة ولا حاجة . كل الى حصل ، اتنا قعدنا بعد كذا ، ومانيش حد فينا مصدق . نسينا ان احنا فرقانين ، نضحك ونبكي ، وبعد كذا قعدنا ننظر معجزة تحصل لنا ، قلنا يا خلق هو ، زعقنا ، رفعنا رءوسنا فى البوا ، ما كانش فيه حد خالص علشان يسمعنا او يشوفنا . اودان انسدت ، والعيون عميت . جت موجة عالية ، عالية . وكان لازم نفرق ، كان لازم نفرق . انتهى حب الدين كلامه . وصمتوا ، كان الظلام مفروشا فوق صدر الليل ، واتزلت الامانى ولاحلام الى اسفل ، تاركة الرجال يصعدون فى بخار الغضب والحزن ، كانت السوالم كلها صامتة : مفموسة فى الدهشة والحنين ، وكانت نظرات الرجال مذبوحة ، وفي الصدور شيء ما ، كالانين الوجيه . الرجال ينظرون الى بعضهم البعض ، وكان بهم تنجس اخاديد المראה فى اعماق القلوب

رفعت سلسيله عينها من فوق النعبة ، نظرت اليهم ، دارت نظراتها فوق الجالسين فى العشة ، همست بصوت ناعم :
— وحدوه

نشرت العبارات من افواههم .

— لا اله الا الله .
ضحك سلسيله .
— كمان وحدوه .
— لا اله الا الله .

حدث احد الرجال ، وجه حديثه الى حب الدين . رجاء ان يخبرهم بلامر كله ، فى الحكاية نشة لا تفهمها عقولهم . لم تم الحفر ما دام المشروع لن يتم . هذه النقطة تعذب الرجال . لم يرد حب لدين عليه . قال لهم : عليهم ان يصبروا . ذات يوم سيعرفون الامر ، ارتفع صوت يغنى فى الخنول . قد اصبح الليل الآن اكثر هدوءا ، والكلمات تسقط على القلوب فتوجع الرجال

— زرعت لو كان .
— سفيته باريت .
— طرحت ما يجيش منه .

ينظر الرجال ، يكتشفون ان وردانى ليس بينهم ، لم يحضر الليلة الى العشة . تخيل الرجال ان فى الامر سرا ما ، قالوا : فلنذهب الى الغرباء . أكد الرجال ان فى الامر سرا ما ، قالوا : فلنذهب الى المهندسين ، نعيد عليه الكلام ، المزاج فى هذه الامور ، غير مريح . تروا الذهاب الى المهندسين ، غير انهم تكاسلوا ، قالوا فلنرجل الموضوع حتى اهد . طلبوا الشاى ، دخنوا الجوزة ، تحدثوا فى كل الامور ، تمتوا ان يكون الامر حلما . الرجال يدركون ان السرور الذى نعموا به فى الايام الماضية ، كان سرورا فاذيا ، مسروقا . لم يكن من حقهم ، الكلمات تتراخى ، وتصبح أصواتهم معلقة بالنفاس ، ويصمت الرجال فى احلام الايام المهجورة ، وتبقى منها فى مآقي العيون أشياء غريبة معلقة ، الاحلام وانثيول والمهندسين والحياة الجديدة .

— ولا بيمكم يا اهل السوالم .
تضحك سلسيله ، تخدش ضحكتها الصمت ، ينظر الرجال زاجيتها :

— خير ايه ، هو انا كفرت .

تلمع ابتسامتها ، يبقى لهم الصمت ، افق شاحب من السكون واليقظة ، يسكون به بين اياديهم . وفى نهاية السهرة ، يقسم احد الرجال ، ان الارض فيها بثول ، وانهم سيقبلون على

انصاعب . ويطلب منهم ارجاء الموضوع الى الغد .

الرجال يعودون الى منازلهم المتناثرة في بيعد الحارات المتبوية .
وفي المقامات الضيقة ، المزدحمة باغلام والصمص . الميمنة بالهمير
والحرمان . يجثرون حكاية البشر . يتنقصون من الدواب غبار
الايام ، ويعودون من رحلتهم . يقولون لانفسهم . في الليل اناس .
ان السبب في يفتنتهم احارقة ، انهم عادوا منذ قليل من رحلتهم
الطويلة ، من بلاد واق الوق . وانهم لم يجدوا كنوز الملك سليمان .
ولم يكن هناك ملك بهذا الاسم . يقول الرجال : انهم عند وصولهم
الى بلاد واق الوق . مرقا الوصلول وير الامان . دخلوا
مراكبهم . اشعلوا خشبها ، وعلى النيران ، اذابوا الخوف اجليدي
النائم على الاعماق . وفي طريق عودتهم . كانوا يتدقرون على مهل .
لاحساس الطاريء بخيبة الامل . لم يجدوا ما يعودون به .
سنعوا من ورق الاشجار مراكب . ومن مايا ملابسهم الممزقة .
اشرعه تعب الهواء . ومن شعورهم الموشه حبال . وعدو . ذلك
انه لا بد من العودة في نهاية الامر . وقال احد الرجال لنفسه :
ان الامور في هذا الزمان عجيبة . وانه محارر .

ذهب احد الرجال الى منزل ورداني . كان يريد ان يخبره ان
رسمه ستمود اليه ، وان المهندس سيترك البلد . وبعد ان خبط
على الباب : واقظ النائمين ، قالت له زوجة ورداني ، من خلف
الباب : انها لا تستطيع ان تفتح . ورداني جاءته الامة .
لايستطيع حتى ان يأخذ نفسه . وان ورداني لوالاولاد وهي جاسون
جميعا ، ينظرون الى السقف الواطى ، في انتظار ان تأتي الرحمة
من عند الله .

رسم المهندس .
قالت زوجة ورداني : واكن مفسدا :

• خبر •

بسلم ورداني ارضه ، صباح انبوم ، من المهندس ، صعد
عمل معدات الحجر . ويقل ان البشر المحفورة في وسطها لم تدم
بعد ، فقلت كالجرح في قلب الارض ، وتبدو كميات الطين الخارجة
من رحم الارض : للعبون وقد جفت . بفعل الشمس والهواء ،
واخبار ونظرات الناس ، ويقال ان ورداني لن يرد للشركة مبيعا
من ايجار الارض . يقول ورداني لنفسه : ان الارض وابشر وم
ديها . ستمود اليه ، ورداني لا يعرف ، هل يفرح او يحزن ، ورداني
يعود الى منزله ، متمشيا على مهله في الحواري الصغيرة الملتوية .
عزل الى حارته . يقف في اولها : امامه تصعد الحارة الى اعلى .
اليون الواطئة ، مساحات من التراب على الارض والجدران
وتلوافد ، الابواب المتكفئة على صدر الحارة الرجال احجائر .
الاطفال الصغار ، في الايادي بقايا حمام جاف ، العيون الدائبة .
المحاجر التي اكلها الصبر والسهاد والمرض ، انعمت التي تطل
من جوف البيوت ، بلادة الارض ، اخر اشعة الشمس المنكسرة
على اسطح البيوت . الحارة من جديد ، تزخر انفه رائحة التراب .
وتنفس الهواء مثقالا رائحة البيوت ، ويسمع لثرلة الناس ، كدمات
قبل من قبل . في حقله لم يشم رائحة الخصوبة . معالم الحقول
فجرت . اباد جهنمية عشت بها . بعد منتصف الليل ، الظلام ، انصمت ،
النجوم اللامعة تبدو كنتقوب في رداء الليل . الظلمة شقت الحلوقة :
السر ما زال بعيدا . السوالم تعود الى ما كانت عليه . في الغد :
سيذهب ورداني الى حقله : سيعالج الامر ، يستر العورة التي
راها كل الناس دونما رحمة . وعندما يهب هواء الصباح
الطري . الشبح بالتدي ، قد يفصل عن الارض عازها .
ورداني يصعد في الحارة ، يتوقف في المنتصف ، من تحته
نزل الحارة حتى الشارع الرئيسي ، الذي يقسم السوالم الى

نصفين . في الشارع أطفال صغار ، ورجال عائدون من الحقول .
ومن اشوارع ، صعدت نسمة هواء خريفية . على البعد .
تتمسك آخر اشعة الشمس ، فوق اعالي الاشجار والتخيل
واسطح البيوت . ورداني يدرك انه لابد وان يواجه الارض بمفرده .
ورداني يستدير ، يستعد في الحارة ، في وجدانه تنسل كلمات
حوال حزين ، وعلى الجدران البليدة رسومات . كلمات من ايام
لانتخابات لتي منحت ، وفوق البيوت عيذان حطب ، غسيل
منشور ، غرف صغيرة ، مخزن معاش ، لا شيء تغير في السوالم
وحتى عودة الارض اليه ، واستلامها ، لا قيمة لها عند الناس .

● اشاعة ●

ارض ورداني ، ارض مسكونة ، يسكنها اهل انجال . جعل
انه حديثنا خفيفا على قلوبهم واسماعهم . وعندما تم الحفر من
قبل . لم يستدبرهم احد من ابناء السبيل . لهذا غضبوا من اهل
البلد . والمطلوب ، عمل «ختمة» لهم ، حتى تنفك العمدة . وينحوا
الارض الامان ، ويظهر المخفى في باطنها ، على ان تكون الختمة
بله اتجمعه . وان يدبح فيها نور اسود غلبس . ولا يوجد في
جسمه شارة بيضاء ، يشتري من بلد ، يقع بحرى السوالم ويُس
قبلها . ويستحم في مياه النيل ، قبل الدبح بيومين ، عندئذ
ستجود الارض بسرها العظيم . ورداني يشعر ، يستدقء بهب
فيه . انه سيمسح برى زوجته غارة ، ان تكرر نظراته عن جسدها
الابيض . تذكر في هذه اللحظة ، انه لم ير جسدها عاريا من قبل .
وتذكر ان اصابه الخسنة قد تمر على النعومة الحربية لجسدها .
الحجرة تكون مظلمة ، وصوت تنفس الاطفال النيام حولها يرحم
الليل .

ورداني يضع قدمه على عتبة داره ، ثمة وقت للزوجة والاولاد
وسط عشاء الليل . واجهة منزله تعالمه ، باب صغير متخفى .
من خشب ناه لونه لاسلي ، عليه آثار دماء متجمدة ، حال لونه
الاحمر . يقول ورداني : ان الدماء هي دماء خروف ذبحه ، بعد
ان اعاد بناءها ، وانه صبغ الباب بدمائها ، بناء على طلب الجزار ،
وحفظ مغروبه شام عليها في لباني الشتاء الباردة . في منتصف
اطار الباب العلوي ، حدة حمار صدئة ، مثبتة بمسامير من
الخشب ، فوق الخشب ، تصطبغ نظراته ببلادة الجدران
الطينية . من الباب يبدو وسط داره ، بهب عليه من داخله ظلام

رطب . من داخل وسط الدار ، تتحرك زوجته واولاده ، والحا
للفخان ترحم السكان .

- ورداني .
- نعم يا باشمهندس .
- دلوقت أنا باسلمك ارضك ، وطبعاً انت استلمت كان
- بشحقائك المادية عن استغلال الارض في المدة ائلي عانت .
- حصل .
- ارجوك ، وقع لي هنا ، باستلام الارض .
- حاضر .
- وقع لي هنا ، بانك استلمت كافة مستحقائك .
- حاضر .
- احنا ظلمتك في حاجه يا ورداني .
- ما حصلش .

بمسك ورداني القلم من يد المهندس ، يشير له حب الدين
بأصمحه الى لمكان الذي يجب ان يقع فيه . ورداني لا يعرف
القراءة . معلو في التمسك التليي كيف يكتب اسمه فقط . شعر
ورداني الى حب الدين ، تسال عيشاه عما في الورقة . ورداني
يعرف ان القلم والاوراق تخون اجسدهم الرجال . الحكاية مرة
كالعلم . ورداني يتذكر ، انه ما من مرة ، امسك بالقلم ، ونظر
الى ورق ابيض امامه ، كي يوقع فيه بامضائه . حتى يخاف من
المحضر والمحكمة بالحجر والمرر . واخرب على النفا والمضارب
ودفع الريال للشاوش في لتوفيقية والوقوف بلا مسند امام
الحكومة . ورداني يقرب عينيه من الورقة . بدت له الورقة كتيه
لا يمكن فهمه ، ان تشاك أحروف كالتحاة ، كسكة الثعبان عندما
تعبث الطريق الزراعي وقت الظهيرة ، يعاود ورداني النظر الى حب الدين :

- يا بارجل امض عيب .
- بحرك ورداني يديه ، يكتب اسمه ، ويعطى القلم للمهندس .
- شوف ارضك وحدودك .
- يتحرك ورداني ، يشعر بخجل ، العيون تفرس نظرتها في
جسمه ، يدور حول حقله من الجهات الاربع ، يجلس ، يتحسس
الحديد ، يدرك انه في نفس مكانه ، وان جيرانه كما هم . قديما ،
قبل ان سوت والده - رحمه الله - نصحه بأن يعلم حدود حقله
علامات لا يعرفها احد سواه ، ابناء الحرام ، لم يتروكوا لابناء

الحلال شيئا ، في هذه الأيام ، أى شيء ، هذا زمن أيام السوء ، وقد يتفكرون الحديد بالليل ، فتقل مساحة أرضه وهو لا يدري . من يومها ، وهناك علامات صغيرة ، بجوار الحايك ، طويتين من الطوب الأحمر ، عود نجيل مربوط عليه فتلة دويرة من المنتصف وفي آخر الدويرة عقدة لا يستطيع أحد أن يعقدها . دار ورداني حول أرضه ، تأكد من الحديد في الجهات الأربع ، تحسس الأرض بيديه ، ثم سار ناحية المهندس :

- خلاص يا باشمهندس ، لأرض زى ما هي ..

يقف المهندس ، تعبت نسمات الخريف بملابسه ، يلف الأوراق ، يضع القلم في جيب قميصه . يمد يده لورداني ، يبدو انحاء الحقول ، كأنه يسبح في نفوس الرجال ، ورداني ينظر ناحية الشرق يلتقي ذرقة السماء الغامضة بسواد الأرض ، وعلى خط الأفق ، شراع سفينة ، تسبح في أنيل ، وغراب يطير في السماء ، وخبط أشجار يمتد على طول الطريق الزراعى .

- ورداني .

- إيوه يا باشمهندس .

- في الحقيقة ، أنا مش عارف أهنيك بأرضك ، والا أعزى أهل البلد .

مرت فترة صمت ، لم يتكلم أحد . أحس ورداني أنه من الواجب عليه أن يقول أى شيء ، الكلمات تاهت منه ، تذكر أن هذا الرجل ضيف عندهم ، وأن سكوتهم قلة ذوق ، بحث في ذهنه عما يقوله ، حرك شفقيه ، رفع يديه في عجز وتسلم .

- الحكاية أن احنا زملانين عشانك ، كنت عرفناك واللى تعرفه احسن من اللى ما تعرفوش ، أهل زمان قالوا لنا كذا .. اصل .

لم يستطع أن يكمل حديثه ، حرك يديه ، هز المهندس يده ضراب في وجهه :

- أهلا بك يا ورداني .

سار الرجال خلف المهندس ، استدار ورداني الى أرضه . قال لنفسه : هذه الأرض ليست أرضه ، لقد ورثها عن أبيه ، أنها أمانة لا بدون يسلمها لابنائهم من بعده . أرضه هي ما يشتره بنفسه ، من حر ماله وهرق جبينه . أما هذه القطعة من الأرض . فما عليه إلا أن يسلمها لابنه الأكبر . تصور ورداني . وهو يقف على رأس حقله . أنه يسلمه الأرض للمهندس . قد خان العائلة

وإن عظام أبيه قلقة في قبره ، كان يجب أن يدافع عنها . حتى ولو ذهب إلى السجن . قال ورداني لنفسه : أنه كان جبان ، اليوم الذى يأتي لا يمكن أن يأتي يوم آخر مثله . رجال هذا الزمان ليسوا رجلا . قال له والده : من يفرط في أرضه ، فقد فرط في عرضه . الأيام ليست سهلة ، سأل نفسه : ابن هم الرجال الذين كانوا سيقفون معه في وجه المهندس . لقد نسى خيانه السوام له ، تركوه بغيره أمام الحكومة ، مما اضطره إلى التسليم . والعزاء الآن . نه في باطن الأرض ، يوجد السر الذي سيكون له وحده . استشهد بنجوم السماء ، كان الهواء مبتدأ على البساط دائريا حول حوائى الأفق .

ورداني يقف وسط دره ، ووجهه تحدته ، وهي في آخر وسط الدار :

- مالك يا ورداني ، لازم صدرك تميك ..

أمامه حجرة صغيرة ، ينام فيها بالليل مع الأولاد . يستقبل فيها الضيوف ، ويجلس فيها أيام الأعياد والمواسم ، تفرش الحصر الجديدة ، تسند إلى الجدران ، مساند جديدة في وسط الدار ، باب صغير ، يفتح على الزريبة وحجرة المعاش . بجوار الباب سلم خشبي يقضي إلى سطح داره . وفوق السطح غرفتان : غرفة يضع فيها خزين الحبوب ، وأخرى تربي فيها زوجته أرانب كثيرة ، تباع يوم السوق ، ولا يأكل منها إلا نادرا .

يجلس ورداني وسط داره ، كل ما حوله يؤكد أن الليل احتوى البلد بداخله . ومع قدوم الليل ، يخاف ورداني ، يدرك أنه يموت ، وقد لا يرى البلد . وستبقى لحظة انتصاف الليل ، هي لحظة مجيء الأزمة . أن ورداني يشعر بضيق مفاجئ . يقوم ، يخرج .

- ما نستنى لما تعشى العيال ..

يستدير ، وهو على الباب . ينظر إلى زوجته وأولاده ، لا يرد عليها . السؤال تستسلم لعالم الظلام ببذء ، والشمس وأهبة الحياة والنور اختفت . ورداني يسير مسرعا ، وفي أنفه رائحة اختمار الأرض الشرائى بعد الري ، وفي أذنه آهين الرياح في الليالي الشتوية . وفي الصدر احساس ميتل بالحزن .

قال ورداني : في صباح الغد ، سيذهب إلى الحقل . هناك سيواجه أرضه بغيره ، الأرض أصبحت غريبة عليه ، وفي القلب والعين ، يشمو احساس مر بالخيانة .

١٢ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ .

في صبي ، كنت اطمح ، بان افصح العمر في المدن الكبيرة . اعيش حياتي بالطول واعرضي لرعمق والارتفاع ، في مساحات اشغال الواسعة ، اماكن يسيل لها اللعاب ، بلاد التلح والغيباب في شمال أوروبا ، مساحات النباتات في المناطق الاستوائية ، فوق ظهر باخرة ، نذهب حتى القطب الجنوبي . وهناك نمزق استمار المجبول . حلمت بالسفر الى بلاد بعيدة ، المدن النحاسية ، البلاد المسولة برائحة الكافور ، التمتع بالحلل ان تتحقا ابدا ، الرغبة في عناق العالم بساقين من الحب والرغبة . اسمع الاغنيات المنذبة على ضفاف اندنوب . اشرب الفودكا في نرى سيبيريا الخالية . اتناول الخراف المشوية في خيمة مفروسة في وسط صحراء مترامية الاطراف ، مرتديا ملايس امير عربى . ادور في بلاد لا اعرف من لغة اهلها حرفا واحدا . اصيح بصوت عال : ليس لعناية قلوب ابشر من حدود . حتى شاء لي ان ارجعه مسيرى بمفردى . في تلك البقعة الوحشة من العالم كانت ممركى الاولى . وذلك هو ختامها .

قد ثبت من كافة التحليلات : احببنا . ومن خلال البشر الاختيارية وجود بترول بالفعل ، قد يكون بترولاً غير اقتصادى . بمعنى ان البلد من البترول المستخرج لا يغطي نفقات الحفر والاستخراج والتكرير ، ويكون التصرف في مثل هذه الحالة ان يجعل المشروع فترة من الوقت ، فترة طويلة . قد تصل الى مئات السنين لتحول البترول خلالها الى بترول اقتصادى . وقد سنى كما هي .

في ابامى الاولى ، كان عندي يقين انه يوجد هنا بترول ، وان المشروع يستو على الوجه الاكمل ، وبدأت خطوات المشروع ، الدراسات النظرية ، حفر البئر لاختبارية . ومن خلال هذه الخطوات ، امكن التوصل الى حصة قدر هامة . تحدد امتداد

المصيدة البترولية ، غور البئر ومساحتها ، مسك الطبقات الرسوبية ، بيانات جيولوجية واقتصادية . نقيم الامكانيات البترولية في اجزاء المنطقة ، توصيات عن مناطق اخرى ، تستحق دراسات تفصيلية . ومن خلال الدراسات ، توصلت ادارة الشركة الى ان البئر الموجودة في اسوالم ، بئر غير اقتصادية ، وبالتالي توقف المشروع . قلت لهم : هنا بترول ، شئتم وانته واحسنت بوجوده ، وفرت عنه في عبون الرجسالى ، قالوا انه بترول غير اقتصادى ، نلم انطق حرفا واحدا بعدها .

امامى هنا ايام قلائل ، كى انهى المشروع ، اسلم الارض الى ساحبها ، اخلع لخيام ، ارسل المعدات الى الشركة ، اشكر الذين معاونوني . ما يهمنى هم الناس . كانت الناس قد تركت العمل في الحقول ، وراحت تنتظر البئر . اساءل : كيف سيذهبون ذات صباح الى حقولهم ، يزرعون ويقلمون ويعيشون حياتهم اليومية المألوفة ، ذلك سعب عليهم ، بدأ بعض معاوني في السفر ، احسنت بالضيقة ، قلت لمعاوني اننى لا اريد ان اقبل اى فرد : - حتى ولو كان حب الدين !

تذكرت اننى نسيته ، لم ارد عليه ، دخلت خيمتى ، كنت افكر في امر حب الدين ، اهم الناس . رجل بسيط ، لم تعلم كثيرا ، ولا يزال مهنة يعيش منها . في داخله شيء ما يميزه عن باقي الناس . احببته ، استريح له . تصورات اننى سبق ان قابلت حب الدين من قبل في مكان غير اسوالم . انه شاب لطيف وضع في مكان غير مكانه . قلت لنفسى : اصعب الامور ان يفهم اناس ما حدث ، وقد اتكلم مع الناس ، يوزون دعوهم علامة الفهم والوافقة ، البدة التى ارتديها تقيم مسافة بينى وبين الناس . بعد ان اتكلم ، اقدمهم يقول شيئا ، لا يعترضنى ولا يناقش وانما يعمل حيل الحديث . اتنا لا تعلم شيئا ، ذلك اتنا لا نجد متسعا من الوقت كى تعلم ما نجهله ، الامام تدفنا الى اللب ، يشرح لنا شخص ما قواعد اللعبة ، بسرعة وبعبارة خاطفة وبلفظ اخرى غير لغتنا . وفي انشاء اللب ، عندما نرتكب الخطا الاول ، ولو كان ذلك بحسن نية ودونما قصد ، فنحن نقتال بلا سبب .

- المشروع حانولج ، بصفة نهائية باصصمت .

- حاضر يا انندم .

رفعت عنى الهه .

- يس يا اقدم .
- فيه آيه يا عصمت .
- لا ولا حاجة .

كنت اريد ان اقول ، ما ذهب الناس في السؤال ، كنت اريد ان احسنه عن حب الدين وورداني وايز السمود والموم والمعلم يعقوب والعمدة والارض والحقول والجسر . سلم على ، ودعني : ركب سيارته ، تركني وحدي . وامامي في السؤال كان العثله ، اجلس في خيبي ، اماسي خلوات المشروع ، لرسومات ، الخرائط كاجات مدونة بالجبر ، عبارات بالقلم الاحمر ، توقيعات ، تعرض على ، تصديق ، بعد النظر في الموضوع . مروت بأصابعي على المشروع ودت نفسي : الاحلام هنا في احروف الصغرة : على الاوراق . وخارج الخيمة ، في السوالم كلها ، لم يكن هناك شخص يعرف الخبر ، قوت ان اخبرهم غدا ، في سباسة المعساري ، على ان اخبر حب الدين أولا ، في سرنا اليوم .

- النتيجة دي زعلتك يا عصمت .

- هيه ، لا يا اقدم .

قالها وهو يقف بجوار سيارته ، تعثرت الكلمات على لسانه ، قلت لنفسي : ان لصمت الزاخر بالمرأة ، خير من اى كلام . احضرت ورقة صغيرة ، ساسطر فيها رسالة الى اهلي ، اقول لهم فيها ، فشتل في مشروعي ، قد احصل على اجازة طويلة ، اقبضها هناك بينهم في قريننا اتنى تمام في حضن الجيل والنيل . ساقول لهم : ان سفرتي الاولى ، لم تصل الى نقطة ما ، والسوالم يا والدي ، كانت مرقا الامان وساحل الهلاك في نفس الوقت .

ان ما يعنى ، اهل السوالم . البشر والشرول والمهندسي والحياة الجديدة . بنحلو في حبانهم الى كذبة كبرية . وحتى لو قلت ان كل السعداء على الارض ، لا يمكن ان ابار بشرول ، ولا حياة جديدة ، فما استمعوا الى كلمة واحده مني . اقول ، واريد ان يسمعي كل رجل في السوالم ، اقول بصوت عال : ان هذا البلد في حاجة الى نبي ، رسول جديد ، يوقف الموتي ، ويغسل الالم ويمسح الجراح . كل ما في السوالم يوحى بالقدم . ان الزراعة والري وحياة الناهي من ميلاد ونمو وحسب وزواج ، كل ذلك يجري ، كما كان يحدث منذ الف السنين . الرجال يزرعون لانه ليس هناك عمل آخر يمكن القيام به ، انساءل : هل لهؤلاء

الناس رى فيما يحدث . وعندما استمع الى اخبار العالم من راوي في اخر الليل . القاهرة تحبكم . اغفاء تكتيا خروشوف من جميع مناصبه . انهيار الحكم العسكري الرجعي في السودان . العين تعجز قبلتها الدرية الاولى . قرش من الاتحاد السوفيتي قدره ٢٨ مليون جنيه وذلك لاستصلاح ٢٨ ألف فدان . سقوط حزب المحافظين في الانتخابات البريطانية وتأييد حزب العمال للحكومة الجديدة . ادرك لحظة سماعي لهذه الاخبار ، ان ذلك يحدث في عالم آخر ، كوكب حقيق لنا . الناس مغزولون من كل ما يحدث . وان سمع احدهم ما يحدث . وعرفه بالصدفة ، فانه يفتح عينيه اللتين بلا رموش . ويتوقف في مكانه ، يفتح فمه ، يقول : ياه ، بقي كل ده يحصل في الدنيا ، يا اخي دي الدنيا واسعة . ثم يمضي في طريقه . كان الامر لايعنيه . اقول : الناس يوتي ، يدفنون كل في ميعاده ، وكل ما يطلبه الناس في الفترة التي تسبق الدفن ، فترة الانتظار والتي يسمونها المعمر ، ان يكون الاكل والشرب والزوجة ، مضمونة حتى آخر ايام المعمر .

انذكر كل ما حدث . كنه كابوسي . مقابلتي للعمدة ، رئيس قرية ششت الانعام . معاون نقطة البوليس ، مفتش الصحة ، رئيس مجلس مدينة ايتاي البارود . أعمدة رجل قريب الاطوار ، كيف كنت ساتعمال معه . رجل بليد الحس ، رجل اعمال مختلف . لقسد كنت اريد ان تمتلئ العيون والقلوب والعقول بأشياء اكثر انسانية . انتهت حكايتنا ، وغدا او بعد غد ، يجلس معهم حب الدين على الجسر او في العشة ، ويحكى لهم حكاية البشر كلها وعندما يخذش شكل الحياة حادث جديد ، فان الرجال يعجزون عن فهم الاحداث مهما تكن بساطته . السوالم كلها ، تلك الكتلة الصماء من الناس والارض والبيوت والحواري ، قادرة على فهم الاحداث بطريقة بالغة الفرافة .

في نقاشي الاخير معهم ، شعرت ان التفاهم قد تم دون كلمات . كان ظفقاء نوعا من الصلاة ، صلاة جديدة . صلاة صامتة . كنا نصلي معا ، لارض ومياه التربة وزرقة السماء وترب الحواري وجدران البيوت ، ولم يكن احد يدري ساعتها ان ذلك اللقاء ، هو اللقاء الاخير .

الناس هنا امام اختياريين : وفي هذا اعالم الصغير الحدود ، القائم على قيم معمرة ، وشكل واحد ، ممل ورتيب للحياة ،

يصبح السؤال شائنا وعسيرا ، ويصبح الجواب عليه في رهبة
أذنوب . عليكم يا أهلي لسؤالكم أن تحذروا . وما أشتق عليكم .
عندما أخبرت الرجال بالأمس ، نظرت إليهم ، وجوههم قاسية ،
يتلصص فوق جلودها النحاسية عناد الريف الصامت ، وادركت أن
العصر الإيوبي المترسب في نفوسهم ، يسيقظ الآن ، وقلت أن
هؤلاء الرجال ، لن يثأروا ، لن يتراجعوا بعد ذلك أبدا .

كان الليل قد استقر في الخارج ، وكانت السوالم كلها نائمة ،
خرجت ، أمام الخيام ، وقفت بمفردي .
- من هناك ؟

كنت أود أن أصعد فوق مثندة سيدي أغريب ، ومن فوقها
أنادي بصوت عال ، أصبح : يا أهل السوالم ، قبل وبحري ،
يا أيها الجوابون المتصاع ، لييل ، حينما يحمر الفجر ،
ويشتر شفقته الأحمر على صفحة السماء . لن يبصروا أننا لطريق
اعودة ، من سفر كل ليلة ، ولكن لم العودة إلى السوالم .

الظلام ووشوشات الأشجار وأصوات الميل تحمل الدهشة
والحنين . بدا لي الناس في هذه الساعة ، يغزلون من ظلام الليل
أحلامهم ، ويتمدد الميل في أعماق الرجال . حاولت أن أقرأ
الظلام . قال لي الخبير أنني بدأت تجرئتي الأولى ، ولكنها جرت
بشكل غير سليم ، الحياة ما زلت ممتدة أمامي ، وأنه ما زال
هناك متسع من الوقت ، كي أقفل ما أريده .

القاهرة من جديد ، المذهب إلى المنزل بعد الظهر ، تناول
طعام الغداء في المطعم المترسطة ، الجلوس في صدر المهي في
السابعة مساء . حل الكلمات المتقاطعة ، قراءة صحف المساء ،
الاستماع إلى فضائح مدينتنا النحاسية ، الشاي والقهوة . لعب
الطاولة والدمى . فقرة التلب . لمسح الحذاء . التمشيط ،
الحساس يفرغ عذب . الغيام ، التسكع في الشوارع ، العودة إلى
المنزل ، وفي الحجرات الصغيرة ، نجتزئ الأجران ، وتناول ما في
هذا العالم من شجن ومرارة وأخفاق .

وهنا ، في السوالم ، سيفضي الرجال . أيام العمر وإباليه .
في انتظار أن تتحقق المعجزة في حياتهم ، ويمتلك البسطاء الأرض
والماء والغذاء . وقد يبذل الرجال في رحم الأرض أخلامهم ،
ويتنظرون ، حتى يتحقق لهم كبرياؤهم الخاص . وعندما قد
يمتلك الناس الأرض والحياة . قد يشعرون بأنفسهم . وأنسون

على الأسرة ، ويستحمون مرة في الأسبوع ، ويقضون حاجاتهم
داخل مراحيض نظيفة ، ويشربون مياه نقية . قد تمتلئ المحافظ
بالتعود ويتعلم أصبية ، قد يمسك الرجال بالجراند اليومي
معدولة ، ويهتمون الأحرف السوداء عليها . وحتى يحدث هذا ،
سأطلق ، أنا عصمت فهمي النجماوي ، أجوب البلاد ، مزهوا
بالتكساري ، وقبل أن أرحل ، أن أسافر بعيدا ، يجب أن أقول
لأهل السوالم ، ماذا أقول لهم ؟ أوصيهم بالصبر أي أن يائي
الحجر . أننا نهزم وبعد الهزيمة . لا أحد الوقت الكافي كي يعود
السكرة . فالوقت يجيء سريعا .

جيمت أورقي . وضعتها على المنضدة . أعددت فراشي .
وجلس . انصت لصمت الميلي . وقبل أن أرحل ، قبل أن
ختم السفرة الأولى ، سأدور في حوارى البلد ، وسأذهب لأول
واحد مرة إلى عشة سلسيله ، وأرسي على الناس والبلد السلام
الأخير . في الليالي التي مضت . كان الرجال يذهبون كل مساء .
إلى عشة سلسيله . عشة صفيرة على سائلي ، سرعه ، وفي
الليل ، أشربة الضوء تبدو من خلال ثوب العشة . أمام العشة
يلمع رصاصية الماء ، ووسط الليل الصامت الهادي ، تبدو
العشة كتلة من الحياة الصاخبة ، مدفونة تحت صمت السوالم ،
وفي المنتصف طليقة قديمة . في آخر العشة من الداخل فمسكان
قديمان كفا على الأرض ، فرشت فوقهما جراند قديمة ، وفوق
أوراق الجراند ، أكواب ، صينية شاي صفراء ، أحجار جوزة
فارغة ، ماشه . وأرجال يكونون دائرة حول الطليقة .
لن أنسى ذلك أبدا .

عندما ذهبت إليهم ، أفسحوا لي مكانا وسطهم . جلست .
سأولت من يد سلسيله كوب شاي صغير . عبارة عن سائل نرح
غامق السواد . مرارة مركزة . يترك أورا دسما على اللسان . وبعد
التردد على مكان مرتفع يحوار سلسيله . صوبه عال ولا أحد
يحب أمه . ليت أن أقول أن سلسيله رائعه . حبيبه .
سأولت لحظة مشاهدتي لها : كيف كانت تعيش هنا . جلس
الرجال في مواجهتي ، ابتعدوا عني . لم يكن يجلس بجواري أحد
منهم . ذكرتيم بالحاكم والمحكوم ، والحكومة ، كما قل لي . حب
الدين من قبل ، لا أحد من رجال الحكومة يجلس رجال بجواره
الظلمات متبادلة بيننا ، الصمت يزحم المكان ، اقترب حب الدين

مضى . في يده الجوزة . الرجال تنظر اليه بدهشة . قدم الى
 الجوزة . لم اشأ ان اردھا . دسست غابتها بين شفتي . سحبت
 نفسا . شيء حاد ساخن يسرى في النفس ، يختلط بمرارة ودسامة
 الشئ . بشيخ في النفس سرورا مفاجئا . تعتمد سخونة هادئة
 من الصدر الى الرأس . ان لكل مجموعة من الناس مسرائهم
 الخاصة . ومهما تكن الحياة جبهة شائنة . فان الناس خادرون
 على خلق مسرات صغيرة . يستسلم الرأس . تدور الغاية بين
 الرجل . يهتد سحرنا مدخل الأرض في جو النفس . لا يبدو
 من الرجال سوى انصافهم . تهيم النفس ويقيب العقل . وتبدو
 سلسلة كحلي نساء أعالي . وفلت للنفس . من لى يجلبس
 واسع وطاقية من الصوف وقدم تشقق من أثر مياه الري . وصدر
 مقطى بالشعر وشارب كث وذقن غير حليق . وعند هذا الحد .
 يبدو سلسله الى . سحرك الإنسية . وحسن في هذا . وتبدو
 أن جسمه سلسله وعد بلذة دائمة . وانها أحلى من نساء
 الفاهرة . ابن كانت في الأيام الماضية . ويصنئ هم مفاجيء .
 دائما تكتشف أحلى الأشياء بعد فوات الألوان ، نجب بعد تساقط
 شعيرات الرأس . تنزوج بعد أن تحبنا الكهولة .
 - ضمني وأنا اضحك ، ليل الشقا طويل .
 تسمى العساري غابت . بالثي بلادك بعيدة .

في سلسله نفس . انصاف الكلمات في حظري . وفي
 النغم . في الدموع الدائمة سحق . غرت حولى . كتب نصف
 نالم . وفي جو العشة ، كان الصخب والضجيج .

يوم الوداع .

٢١ ديسمبر سنة ١٩٦٤

خيام القرى

قال عصمت لنفسه ، على غير موعد سيكون الرحيل . بدا
العلماء في فك الخيام ، حمل كل منهم أنبياءه الخاصة . ورغم
شكواهم الدائمة من الحياة في السواحل ، واستعجال الرحيل ،
ولسبائك من ظلم العلم الذي رماهم هنا ، فإن الرجال هذا
الصباح ، يشعرون بحب للسواحل .
- والله الدنيا دى عجيبة
- حد كان يصدق

وفي مكان الخيام . يبدو آثار الحياه . حذر مكان الارتاد .
اماكن نظيفة من الأرض ، بيضاء لاسعة ، مائي اسره ومكان .
أعقاب سحائر ، فضلات مياه مذروقة ، أوراق ممزقة ، غلب
سردبين فارغة ، ومن اجهات الأربع ، كان اهالي السواحل ، يقفون
في صفوف . عصمت يقف في مكان مرتفع ، ينظر الى الناحية
البحرية ، حيث الأرض والشر المؤجلة الى موعد غير معلوم . قال
لنفسه : انه احب السواحل بكل ما فيها ، وان سلسيله على الله ،
قد تركت في العيون والقلب والصدر ، ما يكرى النفس ، احساس
لاذع ومر ومؤلم . وسأل نفسه : هل سيرها قبل الرحيل .

عصمت فعمى يسير بخطوات بطيئة راسما دائرة ، حول الرجال
النائمين بحمل المكاتب والحقائب والخيام واواني الطعام
والكراسي والاسرة ، نظرا الى اسفل ، ان عينيه تنظران الى نفس
الاذن التي يدوس فيها بقدميه . عصمت يضع يده اليمنى في
جيب بنطلونه الايمن ، ويده اليسرى في جيب بنطلونه الايسر ،
انه يفكر .

ان اصغار من اطفال السواحل قبلي ، واللذين كانوا ذاهبين في
هذه الساعة الى مدارسهم ، حاملين كتبهم ، وداخلين في الهواء ،

محاولين طرد شتاء اتي قبل الاوان ، ما راناو يدركون المهندس ،
في سيره البطيء ، شيايب قمحي اللون ، يرتدي بنطلونا ازرق ،
وقميصا سماليا مفتوح الصدر ، شيايب طويل ، يقال عن مثله من
ابناء السواحل ، انه ولد في ايام الرخاء ، وانه من بيت عز . من
فتحة القميص يطل شعر غزير اسود ، وفي محجريه تدور عينان
عسائتان بيضاء وشاعرية ، تمسحان البلد والحقول . ويومها .
سأل الصغار انفسهم ، وهم في الطريق الى مدارسهم ، عن
السبب فيما يحدث ، فك الخيام ، الناس المتجمعون ، ما يحزن
المهندس فهو يبدو مهموما ، والمهندس في نظره شاب اكمل تعليمه
تخرج ، وتوظف ، واستراح من المذاكرة وضرب المدرس وسؤال
الاب عن سير الدراسة ، واستجداء انقروش القليلة من الاب
والاخوة الكبار . ان صبية السواحل يسمعون دائما عن ايام زمان ،
يقال لهم : كانت اياما عظيمة ، اما هذا الزمان ، فابانه بخيلة
في التقود والصحة والحال ، ولا يدركون السبب ، ان جميع
الاطفال ، قد اقسوا لانفسهم جميعا هذا الصباح ، بانهم لابد
وان يصبحوا مهندسين .

- مالك يا باشمهندس ؟

ترتفع هيناء سائلتين ، هو احد معاونيه ، لا يجيب عليه بكلمات
واضحة ، يستمر في سيره . بعد القدر ، يجلس في مكانه ، في
الدور العاشر من احدى عمارات القاهرة ، يشرب القهوة ، ينظر
من نافذته ، يشاهد اسطح العمارات العالية ، الميادين المزدهجة
الشوارع الطويلة الصاعدة فوق صدر القاهرة ، هذا كل ما هناك .
- المهم ان الحكاية انتهت ..

- حكاية ايه ؟

- سواء بالخير ، او بالشر ، انتهت .

لا يكمل المهندس حديثه ، يستأن ، يحاول ان يتمشى ، يكتب
ان صمت الناس والحقول والبيوت يشعرون ، وعندما ينظر الناس
اليه باحترام ، يقول ان الاحترام يستقلته . عصمت يجد نفسه
مجبورا على ان يرد التحايا ، ويبتسم ، وينحني ، ويقول للناس :
انه رغم ما حدث ، فان كل شيء هنا ، على خير ما يرام .

● الرجال على الجسر ●

لقد تاملوا كثيرا ، وتحملوا ويقوا يتسبون .
قال لهم ابو السعود ، ان غيظ وردائي ، كان من قبل منشد

مئات السنين ، قبر شيخ عظيم .

— قبر سيدنا الشيخ رضوان ، رحمه الله

في منتصف الحقل ، دائره صغيرة ، كانت دائما باثرة ، نباتاتها
صغراء ، تنمو ، تدبل ، ثم يموت . وتبدو من خلال النباتات ، بعد
سمره الارس الغامعة . يقول ابو السعود : ان سن المحرث ، او
حديد انعاس ، لم يكن يسوح في هذه القطعة من الارض . ثم يكن
من الممكن اصلاحها ، لا بالسجاد ولا بالكيماء ولا باليساب .

ابو السعود يرفع صوته . سيدنا الشيخ رضوان زاره في
المنام ، ليلة الاسباء ، كان حزينا . شكى له اهالي البلد . شكى الایام
التي اتدمع فيها الخير . امترح عليهم ابو السعود ان يقوم البلد
ببناء معام صغير لسيدنا الشيخ رضوان . في نفس المسكن الذي
دفن فيه . وهو منتصف ارض ورداني . وبعدها قد يعرجها الله .
لهي ابو السعود حديثه . لم يعلق احد على كلامه . لكن
الرجال يدركون العطره انه حدث لهم خدمه . خيانه . والخيانة
مره الطعم في الحاقوق . كاوبه لحبسات القلوب . الخيانة حدثت
بشكل او باخر : سرقة . مؤامرة . اتى اناس في الليل ، والليل
ليس له صاحب او حبيب . وكله اعداء . اذان نسمع . عيون
رى . سرقوا في الظلام ما في ارض ورداني .

السما صافية ، سماء خريفى كاذب . بعد قليل ، يسافر
المهندس . تاركا البلد . ويعود الرجال الى بيوتهم . نعمسون
اصابعهم بالانهايات . ورسو الدول فوق العيون والوجوه . بدأ
لهم التسامح متعب الجيب . وطار في السماء . طائر اسود اللون
مهاجر نحو الجنوب . وراح يطعن الفراغ . بجناحه في خفة
وسرعه . ويغلب به انتظار الرجال . باعده . حتى وصل الى حافة
الافق . حيث يلهم السماء والارض . وعاد بموته مرة واحدة ،
نظر كل منهم الى الواقف امامه . وكانوا قد عجزوا عن ان تلقى
العيون ، فراح كل منهم يعث بيده .
— ما توحده .
— لا اله الا الله .

ادركوا انهم جميعا موتى . الایام التي مضت . يقول الرجال .
ثم يكن اها صاحب : وايامهم القادمة . ستكون مليئة بانجراح .
الرجال يقفون على الجسر في انتظار المهندس . في العيون نظرات
خائفة . انتظرات تستغل ترميض حمار مذهب . من بعده . كانت

مياه التربة . تسير هادئة . نحو ديمسنا وكمر عرانة . غير مبالية
بما يحدث فوق الجسر . ليلة الاسباء . ذهب الرجال الى حفل
ورداني ، جلسوا حول الحفرة الكبيرة . وكانت بضع الطوب
التساجية من الحفر متناثرة . وراحوا يتمتعون في حطيم القديس .
اقتربوا من الحفرة ، كاد بعضهم يسقط فيها . كانت هناك . مكان
الحفر . مياه تشع تنز من جدران البئر ، واثار اقدام . في
طريق عودتهم ، قالوا كلاما كثيرا . فحكوا ، انفوا التكت ، ضرب
بعضهم بعضا ، وكان الاساع الليلي يعجز الاصوب والحركات
والاحزان .

وقف المهندس بينهم ، اتجهت اليه العيون والايادي والقلوب .
اتفقوا جميعا ، ان الصمت هو خير ما يفعله ، حب الدين اتى
مع المهندس ، كان يبدو عجزوا ، راح ينظر الى مياه التربة
الهادئة ، وهو يقضم اظفاره بهدوء ، سآله المهندس عما يشغله :
— ما فيش حاجة .

المهندس يتشم . لم يقتنع احد من الواقفين بان حب الدين
ليس عشده ما يحزنه . تحركت شفنا حب الدين دونما اداة
منه ، سآله المهندس : هل معه نقود ؟ فقال : انه معه الكفاة ،
سآله عن سلسيلة ، فاخبره بانها قامت مبكرة هذا الصباح ، على
غير العادة وحضرت الى العشة ، كي تراه قبل سفره . شعر
حب الدين عجب حديثه بخجل . السرير يكتسب معنى خائفا .
قد يعيش المراء حساساته بشكل ما ، وعندما يتعمى امام عيون
الآخرين ، فانه شعر بالفضيب . يحاول ان يخفي بعض الاءار .
سآله المهندس : ان كان العمدة قد اقضيه ، او هل هو مريض .

— والله العظيم ما في حاجة .

— امال فيه آيه ؟

طلب منه المهندس ان يحكي لهم كيف قضى يومه ، منذ ان صحا
من نومه . حتى الآن . قال كلاما كثيرا ، ان دماء حمراء تصعد
الى وجهه ، ولم يدر ماذا يقول :
— لازم شفت حاجة في المنام .

— لا .

— افكرت الارض والمدارس وليالى البنادر .

— لا .

ضرب المهندس كفا بكفه ، ركب السيارة ، وهو يحاول ان

بضحك ، اعتدل في جلسته . نظر في ساعة يده . كانت زرقه
أسماء تنعكس على مياه التربة . راحت عيناه تدوران في بطنه على
البيوت والأشجار ومذلة الجامع ودوار العمدة والجسر والتربة .
- سوق يا أسطى .

رفع يده للرجال ، لوجوا له بيديهم ، سارت السيارة ببطء .
وصلت إلى آخر الجسر ، استندت على الطريق ، اعتدلت على الطريق
الزراعي . خيوط النظرات تربط عيون الرجال بالسيارة المتعددة
السيارة تسرع في سيرها منجهة ناحية الضهرة . وتوسعت
المسافة ، فطالت خيوط النظرات حتى توقفت . وأسرع الجسر
والأشجار مرتعنين إلى الخلف ، وارتدى الطريق خلف السيارة
دثناً ، منحولا إلى شريط صغير من التراب الرصاصي ، على جانبيه
الأشجار والحلفاء ، وفوق آخر نقطة في الطريق ، يبدو السماء
زرقاء . السيارة تسرع ، والطريق إلى مصر ، دائما ألسن . وفي
السماء المسؤولة بالشهد ، كانت الطيور تطير مهاجرة نحو الجنوب
معلنة اقتراب الشتاء ، وكانت شمس الخريف اللينة الصفراء
تسكب أشعتها على الكون .

المهندس يفكر في حب الدين . بالتحديد فيما يضايقه . يعمل
نكره ، قال لنفسه : أنه لا شيء يضايق حب الدين . استندار
نظره إلى السوالم ، كانت البيوت تدور في بطنه ، وكانت السوالم
كلها تتباعد ، وتضفر وتنخفض عن مستوى النظر .

● عشة سلسيله على الله ●

قال لها عصمت :

- ياتيجي معايا أوضي ، يا أشوه وشك بمبة النار .

كانت تسير في حارة باب الوداع ، قال أن حجرته بالقرب من
القلعة ، في آخر شارع محمد علي . ليس له جيران . الأيام صعبة
ومن الخير لها أن تطاوعه ، سلسيله تعرف أنه لن يفعل شيئا .
وقفت في مكانها ، وأسراجت الملاة السوداء على ثنيات الجسد
الطري ، راحات نصف البلانة ببطء ، رفعت يدها فوق حاجبها
واهترت الحسد :

- لا ياواد ، خفت منك ، تعال خش في عبي .

شفت عصمت بأسنانه على شفتيه ، حتى كاد يدمعها ، نار
في داخله أحساس ذاتي .

- ما كاتش يتعل يا سي عصمت .
- يا سكر .
- قوت بكرة .

لم يكن من عادتها أن تصحو من النوم مبكرة . قالت لنفسها ،
بعد أن حشرت إلى السوالم : أن أيام القحط - فاندتها النوم .
كانت تنام حتى أذان العصر ، وكانت تدرك أن ما تفعله شبيه
بالمرض . لم يكن نوما ، كان نوعا من الاستلقاء على الظهر ، في
نظارة ما يحدث . في هذا الصباح ، صحت من النوم مبكرة ،
حشرت إلى العشة ، كنستها ، رشت أرضها بالمياه ، منذ قليلين
عرفت أن اسم المهندس عصمت ، لم تصدق ، سألته بصوت عال :
أن كان اسمه عصمت . امتص انظلام صوتها . وناله النداء بين
جنيات الصمت .

سلسيله تجلس في العشة ، في انتظار أن يراه ، أن تقف
أمامه . وتقول العيون ما يقال . تلثي الأيدي . تحك الأنامل .
وتعلا الأنف من رائحة جلده . وتحمله السلام إلى مصر الغالية ،
تريد أن تقول له : أنها هنا ، وتلثي العري ، تحيط بجسدها
نظرات الرجال ، تغطيه بالرغبات .

بعد أن صحت من النوم ، وقفت أمام المرأة ، مشطت شعرها ،
أخرجت من صندوقها القديم ما زنت به : جهها .

- والله زمان يا سكر .
بحثت في صندوق ملابسها ، أخرجت فستانا زاهي اللون ،
أرندته على مهل ، رفعه قليلا بيديها ، راحت تخطو على أطراف
أصابعها في الحجرة ، أدركت أنها ما زالت جميلة .
- ياخسارة ياوت يا سوسو .

ترنمت بمقطع من أغنية قديمة ، طمات مبلة بالفراش واللوعة
شكت سوء الحال . قالت لنفسها : الحياة لم تعد نطاق
تبعث كيف قضت الأيام والليالي والتهود التي مضت . النوم
والأكل والشرب ، النوم والصحو ، النوم والرغبات في العيون ،
غيره حب الدين . الانتظار ، الوعد بالزواج ، الحلم بحياة
مستقرة . السفر إلى المدن الكبيرة . تسادت وهي تدلق مياه
القبيل . وتخرج الشعيرات بأصابعها من بين أسنان المشط ، بعد
أن أكملت زيتنها ، ألم بات زمن الزوج بعد ، وهيمت لنفسها :
متى تشريح اليد في أيدي وتنسج الشفاه كلمات غير مسموعة

وتتحول النظرات الى حبال للعودة .

سلسيله تسير متجهة الى العشة ، الياء تملأ التربة ، اوشكت ايام الجفاف على الانتهاء ، المياه تجري ، دموع الاحزان الجنوبية ذكرى عصمت وحارة باب الوداع والدفء المفقود ، السماء المقسولة الصامتة ، الحقول الممتدة ، سلسيله ما زالت تسير في حوارى البلد ، وسلسيله في سيرها تشاهد البلد وقت الصباح ، تشعر كأنها تشاهد البلد لأول مرة ، سلسيله تفكر في نساء البلد ، لا تذكر انها خاطبت احدا من قبل ، تعاملها مقصور على الرجال وما ان تاتي سيرة سلسيله ، حتى تهتك النسوة .

— الشريرة وبعيد .

ديما يرتين لها في سرهن . وقد تعجب احدها بها ، وهي جميلة ، هذا الإعجاب لا يعلى امام الاخريات ، وقد تمنى احدها ان تحب نساء صغيرة في حلاوة سكر ، ونظا هذه الامنية سرها الذي لا يزوج به لاحد ، حتى ولا ازوجها ، وقد يختلفن في جميع الأمور ، الا انه من المتفق عليه ، ان سلسيله حلوة .

— تقول للتمر قوم وانا اقمع مكانك .

ما ترتديه من ملابس ، يدهش الجميع . سكر تعرف هذا ، وهي منذ ان حضرت الى البلد ، لم تحاول ان تكلم احدي النساء في كل يوم ، تسير في الحوارى الضيقة ، وجزء من الشارع الرئيسي ، واثناء سيرها ، تشهد الابواب والبيوت والنسواند الى الخلف ، وهي تعرف انها مبطنة بمحاجر صغيرة ، تدور فيها عيون بلا رموش ، تشاهدها ، يتحدثون عن حكايتها مع حب الدين ، النساء تقول : سلسيله امرأة ماشية «على حل شعرها» ، وقد تمنى احدها ان تكون مثلها ، وان تفعل ما تفعله ، ونظا هذه الامنيات تجري صامتة ، ودرؤى شباوية في الصدور ، وسلسيله تسمع كل ما يقال عنها ، حتى ما تنبسي به مناقير ايو فردان الأرض المغلقة وقت الري ، وشوشات ورق الثوت ساعة هبوب الريح ، ان الرجال في السوالم ، في مساعات العراك والغضب مع نساءهم ، عابروهن بسلسيله ، وعلى الفور يقال كل شيء ، ولبقي حكاية سكر معلقة في امانى العيون ، كالبراة المفقودة ، او العفاف الذي انتهك وولت ايامه . وقد تذكر النساء ، عند مرور سلسيله عنهن ، ذكريات مدفونة في قاع القمل ، الحلال والحرام ، رائحة زوجها مقترنة برائحة رجل اشبهته . وقد تذكر بعض النساء ،

انها تدوقت الحرام في ساعة راضية ، في الحقول الواسعة ، وتذكر ان السحر كان آخر ما تمناه . تقول النساء : سكر مسكينة وغليظة .

— دى وليه .

— والوليه مكسورة خاطر .

— ويظن لها من الله السحر والفقران .

في العشة ، كانت سلسيله على الله تنتظر .

● منزل فتحي سالم ●

فتحي سالم يقف خائف نافذة حجرته ، تهيم نظرائه في فضاء الحقول المنسج ، تمر عيناه ببطء على ما يراه . استيقظ من نومه متأخرا ، وفي ليلة الامس ، رقد في فراشه ، لم يتم ، فسكر وفكر ، قلب على جنبه ، ضغط على راسه الملتعب بيديه وطلب من الله الرحمة .

ان سحابة من لغبار تتحرك على الطريق الزراعي ببطء الآن ، لم تسرع متجهة ناحية الشمال ، في الاتجاه المعاكس لسير الريح ومياه التربة وطيران الطيور المهاجرة نحو الجنوب . فتحي سالم يدرك انها سيارة المهندس ، وهو مسافر . قال فتحي سالم عند حضور المهندس : ان حضوره خطر عليه ، يشعر بعراغ نسب سفره .

— خلاص .

بدأت له البيوت والناس والتربة والرجال على الجسر ، كصورة معلقة على جدار الذاكرة ، يستعيدوا الانسان كل صباح ، اتي سفر المهندس عليه اعدائه ، وهو لهذا ليس حزينا ، في المركز ، منوه بوفائقة ، بالليل يكتب الاوراق سرا ، وفي الصباح ، يذهب الى المركز . طلبوا منه الا يخبر احدا بذلك ، ولا حتى حبيبة القلب ، اقسام انه لا يعرف احدا ، وان عزته ليست احساسا ناعما من الداخل ، بل هي سور قديم بنته الظروف حوله ، قال انه يتحدث نفسه كثيرا ، عندما لا يجد من يتكلم معه ، تعود الناس ان يشاهدوا نور حجرة فتحي سالم مضاء . انه آخر الاضواء في ليل السوالم الساحر . والرجال الساهرون على الجسر ، يشاهدون ظله يروح ويحيى في الحجرة الصغيرة . منزل فتحي سالم في آخر البلد من الناحية القبلية ، مبني على مكان مرتفع ، ويقول نئناسي : ان المكان المرتفع فوق كوم كان مسكونا بالجن والعفاريت مر قبل ،

وفي الصباح ، كانوا يشاهدون فتحى سالم ، وقد استيقظ مبكرا ، رغم سهره . أنه يترك منزله ، وقد ارتدى بدلة قديمة ، مخططة ، لا يملك سواها ، يمسك بيده شمسية ، يلف حول رقبته متديلا أبيض . انه ذاهب الى ايتاي البارود ، يحرص في سفره على الا يقترب من أحد بالكلام أو الإنصات أو السؤال ، دائما بمفرده .

في ايتاي البارود ، يقول الرجال : انه يسثم على الحكمة ، ويقول هو لأمه بعد عودته ، انه قابل فلانا وفلانا وعلانا ، وشرب الساخن والبارد ، وجلس على المقاعد الوترية ، وراى سماء ايتاي البارود المسقولة بالشهد والحنين من خلال نافذة مغطاة بالستائر الوردية الناعمة .

فتحى سالم يدرك ، ان موضوع الوظيفة المحترمة ، والمرتب الثابت أول كل شهر ، والجاه والمنصب ، قد طال تأجيله . الأمور في منزله قد أصبحت أسوأ من أى وقت مضى ، وكبرياؤه في البلد أصبحت مهددة . وفي كل مرة يجلس هناك ، يشتم ، يحفف جبات العرق ، تتحرك شفتاه في حركة تشي بالتنازل .

ـ ياقول لك بإسعادة اليه .
يقول كلاما كثيرا ، البسمة اللبiche تسبق الكلمات ، والاحرذ

المتأكلة ترحم هواء المكتب .

ـ أنا بسى يا فكر سيادتك .

في البداية ، قرر فتحى سالم . ان يصفى حسابه مع اللد .

سفحات مكتوبة مدون عليها بالبحر الأحمر « سرى اللابة » . طلبوا منه ان يراعى الدقة ، وان يراجع نفسه . ذهب يسأل من السبب في تحولهم عنه وسوء معاملتهم له : لم يعطه أحد وجها . استأذنوا منه ، فالوقت كله ليس شخصيا لمقابلات الناس .

فتحى سالم يعود من ايتاي البارود ذات مساء مريضا ، يسير ببطء ، ينظر ناحية البلد والناس ، كأنه يودعهم . في حجرته ، جلس ، هدى ، قال كلاما كأنه الهلوسة . قال ان الاعداء من امامه ومن خلفه . من امامه أهل السواليم ، ومن خلفه ايتاي البارود . قال انه يجب ان يضرب في كل الاتجاهات والله المستعان . صاح ، يلى ، ارتعش جسمه ، نام في سريره ، أمضى اياما مبللة بالسهاد والمرض ، خاطب اناسا في الخيال . وفي أحلامه ، تشفى وتوعد . وقال : موعدنا القد ، وليس القد بعيد . بعد ان شفى وخرج

الى البلد مرة اخرى . قال الناس : فتحى سالم تغير ، العلم يعقوب همس للرجال ، بعد ان اعطاهم فتحى سالم ظهره ، عائدا الى منزله :

ـ دى صحوة الموت .

فتحى سالم يقول لنفسه : انه كان ينتظر الخير على يدى المهندس

ـ زى كل المرات السابقة ، الواحد يصحى من نومه ، يتصور ان الموضوع فيه حاجة ، يقوم ، يفرح ، يلبس : يشتم ، تكبره الناس ، وتخلص الحكاية ، وأفضل هنا لوحدي ، وورابا حاجات كثيرة . كراهية وخلافات وجراح ، اما قدامى ، بركة ساكنة ، عليها ناموس وهاموش . أدى الحكاية .

فتحى سالم يستدير ، يعطى ظهره للنافذة ، بطالمة المنزل من الداخل ، وفي داخل المنزل ، أمه وأخوته . يسير في حجرته ، أمامه مكتبه القديم المتآكل ، على المكتب قلم ودواة حبر وورق أبيض . هنا يكتب للناس شكواهم . هذه المرة سيجلس ، لن يكتب شكواى . سيكتب عن حالته ، تسع شكواى ، ان تنقص أو تزيد واحدة . يرسلها الى جهات كثيرة . ويجلس هنا منتظرا . في الخارج ، الرجال يتمددون في استرخاء ، وفي حوارى البلد ، يستمع الى صوت وأه يستجدي . انه شحاذ يتجول ، يطلب من الناس ما يفيض من حاجتهم . فتحى سالم يجلس على مكتبه ، ينظف قلمه ، بنفسه في الدواة ، وعلى نافذة حجرته ، هبت نسمة هواء جافة .

● حب الدين سرحان ●

حناجة : انصت يا قلى ، مددت يدى القصيرة ، أمسكت به بجلبابه الطاهر . توقفت ، نظرت الى ، وكانت تطل من وجهه نورانية . قلته : لم حرت السفينة . وفرفت حتى القاع . قال لى : السفينة لم تحترق . اننى انكلم : فهل تسمع الى . ما العمل يا سيدى . خانتنا الربيع ، وفرتت القلاع وجفت المياه . وجفحت السفينة . نامت على أحد جنبها . جلسنا على سطح المياه . انقمرست نظراتنا في سماء الله العالية . انتظرنا ان يطع علينا طائر ، يحدد لنا مكان اليابسة . انقضى العمر ، وباتت العيش . الطائر لم يطع علينا . لم يرد على ، أدار وجهه ، وكان عليه هم عظيم ، سار ، طار في الهواء . وقتل لنفسى : فلنملا القلاع بما في الصدور ونسد الخرق بقطع من القلوب . وعلى

حيث الدموع الدافئة ، ستر السفينة .

بعد قليل ، يستأذن حب الدين سرحان من الرجال ، ويعود الى بيته ، تاركاً مسجله في العشة بمفردها . فهو يريد ان يحلو لنفسه . سنام ، يوما او يومين ، يوما عمتا وقد بنام العمر كله . حب الدين سرحان يدرك هذا الصباح ، انه تمب بما فيه استكافية . هيكلة مريض ، وعظمه تفككت ، ولا يطلب سوى النوم

المهندس ، الباشمهندس ، مهندس البترول ، عصمت افندي ، عصمت بيه ، الباشمهندس عصمت ، مساعدة اليه ، حضر المهندس ، ذهب المهندس ، اتى المهندس ، قام المهندس بعمل كذا . قال المهندس . مكتب الشركة الفرعي بالسوالم بحيرة في سكرتيرية مهندس المشروع . قال المهندس لفلان كذا ، المهندس يعلم كل شيء . قلت للرجال في العشيبة ، ذات مساء اننا ما زلنا صفارا ، واننا نسمع مع الايام اقادة حكاوى ، لن تصدقها الاذان لحظة سمعنا ، العمر ما زال طويلا امامنا . علم المهندس لا تحده حدود . يا اهالى البلد ، الحاضر يعلن الغائب ، وارتفعت رهوس الرجال كسنايل عجفاء تحدف في السماء : نسمع المتنادى ، تقال كلمات ، تدبل على الشفاه ، وسبولد الاطفال - سال - يشون حكاية البئر والبترول واحلام الآباء ، وتحذف الكلمات في بطولة الايام المفقودة . حضر المهندس ، لفا ودر ، سافر وحضر من جديد ، ثار على كل ما في البلد ، قرر ان يضع شيئا يبلغ حد الروعة ، غير ان واقع السوالم ، شكل حياته ، كسره ، وغندما استقصى على النكر قتله . وبعد الحكايات ، الكلمات الملتة بالشروق ، الايام الخفضية بالذكريات . تعود الحياة الى ما كانت عليه والحمد لله . في الليالي الطوال ، غمسوا خبزهم في ماء العين ، مضفوا اللحم حتى التخمرة . وفي الصباح ، تسلل شعاع صغير من ثقب الباب . كتبت انا على طهري ، فاتحا عيني عن آخرهما . كانت الاشياء تبدو في شريف الضوء واضحة ، غار ، ذباب ، ناموسة . تظهر في شريف الضوء ، تعبره في مرة . تفتفي اخفى الشعاع . عرفت ان الشمس قد اسطلمت بمنزل الجيران اثناء صعودها فوق صدر السماء : افتح لهم الباب ، اخذهم بالاخصان ، تمسك اصابعهم الخشنة بالقلب ، تدوس اقدامهم في الصدر ، تضحك ضحكات مسلوخة . وتتحول الاصوات الى نغريات على طبلة الاذن . الى جا يحصل في السوالم معجزة ، وانا

اصر على كلامي ، انا احذرك يا حب الدين انت والمهندس ، الاتحاد حايصني المشروع كله ، تتجوزني ياود يا حب . اقول متى تاني النهاية يا اصدقاء كل ليلة . اسمعوني . بعد ايام تحدث المعجزة ، يتدفق البترول وسعد . صدقوني . ليس هذا كلام المهندس ، او رؤيا شاهدها في المنام . بل ان هذا ما عرفته بنفسي . ستميع لحظة المساء هي القنطرة ، بين الرجال ، وبين الليالي الدافئة : يا رفقة السهر .

— بقايلك صاحب الملك الصحيح .

— اسمعني .

— يطالبك يا جرة الجلاية الى لابسها .

— ها . ها . ها .

ضحك الرجال ، يضربون اكفهم على حوائط العشة ، يستلقون على الارض ، تسيل من اصدائهم ضحكات باهتة .

محفظتك تقول للمعلم يعقوب ساعة مايطالبك باللى عليك :

— اسمعني .

— وانا مالي يا بوي وانا مالي .

— ها . ها . ها .

تمتلئ العين بدموع مفاجئة ، ويتعشش في الاعماق حزن

راكد .

استمعوا ، ساحكي لكم حكاية ، من جذب الايام تغزل الحكايات .

بالحكايا بفر في رحم الارض اخلاصنا . ونجلس ، ننظر ايام

الحصاد ، وفي ايام الانتظار ، نعوم في بحار الكلمات .

— يحكي ، والله اعلم ، انه حدث في قديم الزمان ، وسالف العصر

والاوان ، ان كان في بر مصر ، جماعة من الرجال ، شاققت بهم

العال . واغزهم بسوء المال . قالوا لانفسهم ، لنترك الديار

وتسافر ، لنرى ، هل حدث لغيرنا ، في اى مكان آخر ، ما يحدث

لنا . ثم انهم سافروا ، وكبوا الريح ، وخاضوا المساء المتأجج ،

وداسوا مساحات اليابسة ، غير انهم بعد ان وصلوا الى البلاد

البعيدة ، حدث ان ..

القاهرة

الضويرة - بحيرة ١٩٧٢

تمت